القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين • يوليو - أغسطس 2009



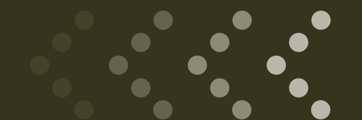
- توحيد العملات.. لماذا وكيف
- جماليات الأدوات العلمية الإسلامية
- الديوان.. تحية للشاعر محمد الثبيتي

ملف العدد

البريد

العدد 4
المجلد 58

قافلة الأبحاث



تنظِّم مجلة **القافلة** نشاطاً بحثياً غرضه إشراك الباحثين الراغبين، لا سيما طلاب الجامعات وطالباتها، بأبحاث ميدانية معمقة في موضوعات تقترحها المجلة أو يقترحها المتقدمون أنفسهم. هدف هذه الخطوة هو كتابة موضوعات تتجاوز المقال العادي وتحقق الشمول والإحاطة بزوايا الموضوع المطروح كافة، لتقديمها في النهاية على شكل مواد صحافية جادة تتمتع بعناصر الجذب والتشويق الصحفي .

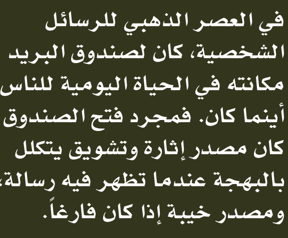
للمشاركة في هذا النشاط البحثي يرجى مراسلة فريق تحرير القافلة على العنوان الإلكتروني التالي:
qresearch@qafilah.com

وذلك من أجل

- الاطلاع على قائمة الأبحاث المقترحة من المجلة.
- معرفة شروط اعتماد البحث وصلاحيته للنشر.
- الاتفاق على الموضوع وتبادل الرأي حول محتوياته وآفاقه.
- تحديد عدد الكلمات وملحقات البحث.
- تعيين المهلة الزمنية للبحث والاتفاق على موعد التسليم.

بعد اعتماد البحث للنشر من هيئة تحرير المجلة، ستصرف مكافأة الباحث حسب سلم المكافآت المعتمد لدى المجلة لكتَّابها.

صورة الغلاف



في العصر الذهبي للرسائل الشخصية، كان لصندوق البريد مكانته في الحياة اليومية للناس أينما كان. فمجرد فتح الصندوق كان مصدر إثارة وتشويق يتكلل بالبهجة عندما تظهر فيه رسالة، ومصدر خيبة إذا كان فارغاً.

Corbis

القافلة



أرامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
خالد بن عبدالعزيز الفالح

نائب الرئيس لشؤون أرامكو السعودية
خالد عبدالله البريك

رئيس التحرير
صالح محمد السبتي

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

مدير التحرير
محمد أبو المكارم

سكرتير التحرير
عبود عطية

سكرتير تحرير مساعد
د. فكتور سحاب

قافلة الأبحاث ومكتب جدة
فاطمة الجفري

مكتب بيروت
رولان قطان

مكتب القاهرة
ليلى أمل

أمريكا الشمالية
أشرف إحسان فقيه

الإنتاج والموقع الإلكتروني
طوني بيروتي

المخرج المنفذ
حسام نصر

الصور الفوتوغرافية
أنور الخليفة

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع التريكي

ردمد ISSN 1319-0547

محطات العدد

يوليو - أغسطس 2009
رجب - شعبان 1430

توزع مجاناً للمشتركين
- **العنوان:** أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa
الموقع الإلكتروني: www.qafilah.com

- **الهواتف:** فريق التحرير 0607 897 3 966+
الاشتراكات 6948 874 3 966+
فاكس 3336 873 3 966+

رسالة المحرر

1 قضايا

انطلاقاً من مشروع الوحدة النقدية في دول مجلس التعاون الخليجي والخطوات المتتالية التي اتخذت مؤخراً والمرتقبة قريباً، تتناول القافلة في مستهل هذا العدد قضية توحيد العملات بشكل عام والتجارب التي كُتب لها النجاح سابقاً بدءاً من الوحدة النقدية لدول غرب إفريقيا غداة استقلالها عن فرنسا، وصولاً إلى اليورو الذي يمثِّل اليوم أكبر عملية توحيد لعملات دول مختلفة في التاريخ.

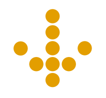


أما «قول في مقال» فيتناول الخلط الشائع، وغالباً بشكل مستتر ما بين غزارة المعلومات من جهة، ومفهوم الثقافة من جهة أخرى، الأمر الذي يؤدي بالكثيرين إلى أن يتوقعوا من التكنولوجيا أكثر مما تستطيع أن تقدمه لهم فعلاً.



2 طاقة واقتصاد

ولأن الشأن الاقتصادي احتل مناخ القضايا، ينفرد موضوع مستمد من عالم الطاقة بباب الطاقة والاقتصاد. ويدور هذا الموضوع حول محطات الوقود التي نشأت أساساً لمهمة محددة وهي تزويد السيارات بالوقود، فوجدت نفسها أمام مهمات متعددة، ومجمعات تجارية وخدماتية شبه متكاملة. ويُستتبع الموضوع العام بنظرة عن قرب إلى واقع حال هذه المحطات-المجمعات في المملكة.



3 علوم وبيئة

أما في مناخ العلوم، فيتضمن هذا العدد موضوعين: أولهما حول التحولات المرتقبة على صناعة الغذاء، التي تبدو أنها تنجرف شيئاً فشيئاً بعيداً عن عالم الزراعة التقليدية، بحثاً عن حلول تقي البشرية النقص في الغذاء من جهة، وتحسن نوعيته من جهة أخرى.

أما الموضوع الثاني الذي يحتل صفحتين فقط، فهو أشبه بجرس إنذار من الخطر الذي يشكله الاستهتار في تعاطينا مع الأدوية، ويكشف بالأرقام أن الخسائر الناجمة فعلاً عن ذلك تفوق التصورات.



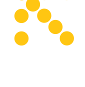
الفاصل المصور

وفي ما يشبه الاستراحة وسط هذه القضايا، يأتي الملف المصور الذي يستضيف عينة من أعمال المصور عبداللطيف العبيداء، المهندس الجيولوجي، التي تعكس رؤيته للطبيعة وكنوزها، خاصة عندما تكون هذه الكنوز ذات أبعاد وطنية.







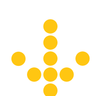


5 الثقافة والأدب

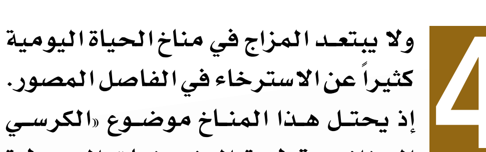
وكما هو الحال في كل عدد، يبقى في باب الثقافة والأدب موضوعان: الأول حول العلاقة الوطيدة ما بين الفن والعلم في الثقافة الإسلامية، وما قدَّمه الواحد منهما للآخر فيها، بحيث باتت الأدوات العلمية التي أنتجها واستخدمها العلماء المسلمون في الماضي، ذات قيمة فنية تطغى اليوم على الوظيفة العلمية التي كانت مرتجاة منها عند صناعتها.

أما الموضوع الثاني فهو بيت الرواية، الذي يتناول في هذا العدد الرواية الثانية للأديب السعودي المعروف صلاح القرشي «تقاطع»، التي لا تكرس الموهبة الروائية لكاتبها فحسب، بل تُعد إضافة ملحوظة إلى الأعمال الجادة الكثيرة التي تشهدها الساحة في المملكة على صعيد الرواية المعاصرة.





4 الفاصل المصور



ولا يبتعد المزاج في مناخ الحياة اليومية كثيراً عن الاسترخاء في الفاصل المصور. إذ يحتل هذا المناخ موضوع «الكرسي الهزاز».. قطعة المفروشات البسيطة هذه، التي عكست منذ نشأتها وحتى رواجها جملة من التحولات التي طرأت على الحياة اليومية وآدابها في كل المجتمعات منذ بدايات القرن التاسع عشر وحتى اليوم.



6 ملف العدد

وفي الختام، وقفة مع البريد.. هذا البريد الذي يجهله تماماً جيل الشباب اليوم، بعدما وجد هؤلاء في البريد الإلكتروني ما يلبي حاجاتهم على صعيد الرسائل الشخصية. ولكن هل انتهى عالم البريد التقليدي حقاً؟

الرحلة معاً

بين سوق عكاظ وجامعة الملك عبد الله للعلوم والتقنية..

حراك ثقافي لا يهدأ

سعد الجميع في العالم العربي بإحياء المملكة لسوق عكاظ، أشهر أسواق العرب قبل الإسلام. السوق الذي كان من أهم المناسبات التجارية والثقافية والسياسية في ذلك العصر. السوق الذي ألقيت فيه أجمل قصائد العرب وأجزلها وأبلغ خطبهم وأحكمها. كما سعدنا بالقفزات النوعية للسوق منذ إحيائه قبل سنوات، والتي تدل على اهتمام القائمين على السوق من مختلف القطاعات ورغبتهم في إعادة تلك السوق التاريخية، بهوية سعودية عربية إسلامية، إلى محور اهتمام العصر، وربطها بتأريخنا العريق.

ولن نستغرب إذا استمرت قفزات السوق في السنوات القادمة في ظل الرعاية الكريمة التي تلقاها المشاريع الثقافية والعلمية في المملكة. والشواهد على ذلك كثيرة تثبت أن بلادنا تعيش حراكاً ثقافياً يقوده خادم الحرمين الشريفين، الملك عبد الله ابن عبد العزيز، حفظه الله. فقد ارتبط اسمه بمنجزات ثقافية كبرى، من أبرزها المهرجان الوطني للتراث والثقافة الذي يقام سنوياً بالجنادرية بمدينة الرياض.

فلقد أصبح هذا المهرجان بمضمونه المميَّز من أهم المهرجانات العربية في مجال التراث و الثقافة. ولعل من أهم ما يحويه المهرجان القرية التراثية التي تتألف من أجنحة تمثِّل التراث المعماري والثقافي لكل مناطق المملكة، مما جعلها ذاكرةً للأجيال ومصدراً من مصادر التاريخ.

والدعم الكبير الذي يقف خلف الحراك الثقاقي في المملكة لايقتصر على المهرجانات والفعاليات الثقافية فحسب بل امتدت آثاره إلى حقول مهمة أخرى. فقبل فترة وجيزة كنا في المملكة نشكو من ركود أكاديمي، ومن انعدام ميزانيات البحوث والمشاريع الأكاديمية في الجامعات، حتى طالعتنا قبل سنوات قليلة وسائل الإعلام باستبيانات عن التصنيف الأكاديمي للجامعات في العالم والتي لم تحظ فيها جامعاتنا بمواقع مشرِّفة. ولكن الدعم الذي حظيت به جامعاتنا في السنوات الأخيرة واهتمام المسؤولين في تلك الجامعات ببرامجها البحثية والتعليمية، رفع من مستوى التعليم الجامعي في المملكة وقفز بعدد من الجامعات السعودية في التصنيفات الأكاديمية العالمية.



ومن جانب آخر فقد تضاعف عدد الجامعات الحكومية أو زاد على ذلك. كما انتشرت في المملكة الجامعات الخاصة المتميِّزة، وزاد عدد الطلاب المبتعثين إلى الخارج، خاصة في برنامج الملك عبدالله للابتعاث الخارجي، الذي دخل عامه الخامس، واستفاد منه عشرات الألوف من الطالبات والطلاب.

كما زاد الاهتمام بالموهبة والإبداع في بلادنا. ونذكر هنا على وجه الخصوص، مؤسسة الملك عبد العزيز ورجاله للموهبة والإبداع (موهبة) التي تنتقي المميَّزين من طلابنا وطالباتنا من كل المراحل الدراسية وتسجِّلهم في برامج لرعاية المبدعين في الداخل والخارج. كما تُسهِّل مشاركاتهم في الكثير من المؤتمرات واللقاءات التي تعنى بالموهبة والإبداع.

وانتشرت في المملكة الجوائز الفكرية والعلمية والتعليمية. وقد برز على المستوى العالمي عددٌ من تلك الجوائز، مثل جائزة الملك فيصل العالمية، التي حصل عليها في فروعها المختلفة عدد من العلماء المرموقين من مختلف أنحاء العالم، كما أن بعض من حصلوا عليها حصلوا بعد ذلك على جائزة نوبل، مما يدل على جودة معايير جائزة الملك فيصل العالمية. كما حصل عدد من العلماء العرب والسعوديين على تلك الجائزة، ومن بينهم الدكتور عبدالعزيز بن ناصر المانع (انظر صفحة 64-65 في هذا العدد).

ولاشك أن من أهم مبادرات خادم الحرمين الشريفين، الملك عبد الله بن عبد العزيز، ذات الجانب الثقافي، إنشاءه لمركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني، الذي أمر، حفظه الله، بإنشائه لنشر ثقافة الحوار وقبول الاختلاف واحترام الآراء المخالفة ومناقشتها بموضوعية وهدوء. فقد أسهم هذا المركز منذ افتتاحه في تأصيل ثقافة الحوار بين شرائح المجتمع المختلفة، وبدأت تظهر نتائجه الإيجابية التي نأمل أن تستمر في التصاعد محققة طموحات قيادتنا الرشيدة.

إن الحديث عن الحراك الثقافي الحالي في المملكة العربية السعودية طويل ومتشعِّب ولا يمكن تغطيته في مقال واحد. ولكن ما يميِّز هذا الحراك أنه ذو جذور راسخة تجعل منه عملا مستداما ينطلق ويتطور ولا يتوقف. ومهما ضاق الحيز فإن هذا الموضوع لا يمكن أن يختتم دون الحديث عن مشروع علمي ثقافي مميَّز يوشك أن يُفتتح في بلادنا، وهو جامعة الملك عبد الله للعلوم والتقنية، التي سيفتتحها الملك عبد الله ابن عبد العزيز في بلدة ثول على ساحل البحر الأحمر بحضور عالمي مميَّز في اليوم الوطني السعودي المقبل (23 سبتمبر 2009م، الموافق 4 شوال 1430هـ). هذه الجامعة كانت حلما يراود خادم الحرمين الشريفين منذ أكثر من 20 سنة، ويتلخص في رغبته في إنشاء جامعة عالمية متخصصة في الدراسات العليا والبحث العلمي تكون مصدراً للإشعاع العلمي الذي يسهم في حل مشكلات مجتمعنا المعاصر، ويخلق جيلا من العلماء الذين سيقودون الحراك الأكاديمي والبحثي في المستقبل.

رئيس التحرير



قافلة القرّاء

إلى..
رئيس التحرير

ترحّب القافلة برسائل قرائها وتعقيبهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

الدمى.. من مقال إلى كتاب

إلى الأخوة الأعزاء بمجلة القافلة المحترمين.. تحية طيبة وبعد..
«أنا أحب دميتي، سيرة عشق الإنسان لصورته الدمية» كان هو المولود الذي ظهر للنور بعد أن كنتم أسهمتم في إشعال شرارته، وذلك عبر مشاركتي في كتابة أحد ملفات القافلة عن «الدمى» وعالمها.
وقد ظفرت بتعليق على الكتاب من قبل السيد كميل حوا، وقد تم تدشين الكتاب وطباعته من قبل مركز الشيخ إبراهيم ابن محمد آل خليفة للثقافة والبحوث وبرعاية من وزيرة الإعلام البحرينية الشيخة مي آل خليفة.
لمزيد من التغطيات والمعلومات عن الكتاب، الرجاء التفضل بزيارة موقعي الشخصي www.scrambledpaper.com وأتمنى أن يحظى كتابي بقراءة خاصة من قبل مجلتكم التي سمحت لي بالكتابة في موضوع الدمى، ليتحول بعد حين إلى كتاب أود أن أوصل نسخة منه إليكم عمّا قريب.

جعفر حمزة
البحرين

القسم الأدبي

لا بد من الاعتراف بأن القسم الأدبي في القافلة متميز جداً، وهذا ما يعترف به الجميع.
فهذا القسم يلعب دوراً بارزاً في الإضاءة على الروائيين السعوديين الشبان وذوي المواهب التي تستحق الاحترام. كما أن الصيغة التي يتناول بها هذا القسم الشعر هي مميزة أيضاً (ديوان الأمس ديوان اليوم).
ولكن عندي ملاحظة وهي أن هذا القسم يبدو ضيقاً للإحاطة أيضاً بالأدب العالمي الكلاسيكي الذي لا نرى له أثراً في هذا القسم. كما أن هناك دراسات جادة مهمة تصدر بين الحين والآخر حول عمالقة الشعر العربي في العصرين الجاهلي والإسلامي، ومع ذلك نجد أنها غائبة عن هذا القسم. فهل المسألة هي فقط لضيق المجال؟

نواف سليمان العبدلي
جدة

القافلة: نعم، المسألة هي بالدرجة الأولى مسألة مجال. ولكن الأدب العالمي لا يغيب طويلاً عن هذا القسم (الفائزون بجوائز نوبل مثلاً). كما أن أبواباً أخرى من المجلة تفرد بعض المساحة للأدب العالمي، حيثما كان مكملاً للموضوع، كما هو الحال في الملف.

عدم الانتظام

يطيب لي أن أكتب إلى مجلتكم الغالية معبراً عن عظيم شكري وامتناني للجهود التي تبذلونها من أجل إخراجها بهذه الصورة المميزة، والتي يستزيد من موضوعاتها الغنية من حيث تنوعها الصغير قبل الكبير، لذا كنت أحد المشتركين فيها منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، وكنت أحرص على قراءتها حال استلامها، ومن بعد ذلك حرص أولادي على اقتنائها والسؤال عنها قبل استلامي لها. وكانت تصلني باستمرار حتى بعد أن أصبحت تصدر كل شهرين. هذا وقد لوحظ في الفترة الأخيرة أن المجلة انقطعت عني.
وأرجو من شخصكم الكريم النظر في موضوع كتابي هذا بنظر الاعتبار وذلك من خلال تزويدي بنسخة من مجلتكم بشكل دوري كما كانت تصلني من قبل، شاكراً ومقدراً مدى المجهود الذي تبذلونه حتى تخرج المجلة بهذا الشكل.

محمد علي أحمد المدوب
المنامة، مملكة البحرين

القافلة: لم يحصل أي إلغاء لأي اشتراك مؤخراً. ربما كانت المشكلة في البريد، أو في مكان الاستلام.

تحية محبة وعرفان

تتألق القافلة من يوم لآخر بين الروح والتعبير، والحيوية تسري بنسماتها ومعانيها، دائماً بيننا، وتتحول إلى مدرسة نتنفس منها عبير المحبة والعلم والفائدة.
أدام الله هذه القافلة المميزة شعلة للعلم والعلماء ومنارة للأجيال.. ودمتم.

د. أنس شنن
جامعة حلب، سوريا

المجلدات القديمة

لقد رأيت ما شدَّ إعجابي في مكتبة أحد الزملاء من مجلدات لأعداد قديمة لمجلتكم الرائعة. تمنيت تلك اللحظة لو أن تلك المجلدات كانت بمكتبة جرير أو العبيكان لقمت بشرائها مباشرة.
أتمنى لو أحصل على تلك المجلدات منذ ولادة هذه القافلة.

مهدي محمد القحطاني
الجبيل الصناعية

القافلة: المجلدات القديمة صارت نادرة وغير متوافرة. نأمل أن تجد ما تبغيه على موقع القافلة الإلكتروني.

ما كنت أخال ذلك

اطلعت مصادفة على عدد من أعداد مجلتكم، وفوجئت بما رأيته حقاً، فما كنت أخال جهة صناعية أو تجارية يمكنها أن تُخرج مجلة ثقافية رصينة متميزة، شكلاً ومضموناً.
إن ما اشتملت عليه المجلة من موضوعات، ومقالات، وتحقيقات، وما امتازت به من حسن الإخراج، ليجعلها تتبوأ مكانة رفيعة في عالم المجلات الثقافية الهادفة. وإنني إذ أشيد بمجلتكم ومستواها ليُسعدني أن أتوجه إليكم بجزيل الشكر ووافر التقدير على ما تبذلون فيها من جهود.
شكر الله لكم، وأنجح قصدكم، ووفقكم إلى مزيد من التقدم.
مع رجاء التكرم بقبول اشتراكي في مجلتكم الغراء.

أيمن بن أحمد ذو الغنى
المستشار الثقافي بموقع الألوكة الإلكتروني، الرياض

ردود خاصة..

إلى الأخوة..

- محمد حسين السمين، الدمام:
العنوان المعتمد هو صندوق البريد الخاص بكم، وليس عنوان المكتب.

- ياسر الفهد، دمشق:
وصلنا كتابكم الثمين «فن الصحافة وصحافة الفن»، ونتمنى لكم التوفيق بإصدار كتابكم الجديد.

- اللواء الدكتور محمد نبهان السويلم، القاهرة:
شكراً للعاطفة التي تكنها للقافلة، وسنعتمد العنوان الجديد في إرسال المجلة إليك.

- آية الخوالدة، عمّان:
ترحب القافلة بكل المواهب الجادة، ونأمل التنسيق مع فريق التحرير من خلال موقع «قافلة الأبحاث» المذكور على بطن غلاف هذا العدد.

- محمد علي البقشي، الهفوف:
لا خوف من انقطاع وصول القافلة إليك. ربما تكون المشكلة في البريد.

المشتركون الجدد

سيف بن عبدالله الأسمري، الخبر - غرم الله الخماش، الباحة - حسين بو حلال، الأحساء - سعود الخالدي، القصيم - عباس العلي، الأحساء - صالح السهلاوي، الأحساء - جمال محمود طيب، جدة - حسين العماد، الناصرية - عبدالله الفريج، الأحساء - محمد فرج الككلي، ليبيا - سالم العميري، سلطنة عُمان - د. أحمد شتيوي، الأحساء - عبدالرحمن بن محمد الدخيل، الظهران - جورج كفا، حلب - جعفر الحسين، الدمام - يوسف بن أحمد القضيب، الدمام - ماجد علي العوى، القطيف - وائل إسماعيل البخيت، الرياض - سبيت هادي عباد، اليمن - صالح علي الغامدي، الباحة - ياسمين أحمد محمد قطب، القاهرة - عصام فارس عابدين، سريلانكا - ياسر طالع الخديدي، الطائف - علي بن نواف الحربي، الظهران - هاوري صالح علي، أربيل، العراق - محمد عبدالرحمن الأحمري، الرياض - منير الدبيسي، الدمام - الدكتور منير سالم، جامعة الملك سعود - حمي عيسى، الجزائر - عبدالعزيز علي الدويه، الأحساء - عبد الرحمن أبو بكر حسان، اليمن - عبدالرحمن منشي، مكة المكرمة - محمد الجواهر، الأحساء - محمد عبدالله العبدالله، الأحساء - جعفر بن حسن الحسيني، الدمام - ياسر طالع الخديدي، الطائف - محمد صالح الخالدي، وحسين علي السلمان، وعباس محمد الشويش، الأحساء - الدكتور محمد بن عبدالله المحيميد، القصيم - حسين بن عبدالله الماجد، الأحساء.

القافلة: وصلتنا عناوينكم وما طرأ على بعضها من تعديل، ونرحّب بكم أصدقاءً لـ «القافلة» التي ستصلكم أعدادها بانتظام من الآن فصاعداً -إن شاء الله-.

قافلة القرّاء

نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات تناقش موضوعات طُرحت في أعداد المجلة فتكون أكثر من رسالة وأقل من مقال.

قرّاء القافلة مدعوون إلى الإسهام في هذا النقاش على أن تكون كلمات المشاركة بين 300 و600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة إلى ذلك.



الأطباء الروائيون

طالعت في القافلة (العدد 2 المجلد 58 مارس/أبريل 2009م) باب بيت الرواية، العرض الرائع لرواية الطبيب والروائي السعودي منذر القباني «عودة الغائب» للأستاذ عبود عطية فكان هذا التعليق.

الأدب هو منبر الحياة الحر والمعبِّر عنها لأن بينهما علاقة واضحة كل الوضوح، إذ إن ارتباط كل واحد منها بالآخر حتمي وذلك لارتباطهما بالكيان الإنساني. وصلة الحياة بالأدب نابعة من مدى إسهامه في حل مشكلات المجتمع لبناء حياة أفضل وأكثر صلاحاً، وبذا يكون تأثير الأدب بقدر ما فيه من إفادة للناس، وبقدر تفاعله مع الأحداث في الحياة الخاصة والعامة، فالأدب وإن كان وعاءً للفن والشاعرية فهو موطن للفكر وبوتقة تنصهر فيها التجارب الإنسانية وينبثق منها الإبداع الفكري. لذلك، فمن المأثور عن بعض الروائيين، أنهم يراجعون ملفات الشرطة أو يبحثون داخل المجتمع، وذلك لينتفعوا من بعض الأحداث التي تتراكم فيها ويوظفونها كمادة قصصية حافلة بحيث يكون العمل واقعياً. بيد أن الطبيب ليس بحاجة إلى مراجعة الملفات واستلهامها أو الاقتباس منها، لأن بين يديه ملفات إنسانية تختلج وتتألم، تبوح وتصرِّح.

الطبيب ودوافعه في ممارسة الأدب

إن مهنة الطب عندما تهيئ لأطباء لأن يروا الطبيعة الإنسانية في حالات المرض، وهي عارية من كل الأقنعة التي يكسوها بها الشباب أو المال أو الصحة أو السلطة، إنما تمدهم بذخيرة ثمينة من التجارب أو الاكتشافات التي لا يتيسر لسواهم أن يعرفوها. وهكذا يجد الطبيب نفسه داخل الحدود التي يفرضها عليه سر المهنة، مدفوعاً إلى نقل جزء من خبراته وتجاربه الكثيرة إلى أولئك الذين قد يجدون فيها بعض المتعة أو الفائدة أو العظة والعبرة.

ولما كان الأطباء إلى جانب خبرتهم بالنفوس والأجسام البشرية يحصلون على ثقافة عالية من خلال دراساتهم الكثيرة اللازمة لمهنتهم، تلك الثقافة التي تفرض عليهم التعود على الكلام أو البحث في مشكلة معينة أو موضوع معين، يصبح من غير المستغرب أن تهدينا مهنة الطب قائمة طويلة من الأدباء الناجحين. لذا يقول الأديب الطبيب الدكتور عبد السلام العجيلي في تعريف الطب: «إنه فن يستقي مادته الإبداعية من العلوم، يقولون عن الفن أنه يكمل نقص الواقع... الطب يصحح أو يحاول تصحيح أخطاء الواقع... مجال إبداعه الإنسان جسماً وروحاً». ويقول الطبيب الأديب أنطون تشيخوف عن دراساته الطبية «إنها وسَّعت على نحو كبير حقل ملاحظاتي، وأغنتني بالمعارف التي لها قيمة بالنسبة إليّ ككاتب ولا يتيسر إدراك هذه القيمة إلاّ لكاتب وهو نفسه طبيب». أما سومرست موم فيقول في كتابه «تلخيص حياتي»: «ولست أعرف مراناً للكاتب أفضل من أن يقضي بضع سنوات في مهنة الطب. إنك قد تعرف الكثير عن الطبيعة الإنسانية في مكتب المحامي، لكنك تلتقي هناك بأناس كاملي السيطرة على أنفسهم. أما الطبيب فيستطيع أن يدرس طبيعة الإنسان عارية مجردة. إذ إن المريض يزيل كل تظاهر وكل تكلف. وإلى جانب ما أمدني به تعلم الطب من معرفة بطبيعة الإنسان، فإنه زودني بالمعرفة بأصول العلم وأسلوب البحث في ميدانه». ويتحدث جورج ديهاميل عن ازدواجية الطب والأدب، وأيهما يفضل فيقول: «صحيح أنني بذلت جل حياتي في تأليف ما يقرب من ثمانين كتاباً والناس جميعاً يُعدونني أديباً. إلا أن الطب هو الذي نما في ظله شبابي وهو الذي فتح عيني على الدنيا. إن أبوقراط هو أستاذي وسأظل أعتبره كذلك وأحييه على هذا الأساس إلى أن ألفظ النفس الأخير».

الأطباء الروائيون

من الأطباء الذين برزوا في ميدان الرواية: سومرست موم، أ. ح. كروتي، فرانك جيل سلوتر.. هؤلاء اعتزلوا الطب تماماً وتفرغوا للأدب. وكان جوستاف اكستابي يخصص أربعة شهور في العام لشغل كرسي أستاذية علم وظائف الأعضاء في كلية الطب بجامعة سنسناتي أما باقي العام فكان يقضيه في كتابة مؤلفاته الأدبية. وكذلك الطبيب الروائي الإسباني الحاصل على جائزة نوبل رامون أي كاخال. ومن هؤلاء أيضاً الطبيب السويدي إكسيل مونته، الذي ألَّف في السبعين من عمره رواية «سان ميشيل» التي قوبلت بضجة في جميع أنحاء العالم حتى أنها ترجمت إلى خمس وعشرين لغة على مدى عامين فقط من ظهورها.

ومن الأدباء الروائيين العرب نجد المرحوم الدكتور محمد كامل حسين، الأخصائي في جراحة العظام والمدير السابق لجامعة عين شمس بالقاهرة وصاحب المؤلفات الأدبية. وما زالت روايته «قرية ظالمة» التي ترجمت إلى لغات أجنبية كثيرة تتصدر قائمة الأعمال الخالدة. وقد كرَّمته الدولة المصرية بمنحه جائزة الدولة التقديرية. والدكتور والعالِم متعدد المواهب صاحب التسعة وثمانين مؤلفاً في مختلف طبقات المعرفة: القصة والرواية والعلم والفلسفة وعلم الاجتماع والسياسة، مصطفى محمود، صاحب روايتي «العنكبوت» و«رجل تحت الصفر». والدكتور متعدد المواهب يحيى الرخاوي، الذي ولد في عام 1933م وعمل مدرساً بكلية طب قصر العيني منذ عام 1965م، صاحب الرواية الشهيرة «المشي على الصراط» التي صدرت في جزءين. ونالت جائزة الدولة التشجيعية للآداب عام 1979م. والدكتور محمود دهموش، طبيب العظام، صاحب رواية «خلف الأبواب المغلقة» والرواية القصيرة «المهنة طبيب». والدكتور متعدد المواهب محمد المنسي قنديل، صاحب المشروع السردي الطويل الذي بدأه في سبعينيات القرن العشرين، ونضج وانتظم في الثمانينيات من القرن نفسه. فبدأ بمجموعات قصص قصيرة أولها «من قتل مريم الصافي؟» 1985م ومجموعة «عشاء برفقة عائشة»، وعدد من الروايات القصيرة منها «بيع نفس بشرية» 1987م، و«آدم من طين» 1992م، والرواية الطويلة «انكسار الروح» 1988م. بالإضافة إلى تدوين قصصي للتراث «شخصيات حية من الأغاني» 1988م، و«وقائع عربية» 1989م، وروايات وقصص للأطفال. كما يعمل حالياً بالصحافة الثقافية في مجلة «العربي» بعد أن ترك ممارسة الطب، وسافر في استطلاعات تقاطعت فيها القارات وتنامت مسالك تواصله مع المتلقي العربي. حتى أبدع لنا أحدث رواياته وأنضجها وهي رواية «قمر علي سمرقند» التي منحت جائزة ساويرس للإبداع الروائي 2007م. أما الطبيب السوري خليل النعيمي، فهو روائي أيضاً، وشاعر، وكاتب رحلات، وناقد. له ديوان شعر وحيد «صور من ردود الفعل لأحد أفراد العالم الثالث»، وله كتاب نقدي «موت الشعر». أما أعماله الروائية فهي «الرجل الذي يأكل نفسه»، و«الشيء» و«الخلعاء» و«دمشق 67» (التي صدرت عام 2003م عن منشورات دار الجمل، كولونيا- ألمانيا). والدكتور نبيل فاروق، صاحب روايات الخيال العلمي المليئة بالجاسوسية ضمن سلاسل مشهورة اشتهر بها وباستمراريتها. والدكتور خالد أحمد توفيق الذي بدأ مشواره بترجمة عيون الأدب الأجنبي، وتقديمه في روايات جيب. ثم قدم سلسلة روايات ما وراء الطبيعة. والدكتور علاء الأسواني صاحب روايتي «عمارة يعقوبيان» و«شيكاغو». وروايته الأولى جعلته ملء السمع والبصر. والدكتور الشاب تامر إبراهيم، الذي فاز بجائزة إحدى دور النشر الخاصة برواية الخيال العلمي عام 1988م، لينطلق بعدها

ويبدع أكثر من رواية مثل: «حين يأتي الموت» و«حكايات المرأة العجوز» و«لعبة رجل ميت» و«منزل الرعب». والدكتور الشاب محمد سليمان عبدالملك، الذي قدَّم عدة روايات بينها «رجل السايبر» و«استعراض رجل واحد» و«الغامض» و«مغامرات س». والدكتور السعودي عصام محمد خوقير، صاحب روايات «في الليل لما خلي»، «الدوامة»، «السعد وعد»، «السكر المر». والروائية الدكتورة أمل محمد شطا، صاحبة روايتي «غداً أنسى» و«لا عاش».

والجدير بالذكر أن ما كتب من دراسات أو سير ذاتية عن هؤلاء الأطباء الأدباء يفيد اشتراكهم جميعاً في نوع من التعامل الإنساني الذاتي، من حيث معاملتهم مرضاهم على أنهم أصدقاؤهم وليسوا زبائن، ومعالجة أكثرهم بالمجان بالإضافة إلى الاستعداد الدائم لتلبية القاصد الملهوف. ولعل في تكوينهم الأدبي وإحساساتهم ما يحقق هذا التناغم الرهيف في حياتهم كأطباء وأدباء. ومن المرجح أنه غاب عنا أكثر مما تداركنا في هذا المجال، إذ إن كل طبيب بداخله أديب وفنان، وهذا ما يعصى على الحصر.

صلاح عبد الستار محمد الشهاوي

مصر - طنطا - نواج

تعقيباً على بيت الرواية «عودة الغائب»، «القافلة» عدد مارس-أبريل 2009



رثاء الشعراء لأبنائهم

جاء في ديوان الأمس العدد 2 المجلد 58 مارس-أبريل 2009م، الفقرة الأخيرة جزءان من مرثيتي الشاعرين التهامي وابن الرومي في ابنيهما، لذا أردت أن أدلي بدلوي في هذا الموضوع.

يُروي عن الأصمعي أنه قال: «قلت لأعرابي: ماللمراثي أشرف أشعاركم؟ قال: لأننا نقولها وقلوبنا محترقة». والحقيقة أن دخان الحزن هو الشعر، أو القول المؤثر. وهو لا يأتي إلا من نار في القلب مستعرة. فقد جرت العادة أن الإنسان إذا ما فقد عزيزاً لديه، تكون نفسه مليئة بالحزن والأسى، مشغولة بتصور من فقد. فإذا كان يملك طاقة فنية فإنه يخفف عن نفسه بالشعر ينشده فيعبر به عما يجيش في نفسه من لوعة واكتئاب. وكثيراً ما يكون الرثاء من الشعر الخالد، لأن البشرية تكاد تتشابه في مثل هذا الحال. والمصائب كثيرة، ولكن مصيبة الموت فيها ما ليس في غيرها. يقول أحد الحكماء: أعظم المصائب كلها انقطاع الرجاء، وميت لا ترجى عودته». ولهذا تكبر المصيبة في الميت إذا كان عزيزاً. وليس هناك أعز من الولد. ومن الشعراء هناك من رثى ابنة بديوان شعر كامل مثل الشاعر علي بن عبدالغني الحصري، توفي 488هـ، له ديوان مرتب على حروف المعجم في رثاء ولد له، عنوانه «اقتراح القريح واجتراح الجريح». والشاعر ابن مكي: علي بن أحمد، توفي 598هـ، مات له ولد، فصنف ديوانه «سلوة الهموم». والشاعر المهجري زكي قنصل (1916 - 1994م) رثى ابنته سعاد بديوان كامل. والشاعرة السورية هند هارون (1927 - 1995م) رثت ابنها عمَّار بديوان كامل حمل اسمه.

وقديماً قال الشاعر:

وإنمـــا أولادنـــا بيننـــا	أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم	لامتنعت عيني من الغمض

ومن أشهر قصائد رثاء الولد في الشعر العربي، قصيدة أبي ذؤيب الهذلي يرثي فيها أولاده السبعة، وقد ماتوا جميعاً إلا واحداً:

أمن المنون وريبها نتوجع	والدهر ليس بمعتب من يجزع
أودى بنيّ وأعقبوني حسرة	بعد الرقاد وعبـرة ما تقلع
سبقوا هواي وأعنقوا لهواهم	فتخرموا ولكل جنب مصرع
فبقيت بعدهم بعيش ناصب	وإخـال أنـي لا حـق متتبـع
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم	وإذا المنيـة أقبلت لا تدفع
وإذا المنية أنشبت أظافرها	ألفيـت كل تميمـة لا تنفـع

أما في العصر الحديث فقد وقفت طويلاً أمام رثاء نزار قباني لابنه توفيق (1949-1973م) في قصيدته «إلى الأمير الدمشقي توفيق قباني» لصدقها وما فيها من إحساس عميق بالألم، والتي يقول فيها:

أواجه موتك وحدي
وأجمع كل ثيابك وحدي
وألثم قمصانك العاطرات
ورسمك فوق جواز السفر
وأصرخ مثل المجانين وحدي
وكل الوجوه أمامي نحاس
وكل العيون أمامي حجر
فكيف أقاوم سيف الزمان
وسيفي انكسر..؟

وفي مقطع آخر من هذه القصيدة المؤثرة يقول نزار:

وأمس أتوا يحملون قميص حبيبي
وقد صبغته دماء الأصيل
فما حيلتي يا قصيدة عمري
إذا كنت أنت جميلاً
وحظي قليل..

ويواصل نزار «استحضار» ذكرياته عن ابنه «توفيق» فيقول عن الفترة التي قضاها «توفيق» في القاهرة:

هاهي شقتك القاهرية، هذا سريرك
هذا مكان جلوسك، ها هي لوحاتك الرائعات
وأنت أمامي بدشداشة القطن
تصنع شاي الصباح
وتسقي الزهور علي الشرفات
أحاول ألا أصدق عيني
هنا كتب الطب مازال فيها
بقية أنفاسك العاطرات
وهاهو ثوب الطبيب المعلق
يحلم بالمجد والأمنيات
فيا نخلة العمر..كيف أصدِّق
أنك ترحل كالأغنيات
وأن شهادتك الجامعية يوماً
ستصبح صك الوفاة. (توفيق كان يدرس الطب في جامعة القاهرة)

أما الشاعرة سعاد الصباح، فترثي ابنها الراحل باستدعاء إحدى العادات الاجتماعية الجاهلية: وأد البنات، وتوظفها في قصيدة رثاء للراحل تعبِّر فيها عن حزنها الفادح على رحيله، حتى لتتمنى لو أنها كانت ولدت في العصر الجاهلي لتوأد قبل أن تتزوج وتنجب وتثكل ابنها. تقول في قصيدتها «ليت»:

ليـت أمـي ولـدتـنـي فـي زمـان الجاهلية
بيـن قـوم يـئدون البـنت فـي المهـد صبية
قـبـل أن تـصـبـح أمـاً ذات أزهـــار ندية
وتـذوق الـشكل والـسـقـم وألـــوان البلية

سهير أبو بكر عبدالوهاب الشاذلي

مصر - طنطا

تعقيباً على ديوان الأمس.. ديوان اليوم «ويسألونك عن روح الشعر»، «القافلة» عدد مارس-أبريل 2009

قافلة النشر

إصدارات جديدة

الدار العربية للعلوم ناشرون




الزمن في اللغة العربية
امحمد الملاخ

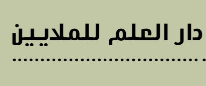

في فلسفة التاريخ
خاليد فؤاد طحطح


في الرواية العربية الجديدة
فخري صالح


فلسفة العدالة في عصر العولمة
بومدين بوزيد


شيفرة أدونيس الشعرية
محمد صابر عبيد

دار العلم للملايين




أطباق سهلة ولذيذة
سلسلة الطبخ العالمي







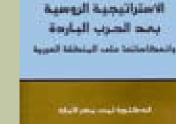
المشروبات والعصائر اللذيذة
سلسلة الطبخ العالمي

كرباج ورا (قصص قصيرة)
فاطمة العريض

الإدمان على الكحول والمخدرات
د. فيصل الزراد

الجمل الذي التقى النجوم
نهى طبارة حمود

المنظمة العربية للترجمة
مركز دراسات الوحدة العربية



الاستراتيجية الروسية بعد الحرب الباردة
د. لمى مضر الأمارة

أن تكون عربياً في أيامنا
د. عزمي بشارة






ما الجمالية؟
مارك جيمينيز


من الكواركات إلى الثقوب السوداء
ريتشارد هاموند


تاريخ علم الفلك القديم والكلاسيكي
جان بيار فردي

مقاليد



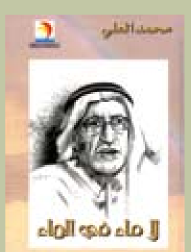

مستقبل العمل
جاك أتالي

خطاب الصحافة اليومية
سوفي موارا ن

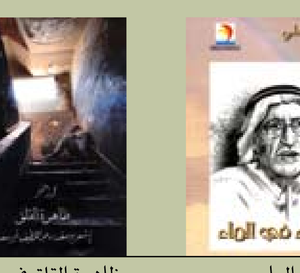
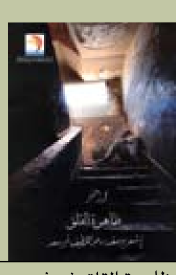
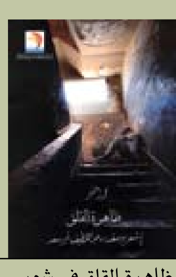
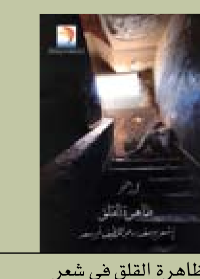

إلى أين يسير العالم؟
إدغار موران

نادي المنطقة الشرقية الأدبي





لا ماء في الماء
محمد العلي

ظاهرة القلق في شعر يوسف أبو سعد
محمد البشير

انزلاق كعوبهم
إبراهيم الحسين

موت المغني فرج (نصوص مسرحية)
عبدالعزيز السماعيل

أبو فراس الحمداني في رومياته
د. خالد بن سعود الحليبي

دار الآداب







هواء قليل (رواية)
جنان جاسم حلاوي

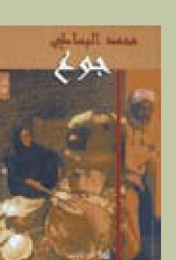
روائح ماري كلير (رواية)
الحبيب السالمي



حب بيروتي (رواية)
سحر مندور

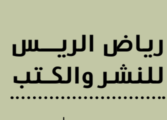



بلا صاد (رواية)
د. عبدالإله بن عرفة



جوع (رواية)
محمد البساطي

رياض الريس للنشر والكتب






ولدت هناك، ولدت هنا
مريد البرغوثي



بلغني أيها الملك الحزين (رواية)
محمد أبو معتوق




قصقص ورق (رواية)
عبير اسبر



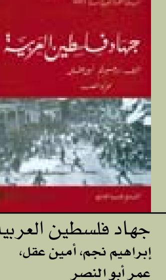
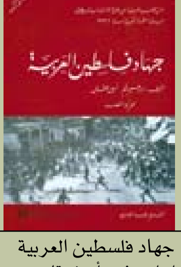

عيون الثعالب (رواية)
ليلى الأحيدب

لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي (ديوان)
محمود درويش

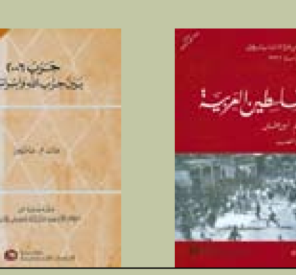
مؤسسة الدراسات الفلسطينية




المفاوضات المتعددة الأطراف لعملية السلام
أحمد قريع

جهاد فلسطين العربية
إبراهيم نجم، أمين عقل، عمر أبو النصر



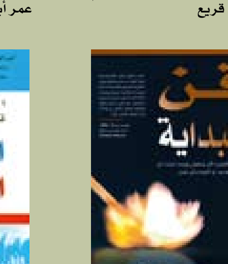

حرب 2006 بين حزب الله وإسرائيل
مات ماثيوز

يوميات خليل السكاكيني الكتاب السابع
أكرم مسلم

مكتبة جرير



المحادثات الواثقة
مايك بيكتل



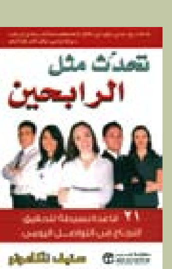
فن البداية
جاي كاوازاكي



اللحظة الفاصلة
براين تريسي




منهج سيجما 6
بيتر باند، روبرت نيومان، روناد كافانا



تحدث مثل الرابحين
ستيف ناكاموتو


STATE OF QATAR
KUWAIT
1992

على هامش الوحدة النقدية الخليجية..

لماذا وكيف توحِّد البلدان عملاتها؟



العملة الخليجية الموحَّدة مشروع بات قاب قوسين من أن يتحقق، وكانت آخر الخطوات الكبيرة في هذا المشروع قرار مجلس دول التعاون الخليجي اعتماد العاصمة السعودية الرياض مقراً للمصرف المركزي للعملة الخليجية الموحَّدة. فلماذا توحِّد البلدان عملاتها؟

الدكتور فكتور سحاب يستعرض بعض التجارب العالمية على صعيد توحيد العملات والدوافع إليها، ويعرّج على الأسباب التي تدفع إلى ذلك، وأيضاً تلك التي تحول دون تحقيقها في بعض الظروف، إضافة إلى ما يلوح في أفق توحيد العملة الخليجية من نتائج إيجابية على اقتصادات دولها.



الوحدة النقدية، أو ما يسميه الخبراء أحياناً الوحدة الاقتصادية والنقدية، هي الخطوة التي تتخذها مجموعة بلدان عندما تعتمد نقداً موحَّداً، وتفتح أسواقها الاقتصادية فيما بينها، لتكوّن منطقة تبادل حر.



Getty Images

تُعد الوحدة النقدية الأوروبية التي اعتمدت اليورو عملة لها، الوحدة النقدية الكبرى في العالم اليوم، لكنها ليست الأولى، ولن تكون الأخيرة على الأرجح. فدول مجلس التعاون الخليجي تسعى في هذا الاتجاه، وكذلك دول منطقة جنوب شرق آسيا، ودول أمريكا اللاتينية. وكانت دول في غرب إفريقيا أنشأت عملة موحَّدة لها منذ ستينيات القرن الماضي.

أهم حسنات الوحدة النقدية أنها تنشِّط التجارة في المنطقة الموحدة. لكنها تحول دون وضع سياسة نقدية مستقلة لكل بلد على حدة

يرى الخبراء أن على الوحدة النقدية أن تتسم بشروط، حتى تكون مجدية من الناحية الاقتصادية. ويقول العالِم المالي والاقتصادي بيلا بالاسا، إن الوحدة النقدية هي المرحلة الخامسة في تطور العلاقات الاقتصادية والمالية بين الدول. ويضع بالاسا المراحل الأربع التي تسبق الوحدة النقدية، على النحو التالي:

1 – مرحلة منطقة التبادل الحر، وهي إلغاء الجمارك وحصص الاستيراد بين البلدان المتعاقدة،

2 – مرحلة الاتحاد الجمركي، وهي تبادل حر للبضائع، يسانده نظام جمارك موحَّد حيال سلع البلدان الأخرى غير المتعاقدة،

3 – مرحلة السوق المشتركة، وهي اتحاد جمركي تكون فيه عناصر الإنتاج حرة الحركة بلا عائق بين البلدان المتعاقدة،

4 – مرحلة الاتحاد الاقتصادي، وهي سوق مشتركة تنسّق فيها السياسة الاقتصادية، المتبعة في كل البلدان المتعاقدة.

وتُعد هذه المرحلة الأخيرة التي تسبق الوحدة النقدية أصعب المراحل، لأن على الدول خلالها، التضحية ببعض ميزاتها في مجال ما، لتكسب ميزات جديدة في مجالات أخرى. ولذا قد تتجاذب العوامل الاقتصادية القرار السياسي في داخل البلد الواحد، مرة إلى هذا الجانب ومرة إلى ذاك.

وقد كانت الوحدة النقدية الأوروبية تمهيداً سبق مرحلة نشهدها الآن، وهي مرحلة العمل في اتجاه الوحدة السياسية، على غرار ما جرى في ألمانيا، سنة 1834م، حين أعلنت الإمارات والمقاطعات الألمانية، وكانت مستقلة، الوحدة الجمركية (Zollverein)، وهي وحدة أفضت إلى وحدة سياسية سنة 1870م.

تواجه منطقة اليورو، العملة الأوروبية الموحَّدة الآن، عقبات تؤخِّر اكتمال مسار هذا التوحيد، من جرَّاء عوائق تحرُّك اليد العاملة بين البلدان المتعاقدة، وعدم مرونة الرواتب، أي عدم تقاربها شيئاً فشيئاً، على الرغم من الانفتاح النظري بين هذه البلدان. وليس ثمة ما يحول نظرياً دون توحيد السياسة الاقتصادية في بلدان منطقة

اليورو، لكن موازنة الإدارة الاتحادية الأوروبية، وهي موازنة ضئيلة جداً، لا تكفي للدفع في اتجاه تسوية مستويات العيش المتفاوتة بين البلدان المذكورة.

ويعتقد بعض الخبراء أن أصداء الأحداث الاقتصادية والسياسية، تخلِّف آثاراً متباينة في كل بلد. فحين توحَّدت ألمانيا، سنة 1990م، احتاجت الحكومة الألمانية إلى اعتماد الصرامة الشديدة في ضبط عجز الموازنة في الإطار الأوروبي، وهو أمر عانت عواقبه فرنسا، في اقتصادها الذي كان يحتاج إلى تشدد أقل.

الناشئة من عدم الانسجام الاقتصادي. وأفضل الحلول لمثل هذه المشكلات المحتملة، هو السعي في التناغم الاقتصادي المتدرّج. ولا شك في أن المراحل الأربع التي قال بها بالاسا تدفع في هذا الاتجاه. ويرى ماندل أن وضع موازنة اتحادية، يمكن أن يعالج أي صدمات من النوع المذكور.

عملة غرب إفريقيا

في إفريقيا ثلاثة عشر بلداً، معظمها في غرب إفريقيا التي كانت مستعمرات فرنسية، تسمى عملتها «الفرنك





وإذا قيست الوحدة النقدية الأوروبية على معايير بالاسا، فيمكن تقييم نتائجها كالآتي:

- في شأن حركة عناصر الإنتاج، ثمة حركة حرة للعمالة، لكنها ضئيلة.
- مقياس الانفتاح الاقتصادي متفاوت بين 30 و92%.
- تناسق المعايير والميول جيد، بفضل تقارب الثقافة.
- تنوع المصنوعات ممتاز.
- انتقال المال غير ميسّر جيداً، بسبب سياسة مالية محافظة في الإجمال.

لقد وضع روبرت ماندل، في ستينيّات القرن الميلادي الماضي، نظرية المنطقة النقدية الفضلى. وقال إن للوحدة النقدية حسناتها وسيئاتها، وأهم الحسنات أن المنطقة النقدية الموحَّدة، تنشّط التجارة في المنطقة الموحَّدة، لكنها تحول دون وضع سياسة نقدية مستقلة لكل بلد على حدة. فإذا كان ثمة بلدان فيهما وضعان اقتصاديان مختلفان جداً، فإن النقد في كل منهما يحتاج إلى سياسة مختلفة. وحينئذ يحتاج أي جهد للوحدة النقدية بينهما إلى جهد يسبقه، من أجل تنسيق الاقتصاد فيما بينهما، قبل الإقدام على التوحيد النقدي. ولا بد للوحدة النقدية من أن تكون قادرة على حل أية مشكلة تنشأ من صدمة التوحيد النقدي،

CFA»، والأحرف الثلاثة هذه هي الأحرف الأولى من عبارة: الاتحاد النقدي الإفريقي، باللغة الفرنسية. والبلدان المنتمية إلى هذا الاتحاد النقدي، هي: السنغال ومالي والنيجر وساحل العاج وتشاد وبوركينا فاسو وتوجو وبنين وكاميرون وإفريقيا الوسطى وجابون والكنجو وجزر القمر.

الميزة الأولى التي تجنيها هذه البلدان التي تُعد فقيرة في الإجمال، هي أن العملة الموحَّدة توفِّر عليها موازنة كبيرة لطبع عملة مستقلة. والميزة الثانية، وهي لا تقل أبداً عن الأولى، هي أن اعتماد عدد كبير من البلدان الإفريقية هذه العملة الموحَّدة، يجنبها خفض قيمة هذه العملة بوتيرة سريعة، مثلما يحدث في كثير من الدول الفقيرة، منها زائير وغانا وسيبرا ليون وليبيريا وموريتانيا وجامبيا وغيرها. فالعملة الإفريقية الموحَّدة مرتبطة باليورو بعدما كانت مرتبطة بالفرنك الفرنسي. لقد أعيد تقييم هذه العملة في سنة 1994م، مرة وحيدة منذ إنشائها.

وفي السنوات الأخيرة قررت خمس دول إفريقية غربية، بعضها من دول الاتحاد النقدي، أن تنشئ عملة جديدة سمتها: إكو ECO، اختصاراً لكلمتي

الاتحاد الاقتصادي باللغة الإنجليزية. وهذه البلدان هي: جامبيا وغانا وغينيا ونيجيريا وسييراليون. وقررت هذه الدول عام 2004م أن تدمج عملتها مع الفرنك CFA.

إلا أن الفقر وعدم الاستقرار الاقتصادي والسياسي، ولا سيما تذبذب سعر النفط في كبرى الدول هذه، نيجيريا، وهبوط سعر الكاكاو، وهو مصدر دخل أساسي لدى بعض هذه الدول، يلقي بظله على الخطوات اللازمة لتسوية مسار تنسيق السياسة النقدية والاقتصادية تمهيداً لوحدة العملة، يحتاج إلى مهلة أطول.

وتملك دول مجلس التعاون الخليجي جميعاً، عملات ثُبتت قيمتها بالدولار الأمريكي. ولذا فهي غير معرضة للتذبذب الذي قد يُحدث خللاً فيما بينها، في مرحلة التوحيد. وكانت الكويت قد اختارت في سنوات سابقة ربط قيمة عملتها بسلة عملات قوية، منها الدولار الأمريكي، لكنها عادت إلى معيار الدولار وحده، فيما بعد.



الاقتصاد في الدول الساعية إلى الوحدة النقدية. كذلك يثقل اليورو، بتصاعد قيمته النقدية، على هذه العملة الموحَّدة.

آفاق العملة الخليجية الموحَّدة

في آخر اجتماع عقده وزراء المال في مجلس التعاون لدول الخليج العربية تقرَّر أن يكون مقر المصرف المركزي لدى إنشاء العملة الخليجية الموحَّدة في الرياض. وكانت دولة الإمارات العربية المتحدة ترغب في أن يكون المقر فيها، ولذا امتنعت عن المشاركة، وظلت العملة الخليجية المنشودة، مشروعاً تؤسسه أربع دول الآن، هي: المملكة العربية السعودية ودولة الكويت ودولة قطر ومملكة البحرين. أما الموعد المتفق عليه لإنشاء العملة الموحَّدة، التي لم يُعرف اسمها بعد، فهو سنة 2010م، مثلما كانت دول المجلس قد قررت أصلاً منذ سنوات. ويأمل المراقبون أن تتوسع الوحدة النقدية في السنوات المقبلة. إذ مما يُذكر، أن سلطنة عمان تنحّت عن المشاركة منذ سنوات، لأنها كانت ترى أن إنشاء العملة الموحَّدة في موعد أقصاه 2010م، غير ممكن، وإن كانت لم تعترض على مبدأ إنشاء العملة الموحدة. فهي رأت أن

تملك دول مجلس التعاون الخليجي جميعاً، عملات ثُبتت قيمتها بالدولار الأمريكي. ولذا فهي غير معرَّضة للتذبذب الذي قد يُحدث خللاً في مرحلة التوحيد

وبفضل هذا الاستقرار النقدي، لا سيما في القيمة النسبية بين عملات دول الخليج، تستطيع دول المجلس أن تتخذ مسارات متقاربة جداً في شأن التضخم والدَّين العام ونسب العائد، وهي أمور أساسية حين تهم البلدان في توحيد عملاتها. ذلك أن التعديل المطلوب من أجل تطابق هذه العوامل في بلدان المجلس، هو طفيف جداً.

وإذا قارنّا وضع دول المجلس بدول أوروبا، وجدنا أن حالة أوروبا أعقد. فالفروق الاقتصادية الكبيرة بين ألمانيا واليونان مثلاً، لا تُقارَن بالتماثل القائم بين اقتصاد دول الخليج. يضاف إلى هذا أن فوائد توحيد دول الخليج عملاتها واضحة جداً. فالعملة الموحَّدة ليست جيدة فقط لمؤسسات الأعمال العابرة للحدود بين هذه الدول، وهي مؤسسات تحتاج اليوم إلى التحول بين ريال ودرهم أو دينار، حالما تعبر الحدود، بل إنها حافز قوي وقريب المنال أيضاً، لتقارب الشركات على جانبي الحدود، ولتأسيس شركات أكبر حجماً، تقلل النفقات الإدارية والرأسمالية، وتعزز الإنتاجية. ولو مكث التبادل النامي بين هذه الدول على التعدد النقدي القائم اليوم، لصار تبديل العملات الست الشغل الشاغل، بدل الانصراف إلى إنماء الأعمال في النشاط الاقتصادي البحت.

الشركات العابرة للحدود

ويعتقد الخبراء أن العملة الموحدة، من حيث المبدأ، هي أم الإصلاح الاقتصادي. فهي دافع قوي لتسهيل عمل الشركات، لأن توحيد العملة في الأساس هو الخطوة الأولى نحو فتح الأسواق بين الدول المتعاقدة. إذ لا يعقل أن تتعاقد دولة على توحيد عملتها مع دولة أخرى، ثم تضع العراقيل دون عبور الشركات الحدود في الاتجاهين، من أجل إنشاء مشاريع في الجانبين معاً. وبذلك تشتري شركة في جانب مواقع لها في الجانب الآخر، وتتشابك المصالح الاقتصادية، ويتعين إذن أن تذلّل الحواجز وتذاب الفروق،



وتُعتَمَد معاملات مختصرة وتزال عقبات، وإلا فما الفرق حينئذ بين معاملتك لدولة عقدتَ معها وحدة نقدية، وأية دولة أخرى.

لقد بدأت أوروبا أخيراً تلمس فوائد العملة الموحَّدة، بعد السنوات الأولى من التردد. فظهرت حركة قوية نحو دمج الشركات المتوسطة والصغيرة، لأجل اكتساب حجم أكبر واختصار نفقات الإدارة والإنتاج. وهذه الحركة واضحة جداً للعيان، ومؤثرة، ولا تزال تتصاعد.

ويرى خبراء المال والاقتصاد أن أحد أهم عناصر قوة الدولار الأمريكي، أنه استفاد منذ زمن بعيد، من كبر السوق الأمريكية، قبل أن يمد سطوته خارج البلاد. وحين توحِّد دول الخليج عملاتها، فهي لا توسِّع سوق تحرك عملتها فقط، بل تستند في الوقت نفسه إلى عنصر قوة آخر، هو سرعة التماثل الاقتصادي المتوقعة نظراً لتشابه الاقتصاد فيها، واتكاؤها على أساس متين هو النفط، الذي تملك منه كل دولة ما يضمن، إلى حد بعيد، أماناً نقدياً واقتصادياً يجعل لهذه البلدان ميزة نسبية جيدة على ما عداها، في الاقتصاد العالمي المضطرب.

وفي زمن يتحدث فيه بعض الخبراء عن تفكير جاد في العالم، بالإشاحة عن الدولار الأمريكي، بسبب الأزمة المالية والاقتصادية التي ضربت الولايات المتحدة في خريف 2008م، لا يُستبعد أن تحل سلة عملات قوية محل الدولار، عملة احتياط عالمية، وأن تقعد العملة الخليجية الموحدة على مرتبة مريحة داخل هذا السلة.

لماذا ظلت بريطانيا خارج اليورو؟

ولكن ما الذي يحول أحياناً دون توحيد العملة، فتمتنع دولة معينة طُرحت عليها الفكرة من الانضمام إلى المشروع؟ هنا يمكننا أن نتناول على سبيل المثال الأسباب التي حدت ببريطانيا، مثلاً، على إدارة ظهرها للعملة الأوروبية الموحدة اليورو، على الرغم من أنه صار عملة دول أوروبية متزايدة، فيما تتعزز مكانته في العالم.

يرى علماء الاقتصاد والسياسة، أن فكرة إنشاء العملة الأوروبية الموحَّدة، في أساسها، فكرة فرنسية ألمانية، وُلدت في عهد الرئيس الفرنسي الأسبق شارل ديجول، والمستشار الألماني الأسبق كونراد أديناور، من أجل مواجهة ما كانا يريان أنه نزوع الولايات المتحدة الأمريكية إلى السيطرة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

ويقول هؤلاء، انطلاقاً من هذا الافتراض المؤسَّس على وقائع التحالف الألماني الفرنسي في ستينيّات القرن الميلادي العشرين، إن كون فكرة العملة الأوروبية الموحدة نوعاً من النزوع للتفلت من هيمنة النقد الأمريكي، هو السبب الأعمق لإحجام بريطانيا عن اعتماد اليورو وإلغاء الجنيه الإسترليني، على الرغم من أن بريطانيا اجتهدت بشدة لدخول السوق الأوروبية المشتركة أولاً، ثم الاتحاد الأوروبي فيما بعد. ذلك أن لندن تعد أقرب حلفاء الولايات المتحدة الأمريكية إليها.

صحيح أن الجنيه الإسترليني كان عملة الاحتياط الدولية، أيام عز الإمبراطورية البريطانية، وأن الدولار الأمريكي هو الذي أنزله عن عرشه ليحل محله، إلا أن بريطانيا التي ارتضت على مضض بالدولار «الملك» بدلاً من الجنيه في التبادل الدولي، لم تكن مستعدة للقبول بتنصيب اليورو محل الدولار. فالعلاقة بين لندن وواشنطن أوثق مما كان بينها وبين القطبين الأوروبيين الكبيرين، باريس وبون (برلين فيما بعد). ولهذا السبب صار علم السياسة ينظر إلى لندن على أنها الكابح الذي يمهّل اندفاع أوروبا، للخروج من الكنف الأمريكي. كذلك يرى المحللون



Corbis

أن صعود أوروبا إلى منصة القوة الكبرى الجديدة في العالم، بدل أمريكا، ليس مما يَطمئن له البريطانيون، لا سيما وأن الفرنسيين والألمان، لا بريطانيا، هم الذين يلعبون دور القاطرة الأوروبية، ولا تستطيع لندن أن تركب إحدى المقطورات خلفهما. وإن اضطرت، فليكن ذلك في مقطورة تجرها أمريكا، لا غيرها. ولم تكن أمريكا بعيدة عن هذا الميل، فاعتماد بريطانيا اليورو بدل الجنيه، يعني انخراطها التام في المشروع الأوروبي، وخسران أمريكا حليفاً قوياً في معارك حرية التجارة والأسواق المفتوحة والتعاون الأطلسي، وفقدانها موطئ قدم موثوقاً به، في داخل أوروبا.

بريطانيا التي ارتضت على مضض بالدولار «الملك» بدلاً من الجنيه في التبادل الدولي، لم تكن مستعدة للقبول بتنصيب اليورو محل الدولار

هذا صحيح في الحساب السياسي والاقتصادي والنقدي، لكن الشعوب تترجم هذا الأمر إلى مواقف يغلب عليها الطابع المعنوي. فالبريطانيون الذين استُفتوا مراراً في استطلاعات الرأي في هذا الموضوع، عارضوا إحلال اليورو محل الجنيه الاسترليني، بنسب بلغت أحياناً نحو 70 في المئة، وكانت مشاعر «الكبرياء الوطني» الباقية من عهد الإمبراطورية البريطانية، عاملاً أساسياً في موقفهم هذا. فهم لم ينسوا بعد زمناً كانت فيه لندن عاصمة المال في العالم، وكان الجنيه الملاذ الآمن للمستثمر والمدخر معاً. يضاف إلى هذا أن الحكومة البريطانية، التي تحركت بحوافز سياسية ولا شك، نظمت قبل عشر سنوات، حملة دعائية شديدة التأثير، حذرت فيها الشعب البريطاني من انهيار اقتصادي وكارثة نقدية لو انضمت بلادهم إلى منطقة اليورو. وكان عدد من رجال الأعمال البريطانيين قد أنشأوا في عام 1998م، تجمعاً سمّوه: «الأعمال من أجل الإسترليني»، وهو تجمع من كل الأحزاب الكبرى في البلاد، أوحى أن رجال الأعمال يتمسكون بالإسترليني. وكان عمل التجمع مؤثراً جداً في الرأي العام.

وكانت حجة معارضي دخول منطقة اليورو في الأساس سياسية، إذ ان منظري الرفض قالوا إن أية عملة في التاريخ تستند إلى دولة، وإن قول مؤيدي اليورو بأن الأمر اقتصادي لا سياسي غير صحيح، ولذا فإن دخول بريطانيا في منطقة اليورو يعني ضمناً فقدانها المتدرج استقلالها السياسي.

أما على الصعيد النقدي، فرأت الحكومة البريطانية أن أنصار اليورو البريطانيين يقولون إن العملة الأوروبية الموحَّدة ستمد بريطانيا باستقرار نقدي مستند إلى هذه العملة. وهذه حجة رأت الحكومة البريطانية إنها لا تشمل بفائدتها سوى 15% من الحركة النقدية البريطانية، هي نسبة المبادلة التجارية بين لندن ودول الاتحاد النقدي. وفي مقابل هذا، سيكون على بريطانيا أن تخضع لسياسة نقد ونسبة فائدة موحَّدتين. ورأى رئيس الحكومة البريطانية غوردون براون، وكان وزير المال آنذاك، إن استقرار النقد لا يعني استقرار الاقتصاد، وأن اعتماد هذا الخلط بين الأمرين أدى إلى مشكلات اقتصادية معقدة في بريطانيا نفسها. وصدف أن بريطانيا كانت

قد غادرت نظام التنسيق النقدي الأوروبي، فنعمت بعقد من النمو الاقتصادي. وكانت تلك حجة قوية في جعبة براون.

كذلك كان النزوع إلى التضخم في خمس من دول الوحدة النقدية الإحدى عشرة، سنة 2000م، أمراً غير مقنع، لا سيما أن هذا النزوع كان يرافقه هبوط قيمة اليورو حيال الدولار الأمريكي. وكانت الضريبة البريطانية أقل بنسبة الخُمس، ونسبة البطالة البريطانية لا تزيد على نصفها في منطقة اليورو. واستطاع الاقتصاد البريطاني في السنوات العشر الأخيرة، أن ينشئ فرص عمل تساوي كل ما أنشئ في دول الوحدة النقدية مجتمعة، في السنوات نفسها.



لكن كل هذه الحجج، وهي صحيحة واستطاعت أن تقنع البريطانيين برفض دخول منطقة اليورو، أخذت في الحسبان الحالة الاقتصادية في سنة معينة أو في مرحلة معينة، ولم تنظر في حركة التنسيق والتكييف الضرورية والمتدرجة، التي تؤهل الدول للوحدة النقدية، حين تكون بعد غير مؤهلة، مثل زيادة المرونة في سوق العمل وتقريب الأنظمة الضريبية وتحرير التبادل التجاري وما إلى ذلك، تطلعاً إلى المدى البعيد الذي تبدو فيه أوروبا عملاقاً قوياً، ولا سيما أن الحال الاقتصادية في سنة ما، ليست من الأمور التي يمكن ضمان بقائها زمناً طويلاً. ولا بد من زمن يأتي، تكون فيه بريطانيا في حاجة إلى هذه الوحدة النقدية الأوروبية.

لقد كان صعباً على هذا المنطق أن يُقنع الناخب البريطاني، الذي نظر إلى الوضع في ساعته، فأعرض عن اليورو، وتحركت عنده فوق هذا حمية الإسترليني، فأصيب اليورو بأشد نكساته، منذ تأسيسه.

فلسفة مختلفة

أعمق من هذا الخلاف، يقول المحللون إن فلسفة الاقتصاد الحر الأنجلو ساكسونية، وفلسفة التوجيه الاقتصادي الأوروبية، هما النقيضان اللذان يختبآن في عمق هذا التنافر. فالأنجلو ساكسون، في بريطانيا وفي أمريكا، يسمون سياسة خفض الضريبة، سياسة البيئة المؤاتية للأعمال. أما الأوروبيون فيسمونها سياسة التنافس غير


Getty Images

العادل. وفيما يميل الأنجلو ساكسون إلى «ترك السوق تعمل»، يتمسك الأوروبيون بسياسة الحماية الاجتماعية. وقد تعمقت هذه الهوة بين الفلسفتين، في عهدي رونالد ريجان في أمريكا، ومارجريت ثاتشر في بريطانيا. وفيما يعرب زعماء أوروبا عن تأييدهم تحرير السوق في العلن، إلا أن سلوكهم السياسي والاقتصادي ينم عن مسايرة أكبر للمقتضيات الاجتماعية في بلدانهم. بل ان بعض المحللين الاقتصاديين يُسِرّون بأن جمهرة من الزعماء الأوروبيين كانوا في سرهم يتمنون ما حدث لأسواق المال الأمريكية في خريف 2008م، ليثبتوا صحة نظرتهم، فتخف الضغوط التي أثقلت عليهم لدفعهم إلى تحرير الأسواق.

ولذا يُختَصَر الشد والجذب في هذا الأمر، بأنه صراع بين فلسفتين، تعبّر كل منهما عن مصالح طرف من طرفي الخريطة الاجتماعية: أصحاب الأعمال في طرف، والموظفون والمستخدَمون في طرف آخر. لكنه أيضاً صراع بين نزوعين في خريطة العالم: واحد أنجلو ساكسوني يمتد عبر الأطلسي يتمسك بهيمنته على احتياط النقد العالمي، وآخر أوروبي قاري، يتوق إلى الارتقاء إلى مرتبة القوى العظمى.

قول في مقال

إلكترونيات واتصالات وإنترنت

مقولات بين الثقافة والمعلومات

نظراً للتطورات المدهشة التي تطرأ كل يوم على عالم الإلكترونيات وبشكل خاص في شقه المتعلِّق بالاتصالات وشبكة الإنترنت، تولَّدت قناعة لدى غالبية الناس «ألاَّ حدود لهذا التطور». وتخبئ هذه القناعة الصحيحة بشكل عام، قناعة أخرى خاطئة، وهي ألاَّ حدود في الأفق ستتوقف عندها التكنولوجيا على الصعيد الثقافي وصياغة ثقافة الناس.

عبود عطية يناقش هذه المقولة، ويرى أن هذا التسليم بالسلطان المطلق المزعوم للتكنولوجيا على الثقافة، يعود إلى خلط بين ماهية المعلومات من جهة والثقافة من جهة أخرى ودور كل منهما.

نعم، لقد حل البريد الإلكتروني محل الكثير من البريد التقليدي، وأخذ النشر الإلكتروني حيزاً كبيراً من النشر الورقي، وبات بإمكان المقيم في صحراء النفوذ أو جبال الهملايا متابعة ما يجري في واشنطن وموسكو مباشرة إذا كان بحوزته جهاز كمبيوتر (عفواً، كان هذا شرطاً بالأمس، أما اليوم، فيكفيه هاتف جوال..!)، ومع ذلك، ثمة حدود غير مرئية لم تستطع التكنولوجيا أن تتخطاها، ولا شيء في الأفق يبشر بأنها ستتمكن يوماً من تخطيها.. إنها الحدود الفاصلة بين المعلومات والثقافة.. هذه الحدود التي أدى انبهارنا بمنجزات التكنولوجيا إلى تعامينا أو إلى إشاحة نظرنا عنها، فأسندنا أكتافنا إلى ما تقدِّمه لنا، متوقعين الكثير. والخوف كل الخوف هو أن نكتشف ذات يوم، قد لا يكون بعيداً، أننا نتكئ على الحائط الخطأ، فيسقط ونسقط معه.

من يستأهل المليون؟

لنترك عالم التكنولوجيا جانباً، ونعود بضع سنوات إلى الوراء، إلى أيام «النهضة التلفزيونية». كلنا نذكر برامج «المعلومات العامة»، التي اكتسحت كل تلفزيونات العالم، وكانت تستضيف بشكل خاص فئة الشباب (من دون أن نستثني كبار السن)، حيث يقوم مقدم البرنامج بطرح أسئلة معلومات عامة، ليكون الفائز صاحب الإجابات الصحيحة. وأطلقت «القوميسياريا الثقافية» على هذه البرامج أسماء مثل «الناجحون» و«المتفوقون»، وذروتها كان في «من سيربح المليون»!

لا شك في أن الكثيرين ممن شاهدناهم في هذه البرامج قد أدهشونا فعلاً بسعة معلوماتهم وذاكرتهم القوية، ولكن هل أدهشونا فعلاً بثقافتهم؟

كنا نبتهج للمتباري الذي أصاب في جوابه عن السؤال حول اسم لاعب كرة القدم الذي حقق هدف التعادل في مباراة جرت بين البرازيل والأرجنتين قبل عشرين عاماً. ولكن هل سألنا أنفسنا، وهل تساءل هذا المتباري عن مجال توظيف هذه المعلومة التي يملكها في أي مجال خارج البرنامج التلفزيوني؟ بعبارة أخرى: هل تساءل عن قيمتها؟

في وقت ما يصعب تحديده بدقة خلال الربع الأخير من القرن العشرين، راحت المعلومة المجردة من الوظيفة تكتسب مزيداً من الأهمية على حساب الثقافة التي يفترض فيها أن تكون معبِّرة عن نظرة الإنسان إلى العالم من حوله وسبل الارتقاء به وبالتفاصيل التي يتألف منها هذا العالم نحو الأفضل. ربما يعود ذلك إلى توافر المزيد من وسائل

جمع المعلومات، وتزامنه مع انهيار الأيديولوجيات التي كانت محفزة حتى آنذاك، والبرودة المتزايدة التي طرأت على الحرب الباردة عالمياً حتى زوالها، والصقيع الذي ضرب الطموحات العربية محلياً. فبات الكثيرون يتطلعون اليوم إلى الثقافة على أنها مجرد كومة معلومات، وقياس «المثقف» صار يقارن بقياس هذه الكومة، حتى أن جيل الشباب الصاعد اليوم، لا يبدو أنه يمتلك أي تصور للثقافة يتجاوز هذا المفهوم.

الحدود الإلكترونية

على «مستوى المعلومات»، يبدو ألاَّ حدود لما يمكن للتكنولوجيا أن تنشره، لا بل يمكننا أن نذهب بخيالنا إلى اليوم الذي ستسبق قدرتها على النشر والتوزيع قدرة البشرية على إمدادها بمؤلفات ومعلومات جديدة. ولذا تسجل التكنولوجيا نجاحاتها في بعض المجالات، مثل قضمها لجزء ملحوظ من النشر الصحافي، ولجزء (آخر قد يكون أقل) من الكتاب المطبوع.

أما على «المستوى الثقافي» فالمسألة مختلفة تماماً.

لقد بتنا متأكدين منذ سنوات أن فعل «القراءة الثقافية» هو عمل معقَّد أكثر بكثير من أن «يُشبع» تماماً من خلال الجلوس أمام شاشة الكمبيوتر. ويمكن لمن يرغب بالتوسع في الاطلاع على تعقيدات فعل القراءة العودة إلى كتاب الأرجنتيني ألبرتو مانويل «تاريخ القراءة»، الذي يصل إلى حد ربط القراءة المثلى لبعض الكتب بنوعية الإنارة في الغرفة.. فالقراءة الثقافية مرتبطة بجملة عوامل واستعدادات نفسية ومزاجية تختلف كثيراً عن بعضها البعض، وهي ليست واحدة لدى قراءة تصريح مسؤول سياسي حول شأن اقتصادي، وقراءة قصيدة لابن خفاجة الأندلسي.

وطالما أننا وصلنا في حديثنا إلى الشعر، يمكننا أن نستطرد ونشير إلى مثل قد يكون أوضح بالنسبة إلى وجداننا الذي يحتل فيه الشعر مكانة كبيرة. فعلى صعيد النشر، لا حدود في الأفق لكمية الشعر الذي يمكن نشره إلكترونياً، ولا حدود أيضاً لازدياد السهولة أمام الباحث عن قائل هذا البيت أو ذاك، ولا حتى لمن يريد أن يطلع على نوعية قصائد شاعر جديد لا يعرف عنه شيئاً. ومع ذلك لا يستسيغ الكثيرون قراءة الشعر على الإنترنت. ولماذا؟ لأن القراءة من خلال الكمبيوتر تتضمن قسرية وجملة خطوات عقلانية باردة مثل الأوامر «Click Here» التي تتكرر بضع مرات قبل الوصول إلى الصفحة.. ومثل هذه الأوامر تطيح بالمزاج الشخصي والاستعداد النفسي للتفاعل مع عمل أدبي يتوجه أولاً إلى المزاج وأعماق النفس.

وإذا كان هناك من يرغب في «مجادلة» هذا الرأي، فيمكننا أن نحيله إلى القضية التي تطرحها الثقافة الفنية التي هي جزء أساسي من كل ثقافة حية.

لقد ظهرت الطباعة الملوَّنة في النصف الأول من القرن العشرين. وقبل أن يحل نصفه الثاني، كانت كل لوحات كبار الفنانين في شتى متاحف العالم، قد صورت وطبعت صورها في الكتب وعلى شكل ملصقات. ولكن الاطلاع على صور هذه اللوحات بقي مجرد تغذية معلومات عامة، إذ إنها لم تقم يوماً بدور المتاحف، ولم تزعم لنفسها الحلول محل المتاحف. فبقي الملايين يتدفقون على زيارة هذه المتاحف للاطلاع على اللوحات الأصلية. هذا الاطلاع الذي يبقى شرطاً ضرورياً للثقافة، لا يمكن للمعلومة أن تلبيه.

وما سقناه على فن الرسم ينطبق أيضاً على الموسيقى. فظهور الراديو والأسطوانة وأشرطة التسجيل، وحتى الأجهزة السمعية الأكثر تطوراً لم يحل محل الحفلة الموسيقية والسماع المباشر.

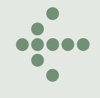
وإلى فن الرسم والموسيقى يمكننا أن نضيف المباني التاريخية والمواقع الأثرية على سبيل المثال، فهل مشاهدة الأهرامات أو قصر فرساي على شاشة الكمبيوتر يؤدي إلى النتيجة نفسها التي يؤدي إليها الوقوف الفعلي أمامها، وما يمكن لذلك من أن يتركه في النفس من أسئلة وانطباعات؟

إن المعلومات، كل المعلومات المتوافرة على شبكة الإنترنت اليوم، وتلك التي ستضاف إليها خلال المليون سنة المقبلة، ستبقى مجرد مادة أولية لصياغة الثقافة.. الثقافة القادرة على أن تنطلق من المعلومة إلى استنباط فكرة، معتمدة في ذلك على القدرات الذهنية والطموحات والأسئلة التي لم يسبق لها أن بُرمجت إلكترونياً.. ولكي يكون هذا الفعل ممكناً تحتاج نفس المثقف، وذهنه أيضاً، إلى تغذية يستحيل على التكنولوجيا أن تؤمنها لها.

أما من يعتقد أن التكنولوجيا تغنيه ثقافياً عن زيارة المتاحف والحوار الحي في المنتديات، وقراءة الكتاب الورقي، والوقوف وسط المواقع الأثرية، فعليه أن يعلم أن ثقافته ليست أكثر قيمة من أي قرص مضغوط.. وكل الأقراص المضغوطة متشابهة.. ورخيصة.

Corbis

محطات المحروقات



عمرها من عمر السيارة، وحكاية تطورها كذلك. إذ تكاد محطات المحروقات أن تشكّل النصف الآخر من السيارة، أية سيارة. وأكثر من ذلك، أَصبحت محطات الوقود منشآت مستقلة (ظاهرياً على الأقل) عن كل ما يحيط بها، فتراها في شوارع المدن كما تراها مزروعة بشكل مبعثر على جنبات الطرق في الصحاري والبراري والغابات حيث لا يوجد أي أثر عمراني في الجوار.

بهاء الرملي[1] تعرض المسيرة التي اجتازتها محطات بيع المحروقات منذ نشأتها قبل قرن وحتى اليوم، وكيف أصبحت في معظم دول العالم أقرب إلى أن تكون مجمعات تجارية متكاملة الخدمات. أما الدكتور عبدالله عيتاني[2]، فيتناول الموضوع نفسه على مستوى المملكة.

1 باحثة اقتصادية من لبنان
2 باحث علمي، جامعة الملك فهد للبترول والمعادن


SIGNAL
SIGNAL
SIGNAL
SIGNAL LUBRICATION
1560
LEE TIRES
LEE TIRES
BIGGEST ALLOWANCE

Corbis

1 قرن من التطور التقني والهندسي وتفنن في تنويع الخدمات

مع اختراع السيارة، ظهرت الحاجة إلى وسيلة سريعة وآمنة ونظيفة لتعبئة الوقود في الخزانات، بدل سكبه يدوياً وبطريقة تقليدية مع الحاجة إلى مراقبة المستوى الذي بلغه فيها بالعين ومن دون آلة قياس.. وفي عام 1905م، بدأ عصر جديد في مجال تعبئة الوقود، بإنشاء خزان كبير يملأ بالبنزين ويربط في قاعدته خرطوم مزوَّد بمقبض للضخ بطريقة يدوية، وفي أعلاه علبة مرقَّمة لقياس الكمية المعبأة. كان ذلك أول شكل بدائي لمضخة محروقات، وكانت هذه الوسيلة تزداد رواجاً كلما ازداد عدد السيارات.

بحلول عام 1910م، ارتفعت مبيعات السيارات بنسبة 4500 في المئة عن العام الذي سبقه، وارتفع معها الطلب على البنزين بنسبة مماثلة تقريباً. ولملاقاة هذا الواقع، وبسرعة، جهَّزت شركات بيع المحروقات أماكن جديدة لبيع البنزين على الطرق، لاسيما وأن التنقل لمسافات طويلة بات أيسر مع تطور صناعة قطع الغيار للسيارات، وخصوصاً الإطارات والأدوات اللازمة لاستبدالها. وبسرعة أيضاً، تطوَّر قطاع بيع المحروقات وكثرت المشاريع الخاصة، فراحت المحطات تنتشر مثل الفطر على جوانب الطرق. وبدأ أصحاب محال خدمات السيارت، وكذلك المخازن وشركات بيع المأكولات ومحال البيع بالمفرق ومحال تأجير العربات وغيرهم، يضعون أمام محالهم مضخات لبيع البنزين، إذ رأوا فيها مجالاً سهلاً لتطوير أعمالهم وزيادة مداخيلهم.

استوجب هذا التطور إدخال تحسينات على آلية ضخ البنزين بما يوفر المزيد من الأمان لمستخدميها ويجعلها أيضاً سهلة الاستعمال وسهلة الإصلاح. وسرعان ما أدخلت أيضاً تعديلات إضافية على شكل المضخات ونوعية المواد المستعملة في صنعها، فباتت مضخات عصرية تؤمِّن لسائقي السيارات الأمان والنظافة والفلترة والصدقية في قياس كمية البنزين.

في منتصف العشرينيات، كانت محطات بيع البنزين تنتشر عشوائياً على الطرق، وكثرت الاعتراضات عليها لما بدأت تسببه من أزمة سير، كما باتت مصدر إزعاج وضجيج، ما حمل المسؤولين في عدد كبير من المدن الأمريكية على وضع مخططات تحدِّد مواقع بناء محطات بيع الوقود. وأعطيت المؤسسات التي تتعاطى أشغالاً مرتبطة بها مهلة محددة للتأقلم مع التنظيم الجديد.


محطة المحروقات في بداياتها: الضروري فقط!

أما خارج المدن، فحتى منتصف العشرينيات، كانت أولى ما سميت محطات بيع البنزين تبدو فقيرة، وكانت تقام في مناطق غير مأهولة على مقربة من أماكن يبيت فيها السائقون ليلتهم لمتابعة الطريق صباح اليوم التالي. وكانت هذه المحطات تبنى بمواد رخيصة الثمن ومتدنية النوعية وبأشكال بشعة، وغالباً ما كانت توضع المضخات في أكواخ فقيرة أو تخصص لها أجزاء في المحال المنتشرة على الطرق.

فقبل عام 1920م، لم ير أحد من مالكي 15 ألف محطة بيع محروقات في الولايات المتحدة الأمريكية ضرورة لإنفاق المال على الاستثمار في مكان يزوِّد السيارات بالبنزين ويأوي عدداً من السائقين أو يستعمل لتخزين المحروقات تحت الأرض. وبقيت الحال على ما هي عليه، وبقي هذا القطاع يرزح تحت سمعة سيئة كمصدر إزعاج وتلوث، إلى أن استوعب مالكو معظم شركات توزيع المحروقات الحاجة إلى اعتماد بناء موحَّد الشكل للمحطات، واتفقوا على إدخال تعديلات جوهرية عليها. وتلازم تطوير الشكل مع تحسين مستوى خدمة الزبائن ونوعية المواد المباعة في عدد من الولايات والمدن. وكانت شركة «شل» السباقة في اكتشاف أهمية البيع في محطات تعتمد في بنائها معايير موحدة، وعملت في هذا الاتجاه، إلى أن اعتمدت 200 محطة من

Corbis



Corbis

بين 1841 محطة كانت تزودها بالبنزين، أبنية موحدة الشكل لجهة هندستها وألوانها، وتجهيزات موحدة الشكل والمواصفات، ولباساً موحداً لعمالها وسياسة موحدة في التعاطي مع الزبائن. وتمكنت هذه الشركة الموحدة الشكل والمضمون من أن تستحوذ على أكثر من 40 في المئة من 1922 نقطة بيع بنزين في نطاقها.

وفيما شكا سكان المدن من الزحام والضجيج والتلوث الذي كانت تحدثه محطات بيع الوقود، بدا سكان الأرياف، وإن كانوا يعارضون الانتشار السريع لهذه المحطات في مناطقهم، منجذبين إلى ممارسة الأعمال بما فيها بناء محطات البنزين. وقد وضعوا على تلك المحطات إشارات ويافطات بارزة تروّج لبضائع منوعة لا علاقة لها بما يمكن أن يباع في محطات البنزين.

ومع نشأة ما عرف بحركة جمالية المدينة، بدأت شركات المحروقات إنشاء محطات مصممة بشكل هندسي. ومن هذه الشركات، شركة أتلانتيك ريفايننق «Atlantic Refining» التي بنت عدداً كبيراً من المحطات، وزودت كلاً منها بعدد غير قليل من المضخات، كل واحدة منها موضوعة في كشك صغير، فكانت بذلك من أوائل الشركات التي تجاوبت مع الانتقادات الكثيرة التي وجهت إلى هذا القطاع.

تطور تقني وهم بيئي

في الواقع، ومنذ أواخر العشرينيات كان الموضوع الفني والجمالي في بناء المضخات قد تخطى اهتمام الشركات ليصير هماً عاماً. فنُظمت مسابقات مع جوائز لأفضل تصميم لمحطة بنزين، وبدأ تخصيص هذه المنشآت بمداخل خاصة جذابة وعملية للسائقين. ومع الوقت، ومع توالي المسابقات، بات لكل شركة تصميمها الهندسي الخاص وألوانها الخاصة وشعارها، وتبارت كلها في وضع أجمل التصاميم مرفقة بنُزُل صغير لإيواء السائقين. ووصل التفنن الهندسي إلى حد لم يعد من الممكن تمييز بعض محطات المحروقات عن أي بناء فخم إلا من خلال المضخة المركزة أمامها ورمز كل محطة أو شعارها. وباتت الشركات تبحث عن منازل مبنية على طراز مميز على جوانب الطرق لتشتريها وتحولها إلى فنادق صغيرة ومحطات لبيع المحروقات.

ومع التطور الكبير في شكل المحطات ووظيفتها وتنامي الحس الجمالي والبيئي في هذا القطاع، لم تعد المضخات التقليدية البدائية تلبي المعايير الجديدة المطلوبة، كما أنها لم تعد تلبي متطلبات الزبائن الذين كانوا يريدون التأكد من نوعية المحروقات التي توضع في سياراتهم. وكان أول التعديلات نزولاً عند هذه الرغبات، ذلك الذي أدخل على مضخة قلبرت آند باركر تي – 8 «Gilbert&Barker T – 8» التي صممت عام 1912م، بأن أضيف إليها مؤشر عداد بمقاييس ثابتة، ومزود بميناء يمكّن الزبائن من قراءة العداد. اعتبرت هذه المضخة فتحاً في مجال بيع المحروقات كون العلنية في قراءة العداد أكسبتها شفافية وصدقية وثقة الجمهور. وكان استثمار هذه الميزات واضحاً في اللوحات الإعلانية التي كانت تقول «الوقود المرئي».

وسرعان ما انتشرت هذه المضخات التي لم تكن تتطلب استثمارات كبيرة، وانخرطت في إنتاجها وتسويقها شركات كبرى عدة. لكن تبيَّن مع الوقت أنها لا تلبي كل متطلبات السائقين لاقتصار قدرتها القصوى على الضخ بخمسة غالونات، ولجهة عدم كفاية العداد في إتاحة قراءة سهلة



تنظيف السيارة..
من الخدمات الإضافية

Corbis

وواضحة، بالإضافة إلى إمكان تعرضه للغش والخطأ. كانت هذه أسباباً كافية لإقرار إدخال تعديلات أساسية عليه، ومنها إضافات تسهّل قراءته ليلاً وتجعله أكثر وضوحاً في النهار.

الخدمة الذاتية.. ثورة في عالم المحطات

ولئن كان إدخال تحسينات وإضافات على المضخات قد بقي عملية مستمرة ومتطورة وفقاً لمتطلبات العصر، فإن ازدياد متطلبات الزبائن دفع أيضاً في اتجاه إدخال المزيد من التحسينات على المحطات، تمثلت بإضافة خدمات جديدة لا علاقة لها بعملها كمزود بالوقود، بل الهدف منها هو إرضاؤهم وجذبهم أكثر، لا سيما مع ازدياد المنافسة في قطاع دائم التطور والتوسع. وكان من هذه الخدمات مسح الزجاج والمرايا ونفخ الإطارات وصيانتها وتبديلها. وكانت لكل محطة تابعة لشركة محروقات أو تتعامل معها من خلال عقد، شعارات تشير إلى تميزها في الخدمة والنوعية والاستقبال الجيد والتعامل مع الزبون وكأنه صديق. ثم بدأت مرحلة تنظيف السيارات.

ومع مطلع الثلاثينيات كان نمط جديد من الحياة الاقتصادية ينبثق في المدن المتاخمة للطرق السريعة استناداً إلى ما كانت تقدّمه محطات بيع المحروقات من خدمات، فقد تحولت هذه المحطات في أحيان كثيرة إلى استراحات فيها دورات مياه وتأمين مستلزمات الراحة لبعض الوقت للمسافرين. وانتشرت في تلك الفترة أيضاً ظاهرة بيع منتجات خاصة بالسيارات في محطات بيع البنزين، مثل زيوت المحركات وزيوت الفرامل وخدمة فحص الزيوت وتغييرها وفحص المياه. وكان بعض المحطات يروّج لحسومات أو هدايا مع كميات معينة من البنزين، إلى درجة قيل إنه لقاء تعبئة خزان الوقود ببضع سانتات، كان يمكن الحصول على الكثير من الخدمات الجيدة والضرورية مجاناً.

> **منذ أواخر العشرينيات بات لكل شركة تصميمها الهندسي الخاص وألوانها الخاصة وشعارها، وتبارت كلها في وضع أجمل التصاميم لمحطاتها مرفقة بنُزل صغير لإيواء السائقين**

ومع ما طرأ عليها من تطور لجهة الشكل والخدمات، باتت زيارة محطات بيع الوقود التي تقدِّم كل هذا الترف، تُعد وفق التقاليد الاجتماعية لتلك الفترة، رحلة بحد ذاتها.

في الواقع، بدأت ظاهرة محطات بيع الوقود بالانتشار السريع بعد الحرب العالمية الأولى، وكانت المنافسة على أشدها بين شركات المحطات، وكان الجميع يسعى إلى تحسين شروط البيع لجذب المزيد من الزبائن وزيادة الأرباح. وبحلول عام 1933م كان عدد المحطات التي تتعاطى الخدمات والبيع بالمفرق في الولايات المتحدة الأمريكية تخطى الـ 170 ألفاً، وباتت المحطة استراحة



Corbis

الخدمات الذاتية.. آخر الحلقات

حقيقية. وكان تعاطي فريق العمل المدرب مع الزبائن يوحي لهم بمزيد من الثقة بالخدمات التي يحصلون عليها. وكانت الشركات الكبرى بدأت تطرح للبيع في هذه المحطات مانع تجمد المياه في مبرد السيارة لا سيما في المناطق الباردة، وزيوتاً معبأة في زجاجات، وكانت تلصق عليها أوراق تتضمن معلومات عن المادة التي تحتويها: مكوناتها، معدل لزوجتها واسم الماركة. وكان بعض الماركات يحفر اسمه أو شعاره على القناني.

لم يحل تطور الخدمات والإقبال الكثيف على المحطات دون تواصل البحوث بهدف تطوير المضخات، وبالفعل توصلت هذه البحوث في نهاية العشرينيات إلى استبدال المضخة ذات العداد الظاهر بأخرى أطلق عليها اسم «كلوك-فايس» (Clock –face)، وهي عبارة عن عداد مستدير يمكن من خلاله ضخ البنزين بسرعة أكبر أياً تكن الكمية.

في عام 1929م أدى الانهيار الاقتصادي إلى تراجع سوق المحروقات تبعاً لتراجع حركة النقل، وتراجع حجم المبيعات بمعدل تراجع البورصات وأسواق المال، فكانت النتيجة تكدس كميات كبيرة من المحروقات في شركات التكرير والتوزيع وكذلك في المحطات، ما حمل الأخيرة على البحث عن منتجات إضافية تبيعها، فوجدت ضالتها في إكسسوارات السيارات من الزيوت والبطاريات والإطارات والرافعات مع تقديم كل الخدمات المرتبطة بها من تغيير الإطارات ونفخها وصيانتها وتغيير الزيوت وإجراء بعض أعمال الصيانة السريعة على السيارات في المحطات. وكانت المحطات بدأت تختبر هذا النوع من الخدمات والمبيعات منذ مطلع العشرينيات فحققت فيها نجاحاً كبيراً طوال مرحلة الثلاثينيات وحتى منتصف الأربعينيات، وكان ذلك نقطة تحول في مسيرة محطات البنزين.

من محطة عادية إلى متجر عصري

من الشركات الرائدة في مجال تطوير عمل المحطات بعد الأزمة، مجموعة «تكساكو» النفطية التي كانت تملك أكثر من 40 ألف محطة بنزين. فقد تبيَّن لها أن حاجتها إلى الأبنية التي تملكها بدأت تتضاءل، وبات عليها إيجاد سبل أفضل لاستثمارها، فخطر لها تجميع كل الأعمال المرتبطة بهذه المحطات في مكان واحد. وأوكلت إلى المهندس الصناعي ولتر تيغ، مهمة تطوير محطات جديدة تُعد نموذجاً لما يجب أن تكون عليه محطات بيع المحروقات، ووضع تصميم جديد لمحطة خدمات.

بسبب الانهيار الاقتصادي عام 1929م تراجع سوق المحروقات، فبدأت الشركات تبيع منتجات إضافية كالزيوت والبطاريات والإطارات وقدّمت أيضاً بعض الخدمات المرتبطة بها

راعى تيغ في عدد من مشاريع التصاميم ضرورة أن تحتوي المحطة على دورات مياه مريحة ومكتب ومساحات واسعة لمنطقة عرض المنتجات التي تبيعها وإضاءة جيدة. وشدَّد على أن تكون لمحطات الشركة صورتها المميزة من حيث الألوان وتصميم الديكور الخارجي، فتبدو عصرية شكلاً ومضموناً، كما أكد ضرورة وجود مدخل ومخرج خاص بالسيارات مريح للسائقين. كان ذلك عام 1937م. وبحلول عام 1940م، كانت شركة تكساكو تملك أكثر من 500 محطة مبنية وفقاً لمواصفات تيغ، ومزوَّدة بأحدث المضخات. مع هذه المحطات تغيرت الصورة النمطية للمحطات التي كانت تُعد مصدر إزعاج وتشويه للمحيط، لتصير جديرة بأن تحتل جوانب الطرق كأعمال هندسية فنية وأماكن مميزة للخدمات والبيع بالمفرق.

وسرعان ما باتت محطات تكساكو مثالاً لباقي الشركات التي سارعت إلى اقتباس أسلوبها العملي في تصميم المحطات،



Corbis

إنما بأسلوب هندسي خاص بها. في تلك الفترة، واستكمالاً لما تم إنجازه على صعيد وظيفة المحطات، كان لا بد من تطوير المضخات أيضاً، انطلاقاً من هذا الهاجس، توصلت شركة «فيدر روت» إلى اختراع المحطة الحاسوب. معها، لم يعد على الزبون قراءة عداد البنزين واحتساب المبلغ المتوجب عليه استناداً إلى الكمية المعبأة، بل إلقاء نظرة سريعة على أرقام يظهرها الكمبيوتر عن المبلغ المتوجب بعد انتهاء التعبئة. مع هذه المضخة بدأ عصر جديد في توزيع المحروقات، كونها أتاحت إمكان تلافي الغش والخطأ البشري، ومعها أيضاً بدأ التفنن في شكل المضخة التي باتت تتناسق غالباً مع تصميم المحطات التي تستعملها.

إلا أن التحول الكبير التالي في مفهوم محطة البنزين بدأ نهاية الأربعينيات مع مضخات يتمتع معها الزبون بإمكانية تعبئة سيارته بنفسه، وبكمية البنزين التي يريدها. وشهدت أولى المحطات التي اعتمدت هذا الأسلوب زحمة خانقة، وكانت السيارات تمتد صفوفاً طويلة أمام عدد من المضخات، كان يصل أحياناً إلى العشرين في المحطة الواحدة.

أسهمت الخدمة الذاتية في خفض كلفة المحطة من خلال خفض عدد العمال، كما خفضت الكلفة على الزبون الذي لم يعد مضطراً لدفع إكراميات. ولمزيد من الأمان، منع التدخين في هذه المحطات، وزُودت بنظام مراقبة لرصد المخالفين، كما جُهِّزت بأنظمة إطفاء.

ومع هذه المحطات، بدأ العمل على مدار الساعة في قطاع بيع البنزين، وباتت مبيعاتها تفوق بما بين خمسة وعشرة أضعاف مبيعات المحطات التقليدية التي رأت فيها تهديداً حقيقياً لمصالحها، لا سيما وأنها لم تكن تريد تغيير طريقة عملها. ومع احتدام الصراع بين أسلوبي عمل مختلفين، ونظراً إلى النتائج الباهرة التي حققتها محطات الخدمة الذاتية على صعيد حجم المبيعات، حظيت بمساندة خفية من شركات النفط، فيما تكتلت ضدها أكثر من 250 ألف محطة تقليدية.



Reuters

التهافت على المحطات.. حيثما ظهر شح

لم تعد محطات البنزين في تلك الحقبة مجرد مكان توضع فيه عدادات لضخ البنزين، وصندوق لجمع الأموال، بل باتت لوحة إعلانية ضخمة ومتكاملة في حد ذاتها. ومنذ مطلع الخمسينيات اتخذت هذه المحطات حجماً كبيراً في مجال الأعمال، وشهد هذا القطاع تهافتاً لافتاً للعمل فيه ومنافسة شرسة. فسادته الفوضى ما أدى إلى إخضاعه مرة جديدة لحملة تحسين وتطوير. وتفننت الشركات في إبراز شعاراتها وعلاماتها التجارية لجذب الزبائن عن بعد. وعلى غرار حركة تجميل المدينة في الثلاثينيات، انطلقت في الستينيات حركة مماثلة، إنما أكثر تنظيماً، انخرطت فيها السلطات الرسمية في سياق تصنيف المناطق ومنع انتشار المحطات في البعض منها، أو تحديد مواصفات وشروط تمنع الإساءة إلى المحيط والبيئة. وانخرطت الشركات في عملية تجميل لمحطاتها، وكانت «شل» السباقة في هذا المجال، تبعتها شركة «تكساكو» وباقي الشركات في ابتكار تصاميم تلبي المتطلبات الحكومية الجديدة في مجال تحسين صورة المحطات. ومع بداية السبعينيات كانت كل المحطات ارتدت حلة بيئية تجعلها متناسقة مع محيطها، وكثير منها بدا وكأنه مزارع ريفية في ضواحي المدن.

مجال دائم التطور عصي على الأزمات

استمر السباق بين الشركات على تحسين صورة محطاتها وتحسين خدماتها، بالإضافة إلى التنوع والتجديد والابتكار. وكان معظم المحطات بدأ يبيع الديزل والبنزين معاً تلبية للطلب المتنامي على الديزل كوقود أقل كلفة من البنزين. أما عدد محطات الخدمات فما زال يزداد في كل أنحاء العالم بما فيها الدول العربية التي تتبع التطورات العالمية في مجال تحديث خدماتها.

وقد باتت محطات الخدمات في العالم ترتدي شكلاً مختلفاً منذ أكثر من عقدين، ولم تعد خدماتها تقتصر على بيع المشتقات النفطية وتلك المتعلقة مباشرة بالسيارات، بل باتت نقاط بيع متكاملة تشمل تقديم المأكولات السريعة والمرطبات، وتشمل حتى مطاعم منوعة. وكلما لاحظ أصحاب المحطات أن تنوع الخدمات وتنوع البضائع المباعة يشكل عامل جذب للزبائن، كلما تفننوا في عرض المزيد، إلى أن باتت هذه المحطات تشكل محالاً تجارية حقيقية تعرض تقريباً كل ما يمكن شراؤه من محل تجاري عادي أو سوبرماركت.

ويكفي مثالاً على ذلك عرض ما أحرزته شبكة المحطات هذه في سويسرا عام 2007م، إذ ارتفعت مبياعتها بنسبة 2 في المئة عن عام 2006م وزادت معدل المساحة المخصصة للمحال فيها من 50 متراً مربعاً إلى 68,2 متراً مربعاً في الفترة إياها. ولوحظ أيضاً أن 69 في المئة من مبيعات المحروقات سجلت في محطات مجهزة بمحال تجارية، وأن هذا النوع من المحطات يمثل 35 في المئة من شبكة محطات المحروقات. وبدأت هذه المحطات تقدِّم عروضاً وتنزيلات على ما تعرضه من بضائع كما تفعل المحال التجارية العادية، بالإضافة إلى ما كانت تقدِّمه من عروض لتأمين سيارة بديلة من سيارة معطلة وخدمة نقل السيارة المعطلة إلى مرآب التصليح، وغير ذلك من الخدمات لقاء تعبئة حد أدنى من اللترات.

مسيرة يربو عمرها على القرن ما زالت تتطور وتستنبط أفكاراً مُجدِّدة لمجال يبدو أن أفقه غير محدود.

2 7 آلاف محطة في المملكة بين الشروط والواقع

حتى الماضي القريب، كان البعض يطلق على محطات الوقود في المملكة تسمية «الشيشة»، ويمكن أن تعود هذه التسمية لتشابه المضخة المستخدمة في عملية البيع مع «الشيشة» بخرطومها. أما اليوم، وإلى جانب التسمية الشائعة «المحطة»، هناك من يعتمد على لسانه اسم الشركة التي تدير المحطة. إذ شهد قطاع محطات الوقود المنتشرة في كافة أرجاء المملكة تطوراً ونمواً وتعدداً في الخدمات، مما صار يعطي لاسم المحطة بعداً يتجاوز معناه المباشر.

يصل عدد محطات الوقود بالمملكة حالياً إلى حوالي 7 الآف محطة موزعة وفق المخططات الهيكيلية المعتمدة للمدن والقرى وعلى الطرق الإقليمية. وتوفر هذه المحطات يومياً كميات من الوقود للمركبات المتنوعة تقدر بنحو 61 مليون ليتر بنزين (أوكتان 91 و 95) لحوالي 5 ملايين سيارة من كافة الأنواع، و27 مليون ليتر ديزل (حوالي 170 ألف برميل) لحوالي 2 مليون شاحنة وحافلة.

وتنتشر محطات الوقود على جانبي الطرق الرئيسة والفرعية في مدن وقرى المملكة، وتتنافس لتقديم الخدمة للسيارات والحافلات والشاحنات التجارية والعربات. ويتم حالياً وضع خطة متدرجة ومتكاملة لتحسين وضع وأداء محطات الوقود ومراكز الخدمة على الطرق الإقليمية، مما يعكس الصورة الحضارية والسياحية للمملكة بصورة تتناسب مع شبكات الطرق المتميزة التي تم إنشاؤها.

عناصر محطات الوقود

مع مرور الزمن تطورت وتنوعت وتعددت الخدمات التي توفرها محطات الوقود للمستهلكين شأنها في ذلك شأن ما بلغته المحطات المماثلة أينما كان في العالم. وبصورة عامة تتضمن هذه المحطات المنتشرة في أنحاء المملكة عدداً من العناصر التالية:

- الإدارة
- مصلى أو مسجد ملحق بالمحطة
- صراف
- محل لبيع بعض إكسسوارات السيارات
- الخدمات. دورات مياه ،....
- كفتيريا أو ركن للبيع (ميني ماركت)
- محل لبيع عبوات وزيوت بترولية
- مستودع لقطع الغيار
- خزانات المحروقات
- ورشة صيانة سريعة



Corbis



ماجد الصالحي

- مواقف سيارات
- إسعافات أولية

الشروط المطلوبة لترخيص محطات الوقود

تختص البلديات بالتنسيق مع الأمانات والدفاع المدني في إصدار تراخيص البناء والترميم والضوابط العمرانية وتحديد مواقعها على الطرق والإشراف على محطات الوقود في أنحاء المملكة، في حين تقوم شركات متخصصة في تشغيل أو صيانة أو إنشاء مثل تلك المحطات. وينبغي مراعاة الشروط التالية عند إقامة محطات وقود داخل المدن:

- يراعى إقامة المحطات بعيداً بقدر الإمكان عن المصانع والمدارس وقصور الأفراح والمستشفيات، بحيث يفصل موقع المحطة عن هذه المنشآت شارع فرعي لا يقل عرضه عن 20 متراً.
- ألا تقل أقرب مسافة بين محطة وقود وأخرى عن 500 متر في نفس الاتجاه، على الشارع الواحد أو في الاتجاه المقابل.
- ألا تقل أقرب مسافة بين محطة الوقود وبين المحلات التي يستخدم فيها مصادر اللهب مثل المطابخ أو المخابز أو المقاهى عن 30 متراً.
- يجب أن تقع محطة الوقود على شارعين زاوية أحدهما تجارى، ولا يقل عرض الشارع الرئيس التجاري المطلة عليه واجهة المحطة الرئيسة عن 30 متراً.

وبالرغم من أن محطات الوقود تُعد شريان الحياة لحركة النقل والمواصلات البرية من سيارات وحافلات باصات وشاحنات ودرَّاجات نارية فإنها وفي الوقت نفسه تُعد من أخطر أوجه النشاط التي يتعامل معها المجتمع ما لم يتم تطبيق شروط السلامة لتجنب مخاطر الحرائق والانفجارات، واعتماد الطرق السليمة للتخلص من الزيوت والمواد البترولية المستهلكة، وتنظيم مداخل ومخارج المحطات بالطرق النظامية واتخاذ الاحتياطات البيئية والفنية اللازمة لمنع تسرب الوقود من الخزانات تحت الأرض.

تزويد المحطات بالوقود

تمتلك المملكة ممثلة بأرامكو السعودية أربع مصافي بترول لتغطية حاجات الأسواق المحلية في أنحاء المملكة الممتدة من الخليج العربي إلى البحر الأحمر، وهي مصافي رأس تنورة والرياض وجدة وينبع. وقد قامت الشركة مؤخراً بتحديث مرافق البنزين في هذه المصافي للتمكن من إنتاج نوعين من البنزين. كما تمتلك الشركة حصصاً في ثلاث مصافي مشتركة في المملكة، وتدير أرامكو السعودية عشرين مركزاً لتوزيع الوقود بكافة أنواعه منتشرة في جميع مناطق المملكة. وتتم تغطية حاجات كل منطقة للوقود من خلال شبكة ضخمة لتزويد العملاء بالمنتجات. وتتابع مراكز توزيع الوقود أي نقص أو زيادة في الاستهلاك، وتعمل كخلية نحل وفق آليات تقنية متقدِّمة لتسهيل وصول المنتجات البترولية للمستهلك.

وبدورها تقوم محطات الوقود الصغيرة أو الكبيرة بملء خزاناتها الأرضية من وقود البنزين بنوعيه ممتاز 91 (لون أخضر) وممتاز 95 (لون أحمر)، بالإضافة إلى وقود الديزل بواسطة شاحنات صهاريج كبيرة تنقل المشتقات البترولية من أقرب مركز لتوزيع الوقود.

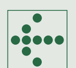


وقد قامت المحطات بطلاء المضخات باللون المطابق للبنزين الذي تضخه ليتمكن المستهلك من رؤية لون المنتج وتمييز نوعه. وتجدر الإشارة إلى أن الطلب على البنزين يستحوذ على حوالي 15 في المئة من إجمالي الاستهلاك المحلي للمشتقات البترولية في المملكة كما أن المملكة تتبنى برنامجاً طموحاً لتحسين مواصفات وجودة البنزين والديزل وتقليل محتوى الكبريت والعطريات، في إطار السعي إلى الارتقاء بهذا القطاع المفتوح دائماً على التطور.

3 خدمات يمكنها أن تكون أفضل



Getty Images



عندما تطورت محطات الوقود في العالم من مجرد نقاط لبيع المحروقات إلى ما يشبه المجمعات المتكاملة، فإنها لم تفرض شيئاً على المستهلكين، ولكنها كانت تستجيب إلى احتياجات المسافرين، التي تزداد أهمية على الطرقات الطويلة في الأماكن المقفرة، وخاصة في البلدان الكبيرة بمساحتها الجغرافية كما هو الحال في المملكة. ومن يلقي نظرة خاطفة على محطات الوقود المنتشرة على جنبات الطرق السريعة ما بين المدن الكبرى في المملكة، يلاحظ فوراً أنها تحولت إلى مجمعات تقدم عدداً كبيراً من الخدمات، بموازاة توزيع الوقود على السيارات، كما هو وارد في المقال.

ولكن النظرة المدققة تقول شيئاً إضافياً..
إن كان لا أحد يتذمر من خدمة توزيع الوقود، فالملاحظ أن معظم الخدمات الأخرى تشكل في معظم الأحيان وفي معظم المحطات موضع تذمر، من قبل الذين يرتادونها.

أول الجوانب المثيرة للتذمر هو في مستوى النظافة الذي يتدنى في المقاهي والمطاعم التابعة لبعض المحطات، وأيضاً نوعية بعض الأطعمة، وكأن هذه المطاعم تفلتت من كل أشكال الرقابة عليها. الأمر نفسه ينطبق على نزل الاستراحة (فنادق صغيرة مكونة من عدد محدود من الغرف)، وكأن المسافر المتعب مضطر اضطراراً للقبول بها. وهناك قضية أخطر مما تقدم، خاصة على الصعيد البيئي، تتمثل في ما أثير حول سلامة خزانات الوقود تحت الأرض واحتمالات تسرب المشتقات النفطية إلى باطن الأرض والمياه الجوفية.

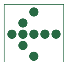
فبشكل عام، ولأن الحالة العامة لهذه المحطات-المجمعات لم تعد مرضية للمواطنين ولا تعطي الصورة اللائقة بمواقع تشكل محطات مهمة من محطات السفر والسياحة، تعمل الهيئة العامة للسياحة والآثار حالياً على تطوير مشروع يقضي بالنهضة بمحطات الوقود من وضعها الحالي، وفرض مقاييس قابلة للتطبيق بشكل مرحلي، تؤدي إلى الارتقاء بخدمات هذه المحطات بحيث تصبح لائقة بالمسافرين الذين غالباً ما يكونوا بحاجة إلى ما يتجاوز تعبئة السيارات بالوقود.

العمل من على الحافة

«إحساس بالطوارئ»



بعد سنوات من البحث والتنظير في فكرة القيادة والتغيير، يكشف الأستاذ في كلية هارفارد الأمريكية للأعمال جون كوتر في كتابه الجديد «إحساس بالطوارئ» عن الحل لمشكلة الأداء المتواضع للشركات. الحل في نظره، هو الإحساس العام والعارم بحالة من الطوارئ. إسعاد عثمان* تعرِّف الطوارئ المقصودة، وتشرح دورها على أداء المؤسسات والأفراد، بالإضافة إلى استراتيجيات تفعيلها إدارياً.



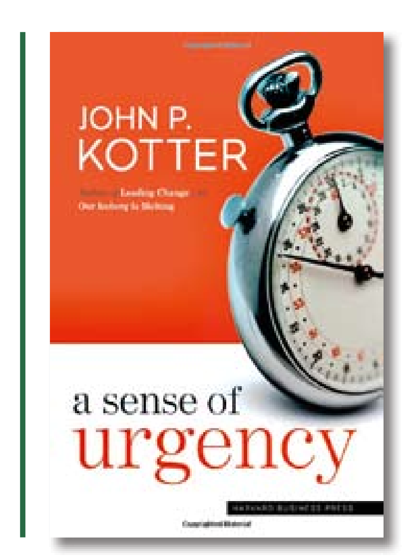
إذا شئت، يمكنك أن تشبه ما ينصح به البروفيسور الوقور جون كوتر الشركات بنسخ الطريقة التي تعمل بها غرفة عمليات الجيوش في الحرب أو أكثر أقسام الطوارئ ازدحاماً في مستشفيات المدن الكبرى. كوتر يقول في كتابه الصادر مؤخراً «إحساس بالطوارئ» إن التغيير الديناميكي في أداء الشركات لا يتأتي إلا بإضاءة النور الأحمر وإعلان حالة من الطوارئ.

وهذه الدعوة ليست جديدة على كوتر، فقد قدَّمها عام 1996م في كتابه الذي يُعد اليوم من الكتب الكلاسيكية في عالم الأعمال «قيادة التغيير». في هذا الكتاب الرائد حلل كوتر جهود التغيير التي بذلتها مجموعة من الشركات لتقديم أنظمة جديدة مختلفة إلى هيكلها الوظيفي، مثل تطبيق أنظمة إلكترونية حديثة واستراتيجيات نمو مبتكرة وإعادة التنظيم لتقليل تكاليف الإنتاج. وكانت نتيجة التحليل أن 70% من هذه الجهود تمت، لكن بميزانية تفوق المطلوب بمراحل، وبتأخر كبير عن الجدول الزمني الذي وضعت ضمنه خطة التغيير، وبروح معنوية محبطة ومرّة لدى الموظفين، أو لم يتم إطلاقها بشكل كامل أو فشلت تماماً. أما 10% من الحالات ضمن الثلاثين بالمئة الباقية فقد وجد الباحث أن أداء الموظفين قد وصل إلى ذروة لم يتوقعها أكثر المديرين تفاؤلاً.

* كاتبة من مصر

ما التفت إليه كوتر هو أن شركات شريحة العشرة بالمئة الناجحة اتبعت، ودونما اتفاق، معادلة إدارية واحدة تكررت رغم الاختلاف الكلي في طبيعة أعمال الشركات وبرامج التغيير المقدَّمة داخلها. أثارت المعادلة اهتمام كوتر، وحللها ليخلص إلى وضع برنامج من 8 خطوات ينصح بها أية شركة تنوي تغيير أي من سياساتها. تبدأ الخطوات بالترتيب بإنشاء حالة من الطوارئ، تليها صياغة مرشدة وفعّالة، ثم خلق رؤية محددة ومن ثم إيصالها إلى الجمهور المعني بالتغيير. وتتضمن الخطوة الخامسة تمكين الآخرين من العمل باتجاه تنفيذ مبادئ هذه الرؤية. أما السادسة فتتضمن التخطيط لخلق مكاسب على المدى القصير، ثم تجميع الجهود المبذولة وإنتاج المزيد من التغيير، وأخيراً خلق ثقافة جديدة لدى عامة الموظفين تتبنى منهج التغيير الذي بدأ كرؤية.

وعندما صادف كوتر التحليل نفسه في دراسته اللاحقة المعنونة بـ «قلب التغيير»، وصل إلى قناعة مفادها أن الخطوة الأولى: إنشاء حالة من الطوارئ، هي الخطوة الأساسية والضرورية ليتخذ الناس هذه القفزة الهائلة من المعتاد والمريح، إلى الجديد المجهول. وللتحقق من هذه القناعة، أعاد كوتر النظر في منهج بحثه واعتبرها فرضية أساسية يسعى لتأكيد صحتها من عدمها، وبدأ في توجيه مجموعة من الأسئلة إلى المديرين وصنّاع القرار في الشركات الكبرى لبحث فرضيته بعمق، ولم تزده الإجابات إلا اقتناعاً بأهمية دور حالة الطوارئ في صناعة التغيير.



غلاف الكتاب

لنعرّف الطوارئ أولاً..

إذن، مـا هي الطوارئ التـي يتحدث عنها جـون كوتر في كتابه تحديـداً؟ يقول كوتر إن حالة الطوارئ في الشركات لا تعود إلى شعـور بالواجـب أو الرغبـة العقلانية في النجاح وزيادة عائدات المؤسسة المالية، بـل هو إحساس غريـزي يدفع البعض منا إلى خطـف الفرص، مع تحاشي أخطارها بدقـة مدروسـة لا تفسدها آنيـة الحدث. هي أيضاً قـرارٌ حي وحيوي بتحقيق ما هو مهم الآن-اليـوم، وليس الشهر القادم، أو الأسبـوع القادم، أو حتى الغـد. هي إدارة نشطـة، دائماً مـا تنحـي النشاطات غير المنتجة، وتركز على اتخاذ القرارات المصيرية وإن صغرت، بسرعـة وذكاء لتحقيق إنجاز ما فـي نهاية اليوم، وهي سلسلة من الأفكار والمشاعر والتصرفات التي لا ترتبط بأي حال من الأحـوال بقائمة لا تنتهي من النشاط المرهق، بل هي انشغال مركز وفعّال بشأن المسائل الحيوية المصيرية لنجاح الشركة فـي مستقبلهـا القريـب والبعيد على حـد سواء، وهـي تقييم مستمـر للأولويات بحيث يتم العمـل والتركيز على حل الأمور ذات القيمـة الحقيقية، ويقودها شعور حاسـم عارم بالرغبة فـي الفوز وليـس القلق من الخسـارة، ومع مثل هـذا الشعور، ينجز الفـرد مهمةً ذات ثقل كل يوم، ويشعـر بالتالي بالنجاح كل يوم.

أمـا الجانـب المتطـرف المعـادي لرفـع حالـة الإحساس بالطوارئ فهو حالة الطوارئ المغلوطة غير المرشدة، والتي يقودها الإحساس بالغضـب والإحباط والتوتر، وتظهر عبر الركض من اجتماع لآخر، وإنتاج مجلدات من الورق تسجل توصيات هـذه الاجتماعات، وتلخص خططاً تنموية متتالية لا يطبقهـا أحـد، والدوران فـي حلقة مفرغة مـع الإعاقات المصاحبـة لهذا النـوع من الـدوران: قلق وتوتـر وإحباط وإخفـاق، والنتيجة واحدة، إغفال الفرص الحقيقية للنمو والبناء والتطوير، وضياع التركيز على النجاح.

استراتيجيات وتطبيقات

دراسـات الأعمال المجردة تخاطب العقل، ويشير كوتر إلى أنـه لزيادة رفع مستـوى الوعي بإلحـاح التغيير على خطط التغيير مخاطبة القلب أيضاً. المسألة ليست إدراكاً منطقياً بضـرورة التحـرك، بـل هـو هاجـس انفعالي شبـه قهري بضرورة التحرك والفوز.. الآن.

يذكـر الكاتب أن أهم التكتيـكات المستخدمة لرفع مستوى الإحساس بحالة الطوارئ هي أربعـة، أولها هو تقديم واقع المؤسسـة الحالـي بشـكل دراماتيكـي كما يـراه المشاهد المحايـد من الخـارج إلى جمـوع الموظفيـن المستغرقين فـي أداء المؤسسـة ومشكلاتهـا الداخليـة. وهـذا لا يكون عبـر تقديـم مجموعـة مـن البيانـات وإلقائها عرضـاً، أو حتـى كتابتهـا وتنظيمها في أهداف وعرضهـا على برنامج «الباوربوينـت». بدلاً من ذلـك، تقديم هذا الواقع عبر خلق تجربة متكاملة تخاطب عواطف المتلقي وتشمل شهادات من أشخاص، معلومات، دراسات.. إلى آخره. ثانيها هو اعتناق المسؤوليـن في أعلى هـرم المؤسسة الوظيفـي للإحساس بحالة الطوارئ، والتصرف على أساسها كل ساعة وكل يوم، وهذا لا يتم عبر إلقاء الخطب والعبارات المؤثرة بل هو عبر الأداء الواضـح الذي يمكن مشاهدتـه وتقييمه بحيث يمثل قدوة حسنة لبقية الموظفين. ثالثها حرص سياسة الشركة على التطلع إلى «الفائدة» التي تأتي من رحم الأزمة، بعناية فائقة ومن دون إيجابية حسنة النية.

الأزمات في هذه الاستراتيجية ليست خطراً يهدد المؤسسة فحسـب، بل هـي أيضاً في نفـس الوقت فرصـةً تنتظر من يكتشفهـا لتحرِّك المـاء الساكن في البركـة الراكدة لأداء الشركـة، هذا بالطبع إن استغلت جيـداً، أما إن لم تستغل، فنتيجتهـا الطبيعيـة حالة من الطـوارئ المغلوطـة التي لا تؤدي إلا إلى مزيد من الفشل والإخفاق.

أخيراً، التكتيك الرابع هو مواجهة مشكلة المنهزمين ضمن موظفـي الشركة، ويقصـد الكاتب بهؤلاء الذيـن يواجهون كل فكـرة جديـدة بالرفـض والسلبيـة التي تضعـف إيمان البقيـة بالقدرة على الإنجاز، ويجـب أن تتم مواجهة هؤلاء بحزم وبصرامة، من دون قبول ما تسلم به بعض الشركات الأخرى من أن وجود هذه الشريحة أمر حتمي.

الاستراتيجيات الأربع، كما يشير الكتاب، تؤثر على المواقف والأفكار والمشاعر والآمـال والأحلام والتصرفات، وتحوّل الرضـا السـاذج بما عليه الحال إلـى عزيمة لا تلين للحركة والتغيير الإيجابي الآن.

أهميـة الكتـاب تأتـي من أن التغييـر اليوم انتقـل من كونه عارضـ مرحلي ومؤقـت تواجهه الشركات بيـن عقد وآخر إلى حالة دائمة ومستمرة، فلم يعد الأمر يتعلق فقط باتخاذ قرار دمج بيـن شركتين على سبيل المثـال، بل يتعلق أيضاً بتطبيق استراتيجيـات وأنظمة حاسوبيـة مختلفة وفيضان لا يتوقف من المشاريـع والأمور المستجدة، وأهمية الكتاب تكمـن أيضاً في الملاحظة أن الشعور بحالة الطوارئ انتقل مـن عنصـر مهم ضمن خطـة برنامج للتغييـر إلى عنصر ضروري لأية إدارة بالمطلق.

ماذا سنأكل غداً؟

طعام المستقبل في مختبرات اليوم



تشهد الزراعة وصناعة الغذاء في عصرنا هذا سلسلة من التطورات تعادل في تأثيرها حجم كل ما طرأ عليها خلال الألف سنة الماضية. حتى أن بعض الدراسات والأبحاث بدأت تجرف عالم إنتاج الغذاء بعيداً جداً عن عالم الزراعة كما نعرفه.

رجب سعد السيد* يستشرف ما سيكون عليه طعامنا في المستقبل انطلاقاً من الأبحاث العلمية الجارية حالياً سعياً إلى توفير مصادر للغذاء قد تعجز الأراضي والمزارع التقليدية عن تلبية الطلب عليها، أو إلى إيجاد بدائل أقل تكلفة وسد النقص حيثما هو متوقع.

* المدير العام في المعهد القومي لعلوم البحار والمصائد بمصر

Getty Images



كان للتكنولوجيا الزراعية فضـل في رفع إنتاجيـة الأرض الزراعية، للوفاء بحاجات البشـر المتزايدة إلى الطعام. إذ كان باستطاعة الفلاح المصري القديـم، منذ أكثـر من 5000 عام، أن يطعم أسـرته المكونـة من 5 أفراد بزراعة قطعة أرض من وادي النيل لا تزيد مساحتها على فدان واحد.

ومنـذ 4 آلاف سـنة، كان الفـلاح الإنجليزي يـزرع 5 أفدنة ليوفر الطعام لثلاثة أفراد فقط، ولما تدخلت الآلة الزراعية، أصـبح بإمكان الفـلاح الأمريكي أن يحـرث ويزرع ما يزيد على مائـة فدان في الربع الأخير من القـرن 19، لينتج من المحاصـيل الزراعية الغذائية ما يكفي أسـرته وستة أفراد آخرين. وباضـطراد التقدم التكنولوجـي، في الربع الأخير من القرن العشـرين، تمكن هذا الفلاح نفسـه من أن يزرع 400 فدان، ليغطي حاجة 50 فرداً من الطعام.

وفي بداية الثورة الصـناعية كانت الاستثمارات تتجه إلى مصانع الآلات وخطوط الإنتاج؛ أما الآن، فإن فرصاً كبيرة تلوح للاسـتثمار والمستثمرين في مجال الوسائل الحديثة لإنتاج أنواع جديدة من الطعام. إنها وسائل مبتكرة، ومنها على سـبيل المثال زراعة النباتات المنتجة في الهواء بدل التربـة. إذ يجـري الآن تطويـر هـذا النمـط الجديد من الزراعة فـي مراكز أبحاث بولاية فلوريدا الأمريكية. وفي هذه الزراعة الهوائية، تعلق النباتات في أحزمة دوارة في الهـواء، حيث تحصـل جذورها على الغـذاء اللازم للنمو عن طريـق الرش برذاذ من محلول يحتـوي على الأملاح المغذيـة، يتغيـر تركيبه حسـب تغيـر حاجـة النبات في أطوار نموه المختلفة. وقد تمكَّن اليابانيون من اسـتخدام الزراعـة في الهـواء، والزراعة في المـاء، من دون حاجة للتربـة، في إنتاج 15 ألـف ثمرة طماطم من بذرة واحدة. وكان ارتفاع النبات الذي أنتج هذا العدد الهائل من الثمار يقترب من خمسـة أمتار، ولم تكن البذرة المستخدمة في زراعتـه معدَّلة وراثياً لتعطي هذا المحصـول الخارج عن المألـوف. وبالطريقة نفسـها أنتج اليابانيون أيضـاً 700 ثمرة خيار مـن بذرة واحدة؛ وأنتجـوا نبات (الخس) في أربعة أيام فقط!

لحوم المختبر أو لحوم فرانكنشتاين

وللطعام فـي مختبرات مراكز البحـوث حكايات وطرائف. ففـي الأربعينيات من القرن الماضـي، مثـلاً، كان حلم كل من المسـتهلك ومربي الدواجن أن تتطور وسائل تربية وإنتاج الدواجـن لتعطي كمية أكبر من لحـم الدجـاج البيض. وعبَّـر الزعيم السياسـي البريطاني ونسـتون تشرشل عـن هذا الحلم قائلاً: «آن الأوان لأن نكف عن إصـرارنا علـى تربية الدجاجـة كاملة، فنحن لا نأكل إلا صدرها أو فخذها؛ فلماذا لا يقتصر اهتمامنا على إنتاج هذه الأجزاء مـن الدجاجة؟». وعلى أي حال، فقد سـبق تشرشـل إلى هـذه الفكرة الدكتور ألكسـي كاريـل، الحائز لجائزة نوبل عندمـا أجرى في عام 1908م تجربة على قطعـة من قلب دجاجة، قام بغمرها في محلول من أملاح مغذية، فوجد أنها لم تستمر محتفظة بحيويتها، فحسـب، وإنما كان حجمها يتضاعف في كل يوم، ولم يطرأ على خصائصها أي تغيير، ولم تظهر عليها علامات التقدم في العمر، وظلت تتضـخم وتتضـخم حتى ملأت فراغ وعاء التجربـة. هنـا، اقتطـع الدكتور كاريل شـريحة من نسـيج القلب الآخـذ في النمو، وزرعها بالطريقة نفسـها في وعاء آخر، فتحقق النجاح نفسـه. واسـتمرت هذه العملية مرات ومـرات، حتى توفي كاريل فـي عام 1944م، ولكن شـرائح قلـب الدجاجة لم تتوقف عن النمو في مختبره، واسـتمرت التجربة لمدة 36 سـنة تحت إشراف تلاميذه. وأثارت هذه التجربة خيال بعض الكتاب، ولم يستطع كتاب آخرون تقبل هذا التصور المسـتقبلي، فأطلقوا على اللحوم التي تنتجها تلك الآلة التخيلية اسم «لحوم فرانكنشتاين»!.

اللحم المزيَّف (الصناعي) صار حقيقة، ويستخدمه النباتيون ومرضى القلب وأبناء المجتمعات الفقيرة

ولا تزال فكرة صناعة لحم في المختبر تداعب خيال وطموحات العلماء، وعلى نحو خاص في قطاع أبحاث الفضـاء، على أمل إيجاد طرق توفر لرواد الفضـاء لحوماً طازجة يسـتغنون بها عن اللحوم المحفوظة المخلوطة بالحبوب والوجبات النباتية التي يعتمدون عليها حالياً، فلعلنا نسمع في المستقبل القريب عن نجاحات تحققت في هذا المجال.

اللحم المزيَّف أصبح حقيقة

وإلـى أن يأتي اللحم من المختبر، سـيكون علـى الناس أن يعتمـدوا على نوع آخر، هو «اللحم المزيف»، المصـنوع من مستخلصـات فول الصـويا وغيره من بذور النباتات. وهذه المستخلصـات غنية بالبروتين النباتي، وتتضـمن خطوات تصـنيعها تحويلهـا إلى معلّقات غليظة القوام، تضـغط في آلات خاصـة ذات ثقوب دقيقة، شـبيهة بـآلات غزل خيوط الأليـاف الصـناعية. ثـم تخلط بالدهـون، ويضـاف إليها مكسـبات لون ونكهة، مـع بعض الفيتامينات، وتشـكل على



اللحم المزيف محل البقري؟

هيئة شـرائح أو مكعبـات، وتطرح بالأسـواق. وثمة توقعات بأن هذا النوع المزيف من اللحم سـيكون هو الخيار الوحيد أمام الكثيرين في المستقبل، وأن الحصول على شريحة من بروتين حيواني حقيقي سـيكون حلماً بعيد المنال. والجدير بالذكـر أن هذا النوع الغريب من اللحوم معروف في أيامنا هـذه، بـل إنه يسـتخدم منـذ عدة سـنوات فـي التجمعات البشـرية الفقيرة، كما يستعين به النباتيون ومرضى القلب الذين يمنعهم أطباؤهم من تناول اللحوم الحقيقية.

دور التجارة في تحديد النوعية

وعلى أي حال، فإن حركة التجارة العالمية سـتكون ذات تأثير يؤدي في المسـتقبل إلى تغيير قائمة أطعمتنا. فحالياً، يراقب أصـحاب مـزارع الحيوانات المنتجـة للحوم أحـوال التجارة العالميـة والتغيرات في الأسـعار، ويسـتجيبون لذلـك بتغيير أنشـطتهم حسـب أحوال السـوق؛ ففي نيوزيلنده -على سبيل المثـال- تحول 10% من مربي الأبقـار إلى تربية الغزلان من أجل لحومها التي ازداد الطلب عليها، وأصبحت تحقق أرباحاً أعلى. ومن الحيوانات المرشحة لأن يزداد الطلب العالمي على لحومها في المسـتقبل، النعام والتماسيح الأمريكية؛ فلحومها -كما يقول خبراء التغذية- طيبة المذاق. إذ يشبه لحم النعام في الطعم لحوم العجول الصغيرة، كما أن نسبة الكوليسترول فيـه منخفضـة. هـذا، بالإضـافة إلـى مـا تنتجه التماسـيح وطيور النعـام -ثانوياً- من جلود وريش، مما يرفع مردودها الاقتصادي. كما أن للنعام ميزة أخرى، وهي أن تربيته لا تحتاج إلى مساحة كبيرة من الأرض، وبأن أنثاه تعطي 50 – 70 بيضة في السـنة؛ كما أن الرطل الواحد من ريش النعام يساوي 150 دولاراً. ويبـاع الزوج من الأحذية المصـنوعة من جلد النعام، في بعض الأسـواق الأمريكية، بنحو ألف دولار؛ ويمكن تصنيع 14 زوجاً من الأحذية، ومحفظة أوراق، من جلد نعامة واحدة. فانتظروا لحوم النعام على موائدكم في المستقبل. وثمة دلائل تعضـد هذا التوقع، حيـث إن إنتاج (مزارع النعـام) آخذ في التزايد؛ وفي بلد كجنوب إفريقيا يصل إنتاج هذه المزارع إلى 73 ألف طائر في السـنة، أما في الولايات المتحدة الأمريكية، فهناك ألف مزرعة تشتغل بتربية طيور النعام.

البروتين من النفط

ولعل أغـرب وأطرف محاولات إنتاج البروتين هي تلك التي اتجهت لاستخلاصه من النفط؛ وقد بدأت تلك المحاولات، كمـا في كثيـر من الاكتشـافات العلميــة، بملاحظة ظاهرة طبيعية؛ عندما تكررت شـكاوى العاملين في حقل الطيران مـن أن خزانـات الوقـود في الطائـرات تتعرض جدرانها الداخليــة لهجـوم مكثف مـن كائنـات دقيقة تمثـل خطراً حقيقيـاً علـى حياة المسـافرين جواً؛ إذ إن هــذه الكائنات تـؤدي إلى انسـداد مجـاري الوقود في الطائرات، وتسـبب الكثير من حوادث الطيران. وعلى الفور، بدأ علماء الأحياء الدقيقة في دراسـة الظاهرة. فاكتشفوا أنواعاً من الخمائر والفطريات، لها القدرة على النمو في هذا الوسط النفطي. وهنـا، اتخـذت الأبحـاث اتجاهـاً آخـر: دراسـة إمكانات واحتمالات زراعة هذه الكائنات على مشتقات النفط.

توصلـت التجارب إلى أن أهم مشـتقات النفـط التي يمكن اسـتخدامها في إنتاج البروتين النفطي هما الغاز الطبيعي وزيت الغاز. واكتشف العلماء أكثر من ألف نوع من الكائنات المجهرية قابلة النمو على مشتقات النفط.

وقـد ثبت بالتحليل أن هذه الكائنـات الحية الدقيقة تحتوي على بروتين يسـاوي 60 – 70% من وزنها؛ ووجد أيضـاً أن هذا البروتين لا يقل جودة عن الأنواع الأخرى، فلم تظهر أية أعراض ضارة أو تسمم على الحيوانات التي تقتات عليه، ولا على الإنسـان الذي يأكل لحوم هذه الحيوانات. كما توصلت التجارب فـي المعهد المركـزي لبحوث الطعـام والتغذية، في هولندا، على العجـول والدواجن، إلى أن بروتين النفط مقبول لـدى الحيوانات، بعـد خلطه مع أنـواع البروتيـن الأخـرى فـي العلف وأن هـذا البروتين الجديد مشـابه في تركيبــه الكيمـاوي للبروتين النباتـي المنتـج مـن فـول الصويا، وقريب إلى تركيب البروتين السمكي.



هواجس التغذية السليمة تغير الهرم باستمرار

ولكـن إن كان العلـم لم يتوصـل، بعد، إلـى تقديم طبق من اللحم البترولي للإنسـان، فإنه يقدِّم القيمة نفسـها بشكل غير مباشـر. ولا نستبعد أن يصـبح هذا البروتين ذات يوم صالحاً للاستخدام المباشر في مطابخنا.

التكنولوجيا الحيوية

أما تدخـل التكنولوجيا الحيوية في مجـالات إنتاج الأغذية البشـرية، فيمثل قضيـة لا تزال تثيـر جدلاً واسـعاً. فكثير مـن المنتجات الزراعية التي نأكلها الآن أنتجتها الهندسـة الوراثيـة، وهي واحـدة من آليات التكنولوجيـا الحيوية. أي أنهـا جـاءت نتيجة إجـراء تغييرات فـي التركيـب الوراثي الأصـلي لها؛ وذلك من أجل إكسـابها صـفات أفضل، مثل وفـرة الإنتـاج، أو مقاومة الطفيليـات والأمراض، وإطالة مدة بقائها صـالحة للاستعمال، وكبر الحجم، وغيرها من الصفات المرغوبة. فهل هذه المنتجات آمنة، أم يمكنها أن تحمل ضرراً لمن يأكلونها؟.

لقـد كانت ثمار الطماطم أول ما طرح بالأسـواق الأمريكية من محاصـيل الغـذاء المعدلة وراثيـاً، وكان ذلك في العام 1994م. ومنـذ ذلك الحين، يقبل الأمريكيـون على العديد مـن المنتجـات الغذائية المعدلـة وراثياً، تبلغ نسـبتها بين سائر الأغذية المطروحة بالأسواق 65%. ويرى الأمريكيون أنهـا أغذية مأمونـة. فهل هم على حق؟. وهـل الفترة التي تعاملوا خلالها مع هذه الأغذية المثيرة للجدل كافية للتأكد من أنها لا تسبب أضراراً على المدى الطويل؟.

يعمل فـي مجالات إنتـاج الطعـام باسـتخدام تكنولوجيات حيويـة عدد كبير من الشـركات المتخصصـة، تنتشـر في أماكن عديدة من العالم، والتطورات التي أدخلتها على طرق إنتاج الطعام تفوق الخيال. فعلى سـبيل المثال، تعمل حالياً شـركة (إسـكاجين) للتكنولوجيا الحيوية، في مدينة سـان كارلوس في أمريكا، على إنتاج ثمـار البرتقال والكرز دون حاجة لأشـجار هذين النوعين من الفاكهة، وإنما في وسـط صناعي داخل أوعية بالمختبر. كذلك، ستتغير طريقة إنتاج البطاطس، أحد المحاصـيل الزراعية المهمـة التي يعتمد عليها البشـر فـي جميع أنحاء العالم؛ وقـد اعتاد الفلاحون زراعتها باسـتخدام قطع من درنـات البطاطس بها براعم، وهي طريقة تكلِّف مالاً أكثر وتستغرق وقتاً طويلاً؛ وقد تمكن خبراء تلك الشـركة من إنتاج (بذور) مـن نبات البطاطس يمكن استخدامها في الزراعة بدلاً من الدرنات.

وعلينـا أن نعترف بأن التكنولوجيـا الحيوية قد رفعت إنتاج الأرض الزراعية من المحاصـيل، وخفضت تكاليف الإنتاج الزراعـي، بالإضـافة إلى جهدها الرئيس فـي اتجاه إيجاد وتطوير منتجات جديدة، ذات صـفات محسّـنة، استجابةً

لحاجة المستهلكين، حالياً ومستقبلاً. ولعله من المهم أن نشير، في هذا المجال، إلى تقرير صدر مؤخراً عن الإدارة الأمريكية، يقول: لا ينبغي المبالغة في المخاطر التي تنتج من الكائنات الحية -نباتية وحيوانية- التي عولجت بهذه التكنولوجيات الحيوية، فهي لا تمثل -بحد ذاتها- مخاطر على الصحة البشرية، أو صحة البيئة.

أول غيث تكنولوجيا النانو في الغذاء: ورق التغليف، الذي ستليه آنية الطبخ، ثم «النانو طعام»

الجدير بالذكر أن التكنولوجيا الحيوية ليست علماً بحتاً، وليست صناعة خالصة؛ ولكنها منظومة فنية، تتسع لتستوعب أسس العديد من العلوم، مثل: الهندسة الكيميائية؛ والوراثة؛ والكيمياء الحيوية؛ والمناعة؛ وهندسة العمليات؛ والحاسوب، ومعالجة البيانات؛ والبيولوجيا الجزيئية.. وتصنع من هذه العلوم المختلفة ضفيرة تخدم الصناعات التي تعتمد على نشاط بعض الوسائط الحيوية، مثل الكائنات الدقيقة، والخلايا والأنسجة النباتية والحيوانية، والإنزيمات، والهورمونات؛ ساعيةً إلى توفير السلع والخدمات، في عالم يتزايد سكانه، وتتدنى أحوال موارده الطبيعية، عاماً بعد عام. ونستنتج، ضمناً، أن هذه المنظومة الفنية، ما دامت متصلة بتوفير متطلبات استهلاكية وخدمية للبشر، فهي شديدة الارتباط بحركة التجارة والاقتصاد؛ وهو ما يعبر عنه الأمريكيون بالرمز: R (Research) & D (Development)؛ أي تلازم البحث العلمي والتنمية، حيث تقوم مراكز ووحدات الإنتاج بتمويل نشاط البحث العلمي، في مقابل أن تأتي لها المختبرات البحثية بالحلول للمشكلات التي تعترض عمليات التصنيع، وتطور الوسائل التي تقفز بمعدلات الإنتاج.

وتلزمنا الموضوعية، أيضاً، بأن نستمع إلى رأي ملايين من البشر في عالمنا لا يزالون متخوفين من ذلك «المجهول»، الذي تسرب بالفعل إلى خلايانا ودمائنا: التكنولوجيا الحيوية!. إنها، بلا شك، واحدة من القضايا بالغة الأهمية، التي تشغل بال صانعي السياسات في كثير من المواقع بالعالم.

من جهة أخرى، يرى جانب من خبراء الزراعة والبيئة والتغذية أن المحاصيل الغذائية المعدلة وراثياً قد خيبت الآمال والتوقعات في أسواق الدول المتقدِّمة، لدرجة أن مستقبلها أصبح غير واضح الآن، إذ تواجه بمعارضة أوروبية صلدة، وحتى في الولايات المتحدة الأمريكية، أكبر أنصار التكنولوجيا الحيوية، تأثر المواطن الأمريكي بالجدل الدائر حول الآثار الصحية والبيئية للأغذية المعدَّلة وراثياً، وأصابه التشوش، وصار يهتم بمراجعة مكونات غذائه المنتجة بهذه التكنولوجيا، كما تزايد اتجاه المستهلكين في الغرب نحو الأغذية العضوية، وهي الأغذية التي تجيء من محاصيل زراعية لم تستخدم فيها أية معالجة من معالجات التكنولوجيا الحيوية (تعديل شفرة وراثية - حفز نمو باستخدام الهورمونات .. إلخ).

النانو زراعة!

في عام 1990م، بدأ عصر تكنولوجي جديد عرف باسم النانوتكنولوجي، أو تكنولوجيا المنمنمات. وقد حدد العلماء تلك السنة بدايةً للعصر التكنولوجي الجديد لأنها شهدت تمكن الباحثين في إحدى شركات الإلكترونيات العالمية من صنع أصغر إعلان في العالم، حيث استخدموا 35 ذرَّة من عنصر الزينون في كتابة اسم الشركة، ذي الحروف الثلاثة، على واجهة مقر فرعها بالعاصمة السويسرية!.

فهل سيكون للنانو تكنولوجي دور في رسم صورة طعام المستقبل؟. هل سيأكل البشر في المستقبل (نانو طعام)؟. يرى بعض المهتمين أن ظهور بعض منتجات النانوتكنولوجي، مثل مستحضرات التجميل المضادة



Corbis

الزراعة النسيجية لنباتات في مختبرات جامعة كورنيل معدَّلة وراثياً


www.ontariocorn.org/magazine/Issues/2006

الزراعة المعدلة وراثياً لم تفِ بكل وعودها

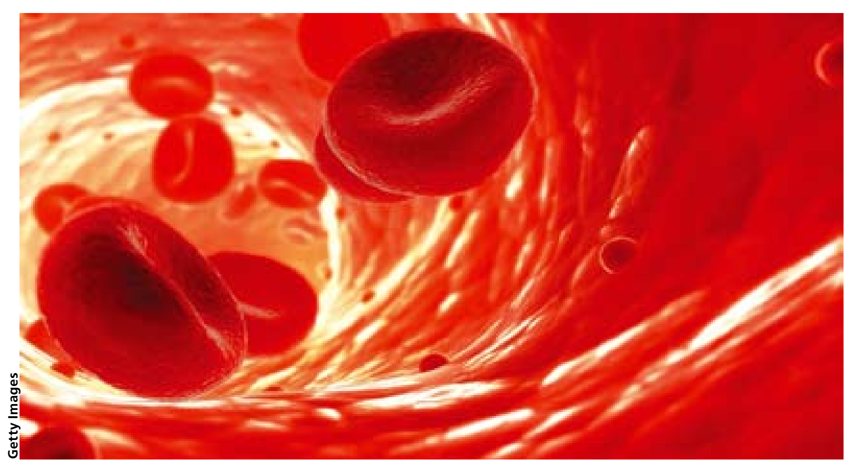
للتجاعيد، والرذاذ المزيل للأوساخ، ما هو إلا مقدمة تبشر بقرب مجيئ الطعام النانو. إذ سيطرح في الأسواق قريباً (2009 أو 2010م) نوع من ورق التغليف تم إنتاجه بالنانوتكنولوجي، وسيكون له مردوده الواضح في تطوير صناعة المأكولات المعبَّأة، التي سيتزايد الإقبال عليها مستقبلاً. وفي مجال التعبئة والتغليف أيضاً، أنتجت خطوط النانوتكنولوجي في شركة «هوني ديل» مادة بلاستيكية لتعبئة الطعام تحتفظ به طازجاً لمدة أطول، وذلك لأنها لا تسمح لجزيئات الأكسجين بأن تخترقها فتفسد المعبأ بها من طعام. أما شركة «أسبن أيروجيلز»، فقد أنتجت مادة جديدة باستخدام هذه التكنولوجيا العصرية، لها قدرة على العزل الحراري تساوي ثمانية أضعاف قدرة أفضل مواد العزل المستخدمة حالياً في حماية المأكولات من تأثير الحرارة عليها، فتصل إلى المستهلك وهي في أفضل حالاتها. وأما خبراء النانو تكنولوجي في شركة «أويل فريش»، فقد طوروا مادة سيراميكية لها خاصية قوية مضادة للأكسدة، وصنعوا منها أداة صغيرة يمكن وضعها في وعاء قلي الطعام، فتعطي الفوائد التالية: تقلل زمن القلي، وبالتالي توفر من كمية الوقود المستخدم في إعداد الطعام، وتحتفظ بزيت القلي صالحاً للاستخدام لمدة أطول، وتتيح استخدام نفس الكمية من الزيت في قلي أنواع مختلفة من الطعام (لحوم وأسماك، مثلاً) دون أن يتأثر مذاق أي منهما بالآخر. وسوف تزود السلع مستقبلاً ببطاقات تعريف صغيرة، مسجل عليها -باستخدام ترددات موجات الراديو- معلومات مختصرة عن المسار الذي اتخذته السلعة منذ إنتاجها حتى وصولها إلى يد المستهلك؛ وبواسطة جهاز تحسس دقيق مصنوع بوسائل نانوتكنولوجية، تتاح هذه المعلومات للمستهلك قبل أن يضيف السلعة إلى سلة المشتريات، فيعرف من أية مزرعة جاءت شريحة اللحم التي اشتراها، بل من أي قطيع من المواشي، وهل أعطيت البقرة التي أخذت منها الشريحة مضادات حيوية أو هورمونات أثناء تربيتها، أم لا؛ ومعلومات أخرى عن كيفية الذبح، والزمن الذي استغرقته الشريحة لتصل إلى أرفف السوق، وأساليب نقلها وحفظها .. إلخ.

والجدير بالذكر أن هذه البطاقات تستخدم الآن، فعلاً، في اليابان؛ والمتوقع أن تعمل النانو تكنولوجي على تصغير حجم البطاقة وتحسين خواص استخدامها وتخفيض ثمنها، كما سيكون بمقدورها الكشف عن سلامة السلعة الغذائية وخلوها من الميكروبات، كالأميبا والسالمونيللا.

وسيكون للنانوتكنولوجي شأن في إنتاج الطعام نفسه، وليس مواد التغليف والتعبئة فقط، بل إن التوقعات تقول إن صناعات المأكولات التي لن تعتمد على النانوتكنولوجي لن يكتب لها النجاح، ولن يقبل الناس على منتجاتها. وبحلول عام 2015م، ستغير النانوتكنولوجي أنظمة إنتاج الطعام التقليدية على النحو الذي يجعل المنتجات رخيصة الثمن وآمنة، ويطيل زمن صلاحيتها للاستهلاك، ويقلل من كلفة الإنتاج بنسب تتراوح بين 40 و 60 بالمائة. والمعروف أن النانوتكنولوجي تتدخل، حالياً، في إنتاج بعض المواد المضافة إلى الأطعمة، مثل الفيتامينات والمعادن ومكسبات النكهة، إضافةً إلى 180 من التطبيقات المستحدثة يجرى العمل على الخطوات النهائية لها، قبل أن تدخل مجال إنتاج الأغذية. ويقدر إجمالي الأموال المستثمرة في قطاع إنتاج النانوطعام، بالوقت الراهن، بحوالي 7 مليارات دولار؛ وينتظر لهذا الرقم أن يقفز إلى أكثر من 20 مليار دولار في العام المقبل، حيث سيدخل إلى هذا المجال عدد كبير من الشركات، يتركز معظمها في الولايات المتحدة الأمريكية واليابان والصين.

خدمة التوصيل إلى الخلايا وليس إلى المنازل

إننا نعرف الآن نظام توصيل الطلبات إلى المنازل. غير أن الطلبات من أنواع الغذاء المختلفة سوف توصل في المستقبل إلى الخلايا .. خلايا أنسجة الجسم البشري، مباشرة. إن خلاصات الأطعمة الاعتيادية التي نتناولها تصل إلى الخلايا، بعد أن تمضغ في الفم، وتهضم في المعدة، وتمتص في الأمعاء، ليحملها الدم إلى الخلايا. أما أنواع «الطعام النانو» فستكون عبارة عن جزيئات، وستتولى إيصالها إلى الخلايا مرْكِبات توصيل، عبارة عن جزيئات مختلفة من مُركَّبات



الكريات الحمراء في داخل الشرايين

ذات خواص طبيعية وكيماوية تمكنها من حمل الطلبات من غذاء أو دواء، وتتحرك بها متوجهة إلى خلايا محددة في نسيج الجسم البشري، حيث تحرر أحمالها لتستفيد بها تلك الخلايا، دون غيرها، ليتحقق الغرض الغذائي أو العلاجي.

وتجد النانو تكنولوجي مناصرين كثر يعتقدون أن توسعات في تطبيقات النانو تكنولوجي في مجال الطعام قادمة ولا ريب، وأن المسألة مسألة وقت، ولن يستطيع أحد أن يوقف تقدمها. وقد يكون تقدمها حالياً بطيئاً نسبياً، لأن الناس لا يزالون مرتبطين بشدة بما اعتادوا عليه من طعام وثقافات غذائية ترسخت على مدى أجيال عديدة. ويمكن أن نضيف سببا آخر، وهو أن الكثيرين لا يفهمون معنى النانو تكنولوجي، لأن أسسها العلمية تستعصي على غير المتخصصين، لذلك فهم يتعاملون معها بحذر. وتتشارك الحكومات وشركات الأغذية ومجموعات الباحثين في بذل جهود ضخمة لنشر الوعي بفوائد النانوتكنولوجي في كل المجالات، وفي مجال الطعام على نحو خاص.

ماذا ستكون ردود أفعال المستهلكين تجاه النانو طعام؟. هل سيثار حولها الجدلُ وتطلق عليها سهام التشكك، كما حدث مع منتجات التكنولوجيا الحيوية النباتية والحيوانية؟.

يقول الخبراء إن علينا أن نستفيد من درس المنتجات المعدلة وراثياً، ونخاطب الرأي العام، فيما يخص النانوطعام، بأسلوب مختلف؛ فلا يزال الرأي العام -على مستوى العالم- يتعامل مع التكنولوجيات المستحدثة بحذر، وربما يبدأ متشككا بها، إلى أن يتأكد من أنها آمنة، فتزول تحفظاته. ويقترح هؤلاء الخبراء أن تقوم مؤسسات المجتمع المدني بالدور الأساسي في تقديم منتجات النانوطعام للناس، وألاّ يتدخل العلماء بأحاديثهم التي يصعب على المواطن العادي استيعابها، فلا يتعاطف معها؛ خاصة وأن الشروحات العلمية لفكرة النانو طعام ليست (سهلة الهضم)، وقد تستعصي على من لا يملكون خلفية معلوماتية من علوم الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا.

ليس معنى هذا أن المشككين مخطئون على طول الخط. فلا تزال تكنولوجيا إنتاج النانوطعام في أطوارها الأولى؛ وقد تكون ثمة تأثيرات جانبية لمنتجاتها من الأغذية المستحدثة، بل إنها قد تحمل في طياتها، أو قد يترتب على استهلاكها، مواد ضارة تعجز وسائل الكشف والتحليل المعروفة حالياً عن رصدها، فهي مصممة للتعامل مع المواد في مركباتها الأكبر حجماً من الـ (نانو). من هنا، ننتظر من العلماء أن يسعوا إلى التوصل إلى أجهزة مخبرية حديثة، مناسبة لإجراء اختبارات التأكد من أمان منتجات النانوطعام وصلاحيتها للاستهلاك الآدمي. وإلى أن تظهر تلك الأجهزة، ستظل تلك المنتجات تخضع لفحوصات مدققة وتجارب عديدة تستغرق وقتاً طويلاً، قبل الاطمئنان إليها من قبل الإدارات الصحية ومنحها شهادات الصلاحية، لنجدها على الأرفف في أسواقنا.

تكنولوجيا الفضاء

وسوف يكون لتكنولوجيا الفضاء تأثيرها على صورة ما سيأكله البشر في المستقبل، بل إن هذا التأثير قد بدأ فعلاً في التحقق منذ عدة سنوات، والمنتظر أن يتزايد في السنوات القادمة. وبصفة عامة، فقد كان لأبحاث الفضاء مردوداتها التي أدت إلى تطوير الكثير من شئون الحياة على الأرض، كوسائل الاتصال، والملبس، والطعام. ويرى بعض المراقبين أن البشر العاديين سيعرفون في المستقبل صندوق غداءً شبيهاً في محتوياته بأنواع الطعام التي يتناولونها رواد الفضاء في رحلاتهم الطويلة بالفضاء الخارجي، كما قدَّمها لنا المخرج الأمريكي ستانلي كوبريك في فلمه (أوديسا الفضاء – 2001)، حيث رأينا رواد الفضاء يتناولون عشاءً تم إعداده في مطبخ سفينة الفضاء دسكفري، عبارة عن حساء غليظ القوام، يصعب تناوله بالملاعق. والحقيقة هي أن محاولات التوصل إلى أفضل صورة لطعام رواد الفضاء قد بدأت منذ زمن بعيد، ومن أغرب هذه المحاولات تجربة لتخليق وجبة غذائية متكاملة من المكونات الأساسية، في صورتها الكيميائية النقية. وقد تم تجريب هذه الوجبة الكيماوية، فعلاً، في منتصف الستينيات من القرن الماضي، حيث تطوع 24 رجلاً ليعيشوا 19 أسبوعاً من دون أن يتناولوا غير وجبات منتظمة مكونة من محاليل تحتوي على 49 من الأملاح والمركبات الكيماوية. وقد تمكن عشرون من هؤلاء الرجال من إنهاء التجربة بنجاح، وأثبت الفحص الطبي أنهم كانوا في كامل صحتهم، بعد أن عاشوا ما يقرب من خمسة أشهر على هذا الغذاء الصناعي، الذي لم يتم إعداده في المطبخ، وإنما في المختبر الكيميائي.

مطبخ المستقبل

ويهمنا، ونحن بصدد الحديث عن الطعام في المستقبل، وهو أمر يهم -في جانب كبير منه- ربات البيوت، أن

نبشرهن بأن أعمال المطبخ لن ترهقهن مستقبلاً، بل ربما تختفي المطابخ من البيوت!. هل تتذكرون المشاهد الهزلية في بعض الأفلام المصرية، حيث تظهر الموظفة جالسة إلى مكتبها وهي تقوم بتجهيز كمية من الخضراوات.. سيحدث ذلك في المستقبل، مع الفارق الذي تحدده الإمكانات التكنولوجية. إذ سيكون من الأمور المعتادة أن تتابع سيدة المنزل ما تعده من وجبات وهي موجودة في مقر عملها.. فهي قد غادرت منزلها وقد تركت وجبة اللازانيا الشهية في فرن المطبخ المتصل إلكترونياً بتلفونها المحمول بحيث يتاح لها أن تراقب الوقت اللازم لنضج اللازانيا، فلا تلبث أن تطفئ الفرن باستخدام التلفون، كأنها تجري مكالمة عادية مع جارة لها، وتكمل يوم عملها وهي مطمئنة إلى أن أفراد أسرتها سيجدون الوجبة جاهزة عندما يتحلقون حول مائدة الغداء أو العشاء.

الاتجاهات تشير إلى تقدم العمل بمبدأ «سخِّن وكُل»، واختصار الوقت المخصص للطبخ وتناول الطعام

وبمرور الزمن، لن تحتاج الأسرة إلى المطبخ كثيراً؛ ولن تقضي ربة البيت في المطبخ أوقاتاً طويلة، وسوف تنتهي شكاويهن من الوقت الذي يقضينه في إعداد الوجبات للأسرة. إذ سيشيع نظام «سخن وكل». وثمة فكرة جديدة يجري تطويرها الآن، حيث تزود علبة الطعام بقسم معزول عن محتوياتها، مملوء بالجير المطفأ. ولن يكون على مستخدم هذه العلبة إلا أن يفتح هذا القسم، ويضيف قليلاً من الماء إلى الجير، فيحدث تفاعل كيميائي من النوع المعروف بمولد الحرارة، تكفي كمية الحرارة الناتجة عنه لتسخين الطعام داخل العلبة. ولن يتحقق النجاح إلا للأسواق التي تتوافر بها الوجبات سابقة التجهيز، والتي تسهِّل الأمر على زبائنها فتوصل لهم هذه الوجبات إلى منازلهم في عبوات محكمة تحمي الطعام من الفساد. وسوف تختفي من أحاديث المائدة كلمة «بيتي» التي يستخدمها أهل البيت لتشجيع الضيوف على تجريب نوع بعينه من الطعام تم إعداده في مطبخ البيت ولم يأت من الخارج. والمتوقع أيضاً أن يختصر الوقت المخصص لتناول الطعام، إذ سيصبح تناول الطعام بتمهل عادة من عادات الماضي الغريبة على العصر، وستساعد طبيعة الأطعمة المستقبلية على أن يسود نظام «الأكل على عجل». وسوف يقل الاعتماد على الأغذية المحفوظة بالتجميد، ويزيد على الأنواع التي يمكن التقاطها من فوق أرفف الأسواق وفتحها بسهولة وتسخينها بسرعة، لتؤكل على عجل. لذلك، فإن أفران الميكروويف ستكون في كل بيت، بل إنها ستحتل مكاناً في سيارات الركوب، وقد بدأ ذلك يتحقق فعلاً في بعض إنتاج شركة فورد. ففي عام 2001م كان ربع عدد السيارات الأمريكية الخاصة يحتوي على فرن ميكروويف.

إنها مجرد محاولة لاستشراف المستقبل، قد لا يصح لاحقاً بعض جوانبها. ولكن قد يحمل المستقبل من التحولات ما يتجاوز كل تقدم. ألم يفعل المستقبل ذلك أكثر من مرة في الماضي؟



سخِّن فقط.. وكُل!

commons.wikimedia.org/wiki/File:ISSSpaceFoodsAssortment

1 الكمبيوتر خبير في الفن

يمكن للتكنولوجيا أن تقدِّم الكثير للفن.. ليس الفن المعاصر فقط، ولكن لفن الماضي أيضاً. حيث يعمل الباحثون بجامعة بنسلفينيا الأمريكية على تصميم نظام إلكتروني يحفظ بصمة مميزة لكل فنان، يمكننا أن نطلق عليها اسم «بصمة ضربات الفرشاة»، بحيث يستطيع أن يحكم على صحة نسبة لوحة معينة ليد فنان معروف، وما إذا كانت حقيقية أم أنها زائفة أو نسخة مقلدة.

وقد اختار الفريق 23 لوحة معروفة تأكدت نسبتها للفنان الهولندي فان جوخ، وتمثل مراحل متعددة من حياته، تم استخدامها عبر نظام تحليل الصور لتحليل وتسجيل الخصائص المميزة لضربات فرشاة صاحبها. ثم قام الفريق بعد ذلك ببناء نموذج حسابي يمثل البصمة «الفان – جوخية»، والتي يمكن أن يتم اختبار اللوحات على أساسها. وقد أثبت هذا النموذج نجاحاً مشجعاً، فحين عرضت عليه مجموعة من لوحات فان جوخ غير تلك التي استخدمت في إعداده، تعرَّف إليها إيجابياً وأكد نسبتها لصاحبها، وفي نفس الوقت أصدر حكماً سلبياً على لوحة «البحر في سانت ماري» والتي تُعد واحدة من أشهر اللوحات المزيفة التي نسبت لفان جوخ، قبل أن يكتشف الخبراء حقيقتها.



files.myopera.com/ste-ven/albums/7586401/vangogh3

وإذا كانت العين البشرية الخبيرة هي الحَكَم الذي لا يمكن الاستغناء عنه في هذا المجال، إلا أنها ربما تحتاج أحياناً، وقبل أن تصدر حكمها، للاستعانة برأي آخر حيادي وموضوعي. وأي رأي يمكن أن يكون أكثر حياداً وموضوعية من رأي جهاز الكمبيوتر؟

2 العصب الزندي في خطر

هل لاحظت مؤخراً شعوراً بالألم أو الخدر في إصبعي الخصر والبنصر أثناء الحديث في هاتفك الجوال؟

إذن ربما تكون قد ألحقت بعض الضرر بالعصب الزندي الذي يمر خلال الذراع، ويغذي هذين الإصبعين ويمدهما بالإحساس. فعلى الرغم من المرونة التي تتمتع بها الأعصاب والتي تسمح لها بأن تنثني وتتمدد لتلائم مجالات الحركة الواسعة لأجسامنا، إلا أن تعرض أحدها للضغط المستمر لمدة طويلة، يمكن أن يتسبب في إيذائه وإصابته بالالتهاب. والألم الذي نحس به في الإصبعين اللذين يغذيهما العصب الزندي هو طريقته في إخبارنا بأنه يتعرض للأذى.

وينصح الأطباء عند الشعور بهذه الأعراض، أن ينقل المتحدث هاتفه إلى اليد الأخرى، ويبقى ذراعه المتضرر مستقيماً إلى جانبه لبعض الوقت. كما أن استخدام السماعات في الحديث، يمثل حلاً فعالاً لهذه المشكلة. وبخلاف الحديث الطويل في الهاتف الجوال، ينبه الأطباء إلى ضرورة تجنب الأوضاع التي يبقى فيها مفصل الكوع لمدة طويلة منثنياً لأقل من 90 درجة، وأكثرها شيوعاً استخدام لوحة المفاتيح للكتابة على الكمبيوتر حين يكون مستواها أعلى من المستوى الطبيعي للمرفق، أو الجلوس في وضع «المفكر» الذي يستند برأسه على أحد كفيه. وحتى في أثناء النوم، إذ يجب أن يحذر الناس النوم متوسدين أذرعتهم المنثنية.



أرشيف المحترف السعودي

3 من حسنات التراجع إلى الخلف!

حين تواجهنا مشكلة ما، ينصحنا العلماء بأن نتوقف، ونعود خطوات للوراء، ثم نعاود التفكير في الأمر.. بالمعنى الحرفي للجملة!

فقد قام فريق من الباحثين بجامعة رادبود الهولندية بإجراء تجربة تختبر وجهاً جديداً من أوجه الارتباط والتأثير بين الحالتين الجسدية والعقلية للإنسان. فقاموا بتقسيم مجموعة من المتطوعين إلى قسمين: الأول يقوم أفراده



lawnchairguy.files.wordpress.com

بالمشي لمسافة معينة قدرها بضعة خطوات إلى الأمام، أما الثاني فيقوم أفراده بمشي نفس عدد الخطوات ولكن إلى الخلف. قامت المجموعتان بعد ذلك بأداء اختبار يعرف باسم «اختبار ستروب» وفيه تعرض مجموعة من الكلمات تحمل أسماء بعض الألوان، لكنها مكتوبة بلون حبر مختلف. فمثلاً تكون كلمة «أحمر» مكتوبة باللون الأزرق وهكذا. وعلى من يؤدي الاختبار أن يقوم في وقت قصير للغاية بتسمية لون الكلمة بدلاً من قراءتها. ولما كان الأمر يتطلب قدراً كبيراً من التحكم ومن التركيز والانتباه، فإن النتائج السريعة والدقيقة في هذا الاختبار تُعد دليلاً على الأداء العقلي المرتفع.

كانت نتيجة التجربة مثيرة للاهتمام. فقد سجل المتطوعون الذين قاموا بالمشي إلى الخلف نتائج مرتفعة عن هؤلاء الذين مشوا للأمام. ويفسر الباحثون هذا الأمر بالعلاقة التي حُفرَت في خلايانا العصبية بين التراجع للخلف، وتحفيز العملَيات العقلية. فقد ارتبط الخطو للخلف في عقلنا بمواجهة الخطر أو الأشياء المجهولة أو الغريبة وهو الأمر الذي يرفع مستويات التركيز والانتباه لأقصى درجاتها، ويثير حالة عامة من حدة الأداء العقلي وحساسيته، بما أننا نعتمد عليه في الأساس لنخرج من هذا الموقف غير المريح. على عكس المشي للأمام الذي لا نقدم عليه إلا في حالات الأمن، والثقة في تحكمنا بالأمور وفي أنها تجري كما هو متوقع، الأمر الذي تترجمه أنظمتنا إلى درجة أعلى من الاسترخاء العقلي.

4 الشمس والمناعة

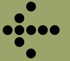
تبيَّن لعالِم الحيوان وجامع الزواحف والبرمائيات في حديقة حيوان برونكس، في مدينة نيويورك الأمريكية لورين أوغستين، أن الزواحف والبرمائيات حين تصاب بمرض ما، تزيد مكوثها تحت أشعة الشمس، من أجل تعزيز مناعتها ومقاومة المرض.

أما تفسير أوغستين، فهو يستند إلى تصنيف بيولوجي، يضع البشر والحيوان عموماً، في صنفين، من حيث اكتساب أجسامهم حرارتها وحفظها هذه الحرارة مستقرة على درجات معينة. ذلك أن العلماء اليوم ما عادوا يصنِّفون الحيوانات: ذات دم بارد وذات دم حار، بل اعتمدوا تصنيفاً أدق من الناحية العلمية، هو: حيوانات داخلية الحرارة (endothermic) وحيوانات خارجية الحرارة (ectothermic). ويوضح هذا التصنيف الجديد مصدر الحرارة المباشر.

فالثدييات، ومنها البشر، وكذلك الطير، داخلية الحرارة، إذ يتَّصف تركيبها الجسدي بنظام بيولوجي معقد، يضبط الحرارة عند مستوى ثابت نسبياً، فتستقر حرارة الإنسان السليم عند 37 درجة مئوية تقريباً (98.6 درجات فارنهايت). أما الزواحف والبرمائيات والأسماك على أنواعها، فتستمد حرارة أجسامها من خارج. وهي تتشمس لتزيد حرارتها، وتستظل لتخففها. وفيما يزيد الجسم البشري وأجسام الثدييات عموماً حرارته تلقائياً عند المرض، من أجل تعزيز المناعة ومقاومة الجراثيم، يتعذر هذا على الزواحف والبرمائيات، ولذا تجدها تسعى في رفع حرارة أجسامها، بطلب مزيد من أشعة الشمس.



www.naturephoto.nl/beeldbank/zandhagedis-1



يمثل سوء استخدام الدواء والاستهتار به، القضية الأخطر من جملة القضايا التي يثيرها الدواء على كافة الصعد، بدءاً من صناعته وترويجه التجاري وصولاً إلى آثاره الجانبية بعد الانتهاء من استخدامه. **سليم العبدالله*** يتوقف هنا أمام النتائج المخيفة للاستهتار في استخدام الأدوية، والتي ما كانت لتظهر لو أن النصائح البسيطة حتى السذاجة الواردة على تلك الورقة المرفقة بكل دواء داخل علبته وجدت أذناً صاغية من المستهلك.

الدواء..

الخطر أكبر مما يبدو على العلبة الصغيرة



الذين دخلوا صالة السينما في بريطانيا بعد شهر مارس من العام الجاري، لا بد وأن يكونوا قد شاهدوا إعلاناً يبعث على الصدمة محذراً من شراء الأدوية من خلال المواقع غير القانونية على الإنترنت.

ويظهر في الإعلان رجل يسعل فوق فأر ميت. وسبب السعال وموت الفأر هو استهلاك الرجل لدواء يباع عبر الإنترنت ويتضمن سماً للفئران.. وكم سم اكتشف وجوده فعلاً في أدوية مباعة بواسطة الشبكة. ففي بريطانيا وحدها، تشير تقديرات المسؤولين الحكوميين عن شؤون الصحة، إلى أن نحو 330,000 شخصاً يشترون سنوياً أدوية عبر الإنترنت. والمخيف في الأمر أن المصادر نفسها تقول إن ما بين 50 و90 بالمئة من هذه الأدوية هو إما مزيف أو مقلّد. وبذلك، تكون التجارة الإلكترونية قد أضافت إلى القضايا العديدة التي يثيرها الدواء قضية جديدة تندرج تحت عنوان القضية الأم «الاستهتار بالدواء».

الاستهتار يتزايد.. لماذا؟

تؤكد الأرقام (سنأتي على ذكر بعضها لاحقاً) أن الاستهتار باستخدام الدواء في تزايد مستمر. ومن العوامل التي تدفع في هذا الاتجاه يمكننا أن نذكر ما يأتي:

أولاً: انتشار «الوعي» (نعم، وياللمفارقة)، لأهمية استشارة الطبيب عند الإحساس بعوارض أية مشكلة صحية، وازدياد إمكانات دفع بدل الاستشارة الطبية في الدول النامية. بحيث بات في معظم البيوت، إن لم نقل كلها «صيدلية خاصة» تتضمن بعض الأدوية المستعملة، وما تبقى من أدوية استخدمت سابقاً، لعل الحاجة إليها قد تظهر مجدداً.

ثانياً: الترويج الإعلامي لمنجزات الصيدلة، والقدرات العلاجية لهذا الدواء أو ذاك، الأمر الذي يعطي صورة مشرقة للدواء تطغى على ما قد يحمله من عوارض جانبية، والحذر المتوجب في استخدامه.

ثالثاً: الألفة المتزايدة ما بين الإنسان والدواء، والتي تحمل الإنسان إلى الاطمئنان أكثر فأكثر إلى الدواء، خاصة إذا كان قد تناوله سابقاً من دون مواجهة أية مشكلات.

أدى كل ذلك إلى تعزيز الصورة «السلمية» للدواء على حساب حقيقة مكوناته التي هي أولاً وأخيراً مجموعة مواد كيميائية غريبة عن الجسم، يفترض فيها أن تؤدي وظيفة محددة بدقة وحذر.. والاطمئنان المفرط إلى هذه الصورة المشرقة للدواء، هو ما يجعل الكثيرين يتعاملون مع الإرشادات المرافقة وكأنها كليشيهات مكررة، موجهة إلى البسطاء الذين يشترون دواءً للمرة الأولى، مثل التحذير من عدم تجاوز الجرعة التي وصفها الطبيب، أو عدم ترك الدواء في متناول الأطفال.



الإرشادات ليست للبسطاء

عندما يدور الحديث عن سوء استخدام الدواء، فغالباً ما تتجه الأنظار إلى العالم الثالث حيث تنتشر الأمية، ويُفتقد الوعي. ولمثل هذا الاتجاه ما يبرره. فبحسب رئيس «الجمعية الصيدلانية في غانا» الدكتور ألكس دودو مؤلف كتاب «الدواء واستخدامه الآمن»، فإن عشرة في المئة من الذين يتناولون الدواء الصحيح ولكن بجرعات غير ملائمة، أو في وقت غير ملائم، يموتون.

* صيدلي مقيم في جدة



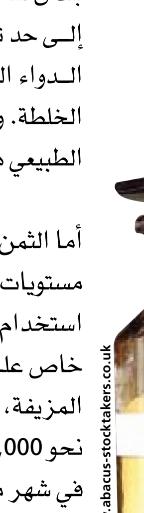
ولكن، ما يقال عن غانا الإفريقية ينطبق أيضاً على الولايات المتحدة الأمريكية. ولنا في قصة موت الممثل الشهير كيث ليدجر قبل بضعة أشهر مثلاً شهيراً على ذلك. فقد توفي الممثل الشاب نتيجة جرعة زائدة من دواء موصوف له من قبل الطبيب..!؟

وفي أمريكا أيضاً، تشير أرقام «الوكالة الفدرالية للأدوية» أن نحو تسعة آلاف ولد وطفل يُنقلون سنوياً إلى أقسام الطوارئ في المستشفيات لأنهم تناولوا جرعات زائدة من الدواء المسكن للسعال فقط، بعدما ترك ذووهم هذا الدواء على مقربة من أسرّتهم. وترتفع الأرقام بشكل فلكي فيما يتعلق بالأدوية المسكنة للآلام، لتصل إلى مئات الآلاف ممن يعانون سنوياً من اضطرابات صحية متفاوتة الخطورة بسبب إفراطهم في تناول هذه المسكنات، وتحديد جرعاتها بأنفسهم.. فهل تبدو النصيحة على ورقة الإرشادات «بعدم ترك الدواء في متناول الأطفال» أو «لاتتجاوز الجرعة التي يصفها الطبيب» ساذجة أو موجهة إلى الساذجين أم تحذيراً من خطر حقيقي؟

من أين يبدأ الاستهتار؟

قد يكون من التجني حصر الاتهام بالاستهتار باستخدام الدواء في فئة المرضى والمستهلكين. ففي تقرير نشرته وكالة «رويترز» خلال شهر مايو الماضي، جاء أن سيدة إندونيسية حملت ابنتها البالغة من العمر سنوات سبع إلى طبيب في جاكرتا لمعاينة ارتفاع حرارتها والألم في حلقها. فكان أن وصف الطبيب للطفلة سبعة أدوية مختلفة، تتضمن مضادات حيوية، ومضادات للنوبات التشنجية!!؟ وقد أوردت الوكالة هذه الحالة في مقدمة تقريرها حول الأطباء الذين يفرطون في وصف الأدوية لمرضاهم، بدافع جني أرباح مالية من الشركات المصنعة والصيادلة. وجاء في التقرير أن هذه الممارسة اللا أخلاقية شائعة في شرق آسيا من إندونيسيا إلى هونغ كونغ بحيث بات الخبراء يحذرون من عواقبها الكارثية التي قد تطال أكثر من بيئتها المحلية.

الدواء الشافي.. قد يكون أيضاً سماً



وأين يمكن أن ينتهي الاستهتار؟

يضرب الخبراء الذين تحدثوا إلى رويترز مثلاً العقار «أوزيلتاميفير»، الذي صُنع سابقاً لمكافحة أنفلونزا الطيور، وأثبت الباحثون في أمريكا أنه غير فعال بنسبة 98 بالمئة في مكافحة الأنفلونزا المتفشية حالياً (H1N1) المعروفة شعبياً باسم أنفلونزا الخنازير. ومع ذلك، فثمة إفراط في وصفه واستخدامه حالياً وخاصة في شرق آسيا لمكافحة الأنفلونزا الجديدة. فإضافة إلى آثاره الجانبية، تكمن العاقبة الكبيرة في أن هذا الإفراط سيؤدي في وقت ليس ببعيد إلى تقوية مناعة فيروسات إنفلونزا الطيور وعودتها إلى الانتشار كوباء عالمي.

الوعي الجزئي أخطر من الجهل

من جهة أخرى (من الجهات العديدة)، أدى التحذير من مخاطر الأدوية على الصحة إلى انتشار وعي جزئي، أو غير مكتمل لهذه القضية في صفوف الملايين أينما كان في العالم. ولكن مرة أخرى، اتكل هؤلاء على «ثقافتهم» الذاتية لإيجاد الحل. فتوجهوا صوب طب الأعشاب، اعتقاداً منهم أن الأعشاب الطبيعية لا تحمل مخاطر الأدوية المصنعة في المختبرات. ولكن فات هؤلاء أن 90 بالمئة من مركبات الأدوية الصناعية مستخرجة من النباتات والأعشاب، حسبما تؤكد كل مصادر الشركات العالمية الجديرة بالثقة. كما فات هؤلاء أن الأعشاب الطبية قد تكون خطرة وسامة، إذا ما أسيء استخدامها. فنبات الجنسنغ مثلاً يحتوي على مواد يؤدي استهلاكها لبعض الوقت إلى التسبب بارتفاع دائم في ضغط الدم.. وإلى ذلك، وما هو أخطر من سمية بعض النباتات الطبية، هو أن الإقبال الكبير عليها، نشط عمل العصابات في صناعتها. ففي بعض بلدان شرق آسيا مثلاً، وصل بعض صناع «الأدوية الطبيعية» إلى حد تجفيف أي نوع من الأعشاب وسحقه وخلطه ببعض الدواء الصناعي المسحوق، بحيث تختفي معالمه ضمن الخلطة. وعند تناول المريض لهذا «الدواء» يتوهم أن النبات الطبيعي هو سبب شفائه (هذا إذا شفي).

أما الثمن.. فرفع عدد ضحايا سوء استخدام الدواء إلى مستويات لم يصلها من قبل. ففي الصين، وإضافة إلى سوء استخدام الأدوية الحديثة، يؤدي اعتماد سكان الأرياف بشكل خاص على الأدوية التقليدية، ووقوعهم في قبضة الأدوية المزيفة، إلى رفع العدد الإجمالي لضحايا الدواء سنوياً إلى نحو 200,000 قتيل سنوياً استناداً إلى تقرير وكالة رويترز في شهر مايو الماضي. وهو رقم يفوق عدد الضحايا السنوي لقتلى كل الحروب الدائرة في العالم.

قصة ابتكار

مغلفات السكر الصغيرة

قصة بعد قصة ومرة بعد مرة يثبت التاريخ أن الفكرة زئبقية متمردة لا تخضع إلا لمن أحسن ترويضها. وفكرة «مغلفات السكر» هي قصة أخرى من هذه القصص.

كان بنجامين ايزنستاد، الشاب المولود في ديسمبر من العام 1906م، يعمل في كافتيريا صغيرة في أحد أزقة بروكلين في نيويورك. الشاب المتململ ضاق ذرعاً بمهمة تعبئة أواني السكر (السكريات) على طاولات الكافتيريا كل يوم، لكنه وضع ضيقه جانباً ومضى في عمله، حتى إذا أفلست الكافتيريا انتقل إلى مصنع صغير لتغليف عبوات الشاي.

وفي المصنع، فكر ايزنستاد في أن يستفيد من الآلة التي تقوم بتغليف عبوات الشاي في التخلص من همه القديم بتعبئة السكريات، وذلك عبر تغليف السكر بدلاً من الشاي. أتى بكيس من السكر، وفكر ما هي الكمية التي ينبغي عليه أن يدرجها في كل عبوة، وأتت له الفكرة طائعة: مقدار ملعقة شاي واحدة من السكر. وبالفعل، نجحت الفكرة من المحاولات الأولى. إذ حمل نماذجاً من عبواته وطاف بها على مديري شركات إنتاج السكر الكبرى، فلاقت الفكرة قبولاً سريعاً وتم تطبيقها مباشرة. إلا أن ايزنستاد في عجلته نسي أمراً جوهرياً، فلم يسجل براءة اختراع لفكرته، وبالتالي ضاعت حقوقه ولم يأخذ من أرباح الفكرة شيئاً يذكر.

لم يتوقف بنجامين ايزنستاد عند هذا كثيراً، فسرعان ما أتى في العام 1957م بخلطة جديدة للسكرين، المحلي الصناعي الذي كان قبل صيغة ايزنستاد يستخدم بصيغة قطرات سائلة أو على شكل أقراص يصعب تذويبها في السوائل والأطعمة. وأنشأ لتسويق هذا الابتكار شركة لاقت نجاحاً كبيراً في هذا المجال. ورغم أن ايزنستاد قصد بالخلطة الجديدة مطاعم المستشفيات والمؤسسات الصحية، إلا أنه أدرك عندما هلت تباشير نجاحها مدى فائدتها للمستهلك العادي الذي يرغب في تقليل استخدامه للسكر الطبيعي لمرض ما أو لاتباعه نظاماً لإنقاص الوزن.

وتبع هذا النجاح نجاح آخر، عندما قدَّم ايزنستاد صلصة الصويا بنفس فكرة عبوات السكر. وبعد هذا النجاح، اختير كرئيس مجلس الإدارة لإحدى شركات البحث والتطوير في بروكلين حتى وفاته في أبريل عام 1996م.



www.letransit.com/documents/Visuel

ماذا عن عبوات السكر؟

لاتزال اليوم تحتل مكاناً عزيزاً على طاولات المقاهي والمطاعم بدلاً من السكريات القديمة، لأسباب تتعلق بنظافة استخدامها وجرعتها المحدودة بأربعة جرامات في غالبية دول العالم، والتي تساوي 15 سعرة حرارية في العبوة الواحدة، أما في بعض الدول مثل بولندا مثلاً، فإن العبوة الواحدة من مغلفات السكر تحتوي من 5 إلى 15 جراماً من السكر.

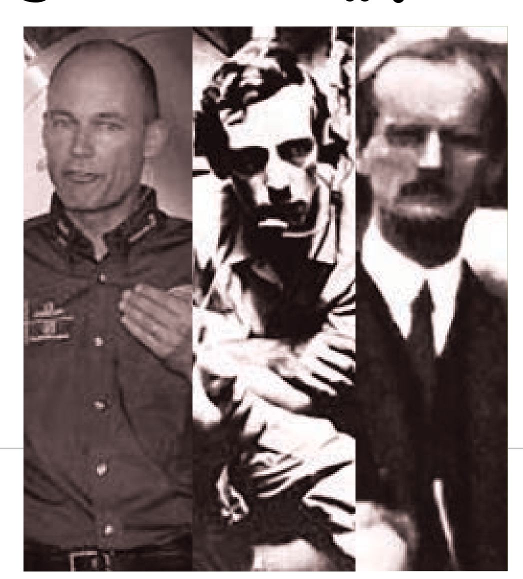
قصة مبتكر

ملحمة اسمها: آل بيـــكـــار

الكل يعلم عن ملاحم العائلات المالكة في التاريخ، أو عن سلالات توارثت العمل المصرفي أو غير ذلك، لكن لم نشهد عائلة بمفردها من قبل تحتكر مقداراً من الشهرة في عالم الاستكشاف والعلوم، مثل عائلة بيكار السويسرية، التي جعلت الاختراع والاستكشاف مهنة ثلاثة أجيال متعاقبة.

يختصر الكاتب جاك لاكاريير هذه الملحمة بقوله: «إن هؤلاء الثلاثة يجسدون أشد مراتب الطموح الإنساني جموحاً». فقد وصلوا إلى أقصى أعالي جو الكرة الأرضية في بالون، وغطسوا إلى أعمق ما أمكن للبشر أن يغطسوا في المحيطات.وأفلحوا في تحويل أغرب أحلامهم وأحلام البشر، إلى حقيقة».

بدأت ملحمة آل بيكار، بالجد أوجست بيكار، وهو فيزيائي سويسري اكتشف أشياءً عديدة، منها معدن اليورانيوم 237. وفي سنة 1931م بلغ في الجو ارتفاع 15781 متراً، بواسطة بالون نفخه بالهليوم، فسجّل رقماً قياسياً لأعلى ارتفاع بلغه بشر في الجو حينذاك. وتمكن بهذا من أن يرى بأم العين أن الكرة الأرضية كرة مستديرة فعلاً، ولم يكن أحد قد سبقه إلى ذلك. وفي سنة 1945م، صنع غواصة أعماق، أشبه بكرة حديد، فيها قمرة يمكن لشخص أن يجلس فيها، وكوى زجاج تمكنه من مشاهدة الأعماق وما فيها. وقد غطس هو وابنه جاك في غواصته الثالثة، واسمها «تريِستا» إلى عمق 3150 متراً، وهو أعمق ما بلغه بشر حتى ذلك الحين.



وتابع جاك فيما بعد عمل والده، بالغطس في البحار لاستكشافها، وفي 23 يناير 1960م، غطس مع الملازم البحار الأمريكي دون والش بالغواصة «تريستا»، إلى أعمق ما بلغه بشر حتى ذلك التاريخ، أي 10916 متراً تحت سطح البحر. ثم مضى يطور غواصات أخرى لأغراض البحث والإنقاذ والترفيه.

لكن الملحمة العائلية لم تنته عنده. فالحفيد برتراند بيكار ورث تقاليد الجيلين السابقين، بشجاعة ورؤى وتميز مدهش. فهو طبيب نفس، لكنه اشتهر بأعماله في عالم الطيران. فعلى متن «برايتلنج أوربتر 3»، صار أول إنسان يطير حول الأرض بلا توقف في بالون مملوء بالغاز. إذ أقلع في أول مارس 1999م، من شاتو دوكس، في سويسرا، ودار حول العالم، وهبط في 21 مارس، في مصر. أما مشروعه الأخير فلا يقل شجاعة عن هذا. فهو يتعاون مع جامعة بوليتكنيك الاتحادية في لوزان، في بناء طائرة «إمبلس»، أول طائرة تعمل بالطاقة الشمسية فقط، وينوي الطيران بها حول العالم بلا توقف، من دون أن يستخدم أي مصدر آخر للطاقة.

وينخرط آل بيكار أيضاً، في أعمال خيرية، فقد أسس برتراند جمعية «نسائم الأمل»، التي تعمل لرعاية الأولاد المهملين والفقراء والمرضى. وهو أيضاً سفير أممي جوال للنوايا الحسنة.

إذا أردت اليوم أن تقارن الدخل القومي الألماني بالدخل القومي في بلدك مثلاً، فعليك أن تفتح محرك البحث في الإنترنت وتضع عبارة «الدخل القومي» مع أسماء البلدان المنشودة.

ويعرض عليك محرك البحث مئات الآلاف أو ملايين المواقع التي وردت فيها هذه العبارات بشكل أو بآخر، تاركاً لك التفتيش عما تبغيه تماماً في أي منها.. لعل وعسى!

«ولفرام ألفا».. ثورة الإنترنت الجديدة

ولكن أما من طريقة أقصر من ذلك، والحصول على الجواب فوراً.

ظل الجواب «لا» حتى جاء ستيفن ولفرام، وهو عالم في الرياضيات وفي مجال التقنية الرقمية، وافتتح في أول شهر مايو الماضي، ما سماه: محرك بحث «ولفرام ألفا». إنها ثورة في عالم الشبكة الدولية الإنترنت، لم تحدث منذ سنوات عشر خصبة، في هذا الحقل، كما يقول الخبراء.

ويرى الباحث السعودي في العلوم الرقمية فاضل التركي، أن لغة برولوغ (Prolog) وغيرها من اللغات التي ظهرت في القرن الماضي في توجه مختلف عن توجه البرمجة الشائعة مثل لغتي سي وجافا، كانت تتعامل مع معارف يقدمها المبرمج ثم يطرح الأسئلة وتأتيه الإجابة مبنية على هذه المعارف المعطاة، وتبقى محدودة المجال المعرفي والتجربة والتطبيق.

في الثمانينيات كانت هناك محاولة سابقة لتقنية اسمها (Cyc) كان يعمل لها دوغلاس لينات. ولكن لم يكتب لها النجاح واليوم دوغلاس هو من الصف الأول من الذين دُعوا إلى اختبار التقنية الجديدة «ألفا».

الجديد في التقنية «ألفا»، أن «ماثيماتيكا» (رياضيات)، وهي النظام الذي عمل في تطويره ستيفن ولفرام منذ سنوات طويلة، استخدمت الرياضيات، التي تصنف المعلومات بطريقة ذكية، ثم تربط بينها وتخرج النتائج حسب سؤال المستخدم.

نظام «ولفرام ألفا» يستقبل سؤال المتصفح، فيربط ويحسب العلاقات بين مكونات السؤال ويستخرج له المعلومات المناسبة جواباً، من كل الإرث المعرفي الإنساني الموجود على شبكة الإنترنت.

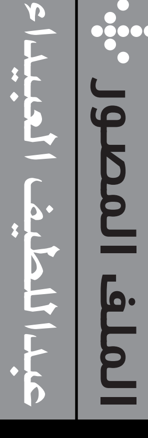
لم يطلق نظام «ألفا» حتى وقت كتابة هذه السطور، ولكنه سيكون حدثاً مدوياً في عالم الإنترنت.

ويقول التركي، إنه حضر محاضرة لشركة «ماثيماتيكا» عُرضت فيها بعض إمكانات النظام الجديد، ضمن «ماثيماتيكا» دون الإشارة إلى هذا المحرك. واستُعرضت ملخصات ونتائج ورسوم بيانية تربط معلومات معقدة عن الإحصاءات الصحية والسكانية والطقس وأموراً لا تنتهي. لكن التركي يسأل عن مدى قدرة «ألفا» على استيعاب حجم التشغيل، عندما يكون مصدر المعلومات هو صفحات الإنترنت كلها، لا قواعد البيانات والمعلومات التي تصنفها وترتبط بها آلة ماثيماتيكا، وعن طبيعة استخدامها للمستخدم العام.

يقول لينات في تعقيبه على «ألفا»: «إنه يعالج طيفاً أوسع بكثير من الطيف الذي يعالجه (Cyc)، لكن أضيق من ذلك الذي يعالجه جوجل. وهو يفهم بعض ما يعرضه من أجوبة، لكن بعضه فقط (...) والمسألة الأساسية هي أن لديه مقداراً كبيراً من الأسئلة لا يستطيع أن يعالجها، وأسئلة كثيرة قابلة للمعالجة، لا يستطيع أن يجيب عنها».

لقد صارت «ولفرام ألفا» الآن على محك الباحثين العلمي، وهي في بداية التجربة العظيمة، في اختبار الاستخدام الفعلي لدى المستخدم العادي، والعجلة تدور ولا تتوقف، وثمة أفكار وأفكار تستحق التجريب، والمسير لن يقف عند حد.

القافلة - مكتب بيروت



يتقدَّم الخيَّال

ويرفع الراية

هذه خيلك

وهؤلاء خيَّالتك

يا وطني.

والبيداء متحفك

الأول

وقع الخطى

وأصداء وأقوال....

وأطلال الأحبّة

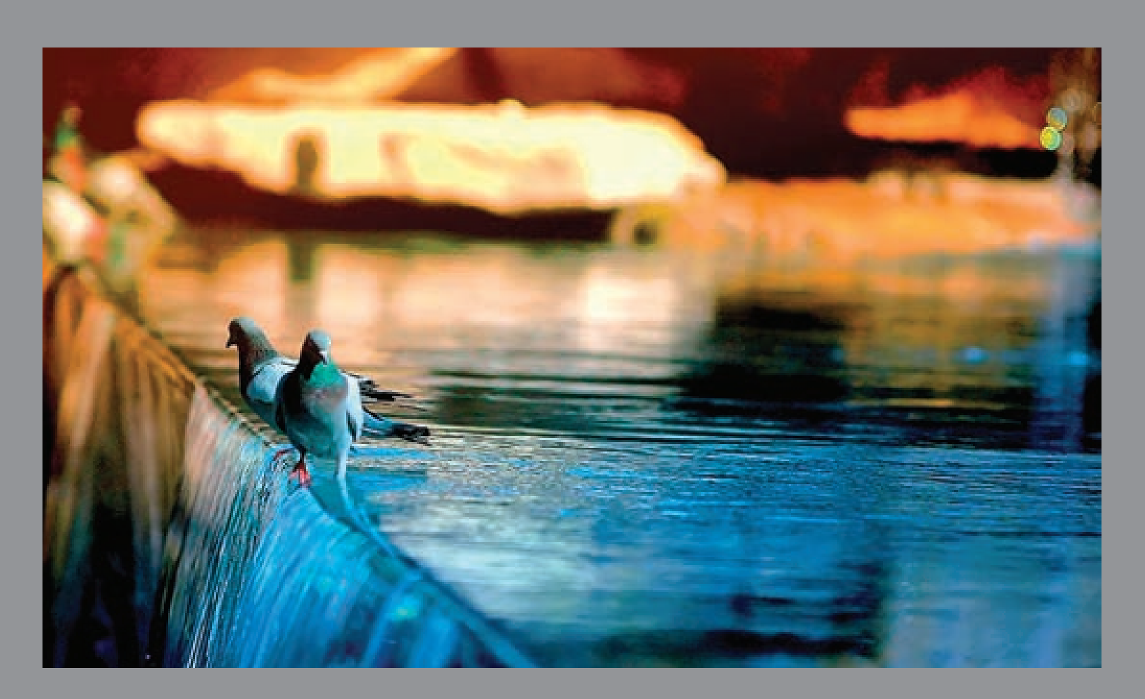
فيها..

والتاريخ متحفك

الثاني..

زرته.. وهو يُزارُ.









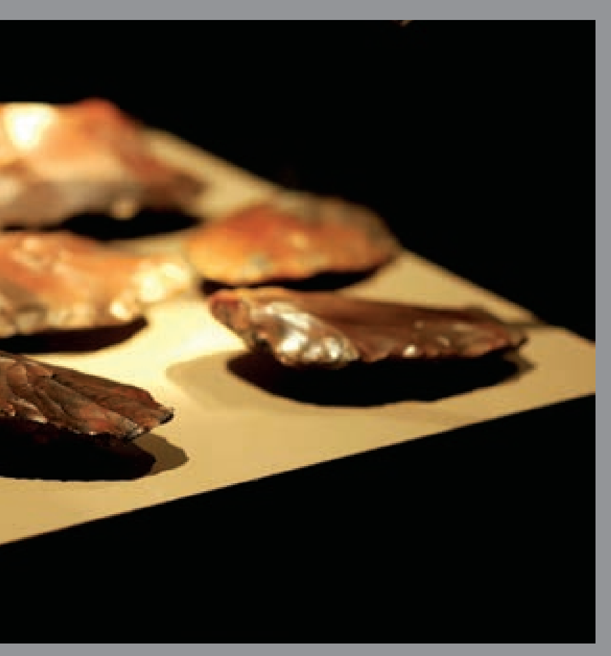


عبداللطيف العبيداء

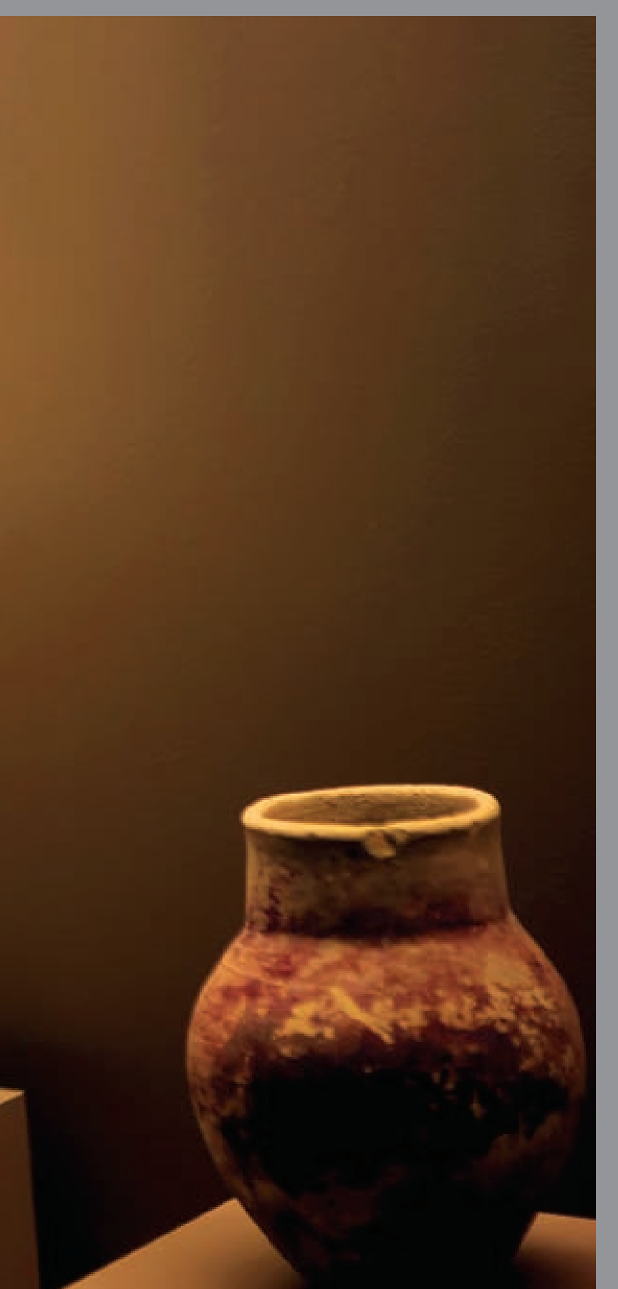
عبداللطيف بن إبراهيم بن عبدالكريم العبيداء، مهندس سعودي، تخصص في دراسة الجيولوجيا التي حصل فيها على بكالوريوس من جامعة الملك سعود عام 1987م، وعلى الماجستير من المعهد الدولي لعلوم الأرض والفضاء في هولندا عام 1994م. وربما كان هذا العلم بالذات هو ما قرَّبه إلى الطبيعة ومنها إلى التصوير الفوتوغرافي.

فقد كان أول معرض له في هذا الفن عام 1983م في جامعة الملك سعود، ليكرر بعد ذلك مشاركته في أكثر من عشرين معرضاً محلياً وعربياً ودولياً. ومنذ العام 2005م وحتى اليوم، فاز العبيداء وأعماله بأكثر من عشرين ميدالية وجائزة مرموقة.

وإضافة إلى عمله محاضراً في معهد الدراسات المساحية والجغرافية العسكري، يرأس العبيداء اليوم «مجموعة فضاء للتصوير الضوئي» ويشارك بصفة عضو في ست جمعيات أخرى، من بينها «المنظمة الدولية للتصوير الضوئي».




1
2




9
8


17
18
20
22
23
24
25
11
12
13
14
15
16
17
18
21











* مختارات عبداللطيف العبيداء تشمل بعضاً من نتاج زيارته للمتحف الوطني بالرياض.

ألعابنا أحسن!

في كتاب «اسمع يا رضا» حدَّث الأديب أنيس فريحة ابنه عن ألعابه وألعاب جيله قائلاً: «ألعابنا أحسن».

كميل حوَّا

دخل رجل إلى محل ألعاب وعلى وجهه ابتسامة حذرة. وبعدما جال بنظره على الرفوف، التفت إلى البائع الذي وقف متأهباً كي يلبي طلب الزبون، وسأله: هل لديكم لعبة جديدة ظريفة؟

فسأل الشاب السؤال الروتيني: لأي سنّ يا أستاذ؟ فرد الرجل: بحدود الستين! وكان يقصد نفسه طبعاً.

أما الابتسامة الحذرة فسببها أن الأمل في الحصول على لعبة بهذه المواصفات أصبح ضئيلاً للغاية في أيامنا هذه. إذ يكاد الخيال أن يكون قد انحسر عن محال الألعاب كلياً. وأصبحت الألعاب المتوافرة تكرر ذاتها بشكل محبط.

أنماط معروفة لا تزيد على عدد أصابع اليد الواحدة نستطيع أن نصنف أنواع الألعاب من خلالها. والتشابه الذي تجده في محل الألعاب تجده بطبيعة الحال في غرف الأولاد: مركبات التحكم عن بعد، والألعاب البلاستيكية السميكة والدمى الوبرية بأصنافها المعروفة، وطبعاً لكل فتاة «باربيها». وجميعها (وما يبدو أنه أيضاً سبب هذا الفقر في الاختيار) تخضع لمبدأ أقل كلفة ممكنة في الإنتاج، وأكبر هامش ربح ممكن في البيع.

ومن كان قد غاب عن دنيا ألعاب الأطفال وعاد إليها بعد سنين، قد يشعر للوهلة الأولى أن هذه أصبحت من الأشياء المعرّضة للانقراض. وكأن المحال المتخصصة لبيعها انحسرت إلى حد بعيد وتكاد تقتصر على بعض الزوايا والأركان المحدودة في «السوبرماركت» أو المولات التجارية.

ومن يعرف ألعاب أيام زمان في مراحلها المختلفة يعرف أنه اليوم يقع تحت دكتاتورية شروط الربح والخسارة بأعنف أشكالها، وأن التفكير بالطفل واللعب لا يكاد يؤدي أي دور في قرارات الإنتاج.

والحقيقة أن حتى ما يمكن اعتباره «الألعاب البديلة» والتي توصف بأنها ألعاب تربوية وإن كانت موجودة ولها حيز مستقل لا بأس به، فإنها لا تلبي في الحقيقة نداء اللعب البريء والفرح.

فالمطلوب أولاً وقبل أي شيء آخر تلك الألعاب البسيطة الملونة الممتعة التي تفرح وتسلّي وتضحك وتحمّس. مثل البلبل، والطائرة الورقية الأصلية، و«الكلل» الملونة، والبالون، وكل أنواع الكرات المتدحرجة.....وغيرها.

لكن ليس هذه فقط، بل ألعاب كثيرة لا تُعد ولا تحصى كانت تثير مرح الأطفال والكبار على حد سواء. فاللعب حاجة أساسية وطبيعية لدى كل الأعمار. مثله مثل الضحك والتسلية والدهشة والخيال.

وما كان يميز ألعاب العام عن العام الذي سبقه (ابتكارات وأفكار جديدة مختلفة في محل الألعاب) هو بالضبط ما نفتقده اليوم.

كان كل تقدم تشهده التكنولوجيا نفسها تستفيد منه صناعة الألعاب. لكن الابتكارات التكنولوجية ما كانت لتكون مفيدة، لولا وجود حماسة حقيقية وإصرار على ابتكار ألعاب جديدة يفرح بها الأطفال وذووهم ويلعبون بها سوياً في كثير من الأحيان.

أعيدوا إلى أطفال الأرض ألعابهم، حتى ولو كانوا بحدود الستين.



قبل التحولات التي طرأت على الحياة الاجتماعية في العقود الأخيرة من القرن العشـرين، كان الكرسـي الهـزاز غائبـاً عـن بيوت كثيـرة. وكان استخدامه حكراً علـى كبار السـن في البيت إن وجد فيه. ولكنه اليـوم يقتحم المزيد من البيوت، ويكتسب أهمية متزايدة بعدما تخلص من احتكار جيل الآباء والأجداد له. نادين صبري* تروي هنـا حكاية الكرسي الهـزاز، وتسلِّط الضـوء على جوانب مختلفة، منها النفسي والاجتماعي والثقافي، تميز قطعة المفروشات البسيطة هذه، عن باقي المفروشات في بيوتنا.

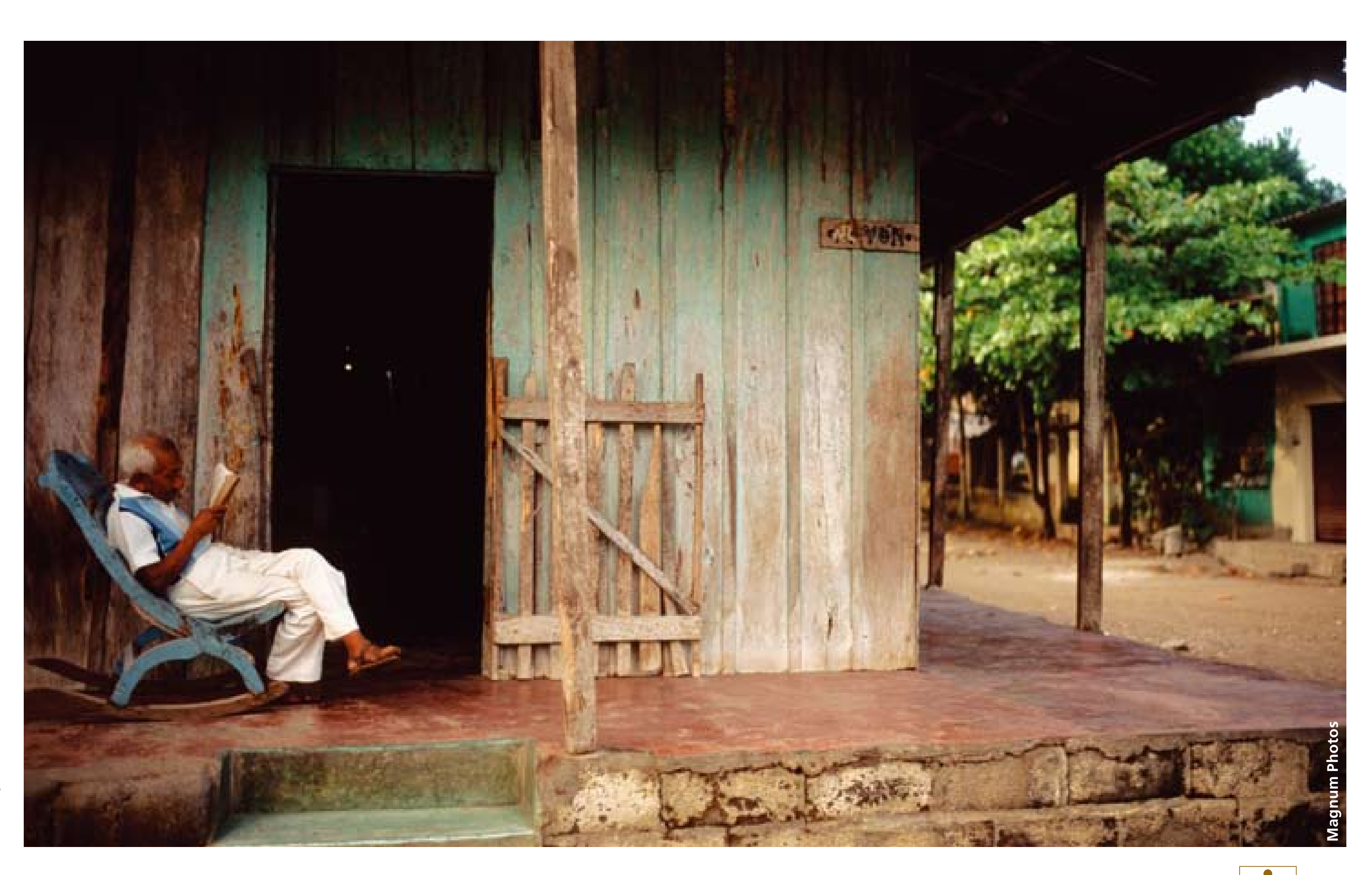
الكرسي الهزاز

من مهد الطفل إلى راحة المسن

الكرسي الهزاز..
عنوان الاسترخاء والقراءة

Corbis

* كاتبة من فلسطين



القراءة في الكرسي الهزاز.. رفاهية الفقراء والأغنياء واحدة

منذ الطفولة وحتى الكهولة، يحافظ علينا الكرسي الهزاز بين ذراعيه برفق، يهدي الرضيع الباكي السكينة والطفل المَلُول التسلية والأم المتعبة الراحة والشيخ الوحيد الأنس.

عندما نشيخ، ويمتد الحزن ليصل أعطافنا، عندما نشعر بنفاد الصبر أو عندما تغمرنا موجة من التأمل والشجن، لا يكون لدينا عمل آخر سوى أن نتأرجح عليه ونذوق متعة بدائية لا نستطيع تفسيرها لأنفسنا. الكرسي الهزاز بانتظارنا. فهو، في انطباعنا، يحتفظ بالمفاصل مسترخية والأعضاء بصحة جيدة، ويمسح آلام الظهر ويرفق بهشاشة العظام وآلام الروماتيزم.

ومن ناحية أخرى، فالكرسي الهزاز رغم وقاره يتحول إلى طفل ضاحك ولعوب حالما يمس خيال الحرفيين والمصممين، يعدهم بالكثير مما يمكنهم أن يخلقوه حالما يبدأون العمل عليه، وأول الوعود، النجاح في نسج شبكة من الذكريات الجميلة وبث الحياة في أوقات ماضية طيبة وسعيدة.

وفي الكرسي الهزاز أيضاً نجد قدرة الإنسان عموماً والطبقة الوسطى بشكل أخص على تذوق متعة الحياة في أبسط أشكالها، وفيه أيضاً إشارة بأن الرضا يأتي من الهناء الداخلي، وكل شيء آخر هو امتداد لهذا الجسر الذي تبنيه رؤيتنا الداخلية لأحداث حياتنا. وعندما توجد هذه الراحة، يتم الاحتفاء بها وتذوقها على أكمل وجه وتحسينها والاحتفاظ بها عزيزة وقريبة من القلب. وقد منحت هذه المكانة للكرسي الهزاز في الصيف كما في الشتاء. اهتز وتأرجح في غرف النوم والمعيشة والطعام والمطبخ والفناء وغرف الضيوف، وربما في أكثر الأماكن ترحيباً به وهي الشرفة. مع الضحك والبكاء، مع رقة أم تربت على طفلها ووحدة عجوز في أوقات الظهيرة الطويلة، في مرح وابتهاج الطفولة، وفي لذات التقاعد البسيطة. في مساءات الصيف الساكنة على الشرفة، وفي صباحات الشتاء الباردة أمام المدفأة.

البدايات المبكرة

في لوحة «الحصان الخشبي» التي رسمها روبرت بيتلهام في ماساتشوستس عام 1840م، يظهر الحصان الخشبي الهزاز كلعبة ضرورية لا غنى عنها لكل طفل مترف في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وككثير من ألعاب الأطفال، كان هذا الجواد طريقة لتقليد الأب أو الأخوة الأكبر سناً الذين كانوا يقضون جزءاً من يومهم على ظهور الخيل.

ربما يعود أصل الجواد الخشبي إلى تلك العصا برأس حصان، والتي عرفها الإغريق القدامى، واستخدامها كان مترافقاً مع مرحلة الطفولة، لدرجة أن هناك رسماً فرنسياً يعود لسنة 1482م للمراحل السبع التي يمر بها الرجل منذ


Corbis

مهد الطفولة أول رابط
بين تكرار الحركة والاسترخاء

طفولتـه وحتى اكتمـال الرجولة، واختـار الرسام الحصان الخشبـي كي يحكي لنا عـن طفولة الصبي الـذي يمتطيه. والتطـور الـذي طـرأ علـى الحصـان الخشبي مـن مجرد حصـان يمتطيه الطفـل إلى حصان هـزاز يوحي بالحركة التي يوفرها الحصان الحقيقي لراكبه يبدو أنه ابتكار يعود إلـى منتصـف القرن السابع عشر حيث ظهـر لأول مرة في رسومات بريطانية وألمانية من تلك الفترة.

هناك الكثير من التكهنات حول ابتكار الكرسي الهزاز، إلا أن الباحث في مجلات القرن التاسع عشر يجد أن المعلقين البريطانييـن يحكـون عن ذلـك الكرسي الهـزاز المريح، الـذي يجدونه فـي أمريكا ولكنـه ليس متوافـراً في لندن. والبعضـ يشير إليه بوصفه ابتكاراً أمريكياً صرفاً. في تلك الفتـرة كبرت مكانة الكرسي بالتدريج، وأصبح صالحاً لأن يكـون هدية للعروس، مما يدل على أهميته ككرسي للمرأة. الباحـث الاجتماعـي فرانسيسـ جرند في كتابـه «الشعب الأمريكي في علاقاتـه الأخلاقية والاجتماعية والسياسية» المنشور عام 1837م يقدِّر الكرسي الهزاز بوصفه مثالاً على مـا يمكن أن ينتجه العقل المتسـاءل العملي. أما المعماري المعروف جايمس فروين فقد سجل ملاحظاته لمجلة لندن الهندسية سنة 1838م وقال متعجباً إن الكرسي الهزاز في أمريـكا أصبح وسيلة شائعة للجلوس ومجاملة الضيف بل وإكرامه.

يتفـق المؤرخون في هذا الإطار علـى أن الكراسي الهزازة الأولـى ظهـرت بواسطـة إضافـة قطعتيـن مقوستين من الخشـب للكراسي الثابتة المصنوعـة والمستخدمة سلفاً. البعض مـن المهتمين بشـأن الكرسي الهـزاز يذكرون أن بنجامين فرانكلين، من أوائـل الرؤساء الأمريكيين الذين اشتهـروا أيضـاً بابتكاراتهـم، هـو أول من أضـاف هاتين القطعتيـن. وليس هناك من شـك أن فرانكلين كان يمتلك كرسيـاً هـزازاً، ولكن أن يكون هو مبتكـره فهذا ضرب من الخيال، ومرده إلى استسهال نسب كل الأفكار الجميلة إلى أشخاص بعينهم في تلك الفترة من التاريخ. حيث إن هناك دلائل تشيـر إلى أن الكرسي ظهر قبل ذلـك الوقت بكثير، وتحديداً في أربعينيات القرن الثامن عشر، منها أنه عندما أحصيـت تركة التاجر وليـام تمبلين في العام 1742م، في ولايـة بنسلفانيا، كان مـن ضمنها مجموعة مـن الكراسي الهـزازة. ولهـذا نستطيـع أن نؤكـد أن الكرسـي الهـزاز كان بالتأكيـد مستخدمـاً فيمـا كان يعـرف بالمستعمرات الأمريكية، وأنه وإن لم يكن مستخدماً في كل منزل هناك، إلا أنه كان معروفاً بشكل عام.

في ظهوره في منتصف القـرن السابع عشر، كان الحصان الخشبي الهزاز هو الجسـر المثالي بين المهد وبين كرسي الطفل الهزاز. وربما نستطيع القول أن الحصان الهزّاز هو أول نوع من هذه الكراسي.

قبـل تطور الكرسي الهـزاز، كان المهد هـو قطعة الأثاث الهزازة الوحيـدة التي تستخدم الهـزازات. وبالرغم من أننا أيضاً لا نعرف مبتكر المهد، فإن السبب الأول لابتكاره


الكرسي الهزاز لراحة المرأة

كان مساعدة الطفل على النوم، أو هكذا كان ينصح حكماء تلك الفترة. المهد لم يكن حكراً على الأطفال فقط، بل ظهرت المهود التي تتسع للشيوخ الكبار ممن فقدوا قدرتهم على الحركة، وتأرجح المهد كان مفيداً لأجسامهم. ويفترض أن الفوائد نفسها التي كان يحصل عليها الأطفال من اهتزاز المهد وهي الرياضة والنوم والإحساس بالأمان، كان يحصل للشيوخ أيضاً. وبالرغم أن المهد كان مستخدماً في غالبية المنازل قبل العام 1700م، إلا أن أجيالاً وأجيالاً مضت قبل أن يأتي شخص لماح كفاية ليفكر أن القطع الخشبية المقوسة التي تسمح للمهد بالتأرجح يمكن أن تقتبس وتضاف إلى الكرسي ليصبح أكثر راحة. وربما يصعب علينا تخيل هذا إلا أن السبب بسيط نسبياً ويعود إلى حكاية الكرسي نفسه، إذ إن القارئ قد يندهش عندما يعلم أن غالبية الناس لم يكونوا يجلسون على كراسي من أي نوع قبل عام 1700م. فقد كانت الكراسي قبل هذا التاريخ حكراً على النبلاء وعلية القوم في المنازل. أما عامة الشعب فقد كانوا يجلسون على رفوف خشبية أو مجرد خشبة مستديرة فوق ثلاثة قوائم. وفي بداية القرن الثامن عشر ظهر الكرسي المنجَّد بالجلد وشاع استخدامه مع الوقت، ومع الوقت أيضاً بدأت تظهر التحسينات عليه، فعلى سبيل المثال، ظهر الكرسي ذو الظهر المسترخي بدلاً من الظهر العمودي، إلا أن العامة لم يقبلوه إلا كوسيلة للجلوس المسترخي غير الرسمي، ولم يكن مستخدماً أثناء استقبال الضيوف أو في حضور النبلاء أو حتى أثناء وجبات العشاء، فكتب التقاليد في القرن التاسع عشر تحذِّر من أن تجلس وظهرك إلى الوراء فهذه ممارسة تدل على جهلك بأبسط قواعد السلوك المتحضر، كما أن هذا ينطبق أيضاً على الكرسي الهزاز الذي تعتمد فكرته أساساً على إراحة الظهر للوراء.

> **تكرار الحركة من الأمام إلى الخلف، التي قادت الأطفال إلى النوم.. صارت جذَّابة للبالغين**

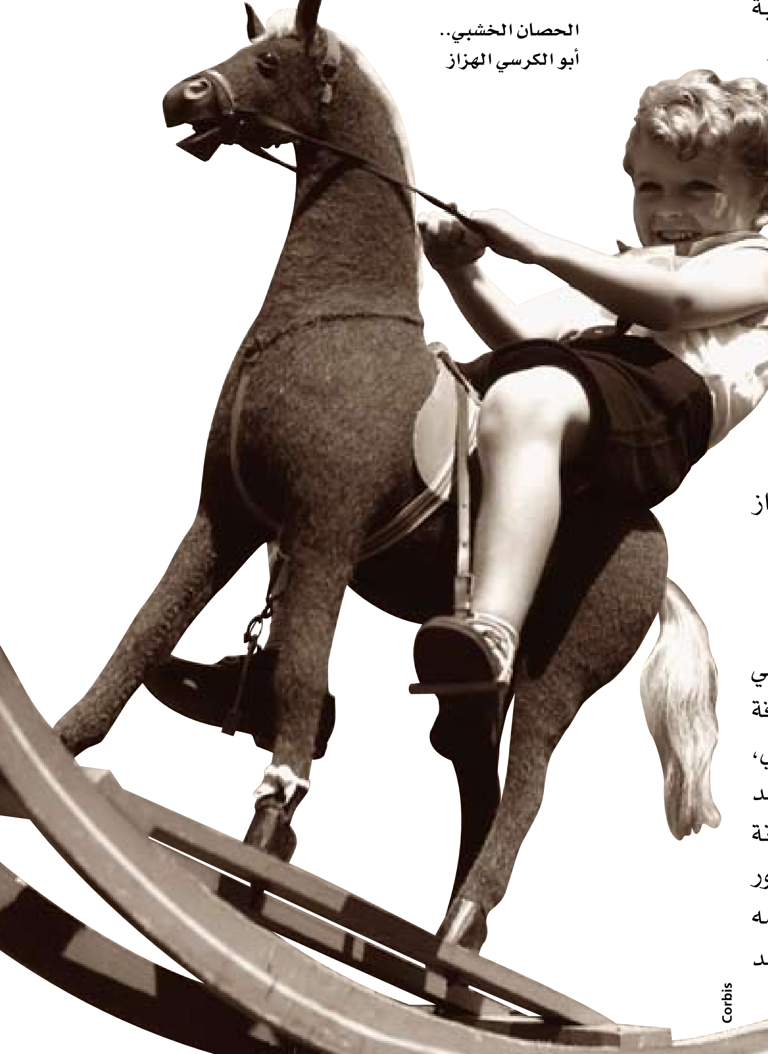
تطور الكرسي الثابت

وفي خضم البحث عن أثاث للجلوس المريح، ظهر الكرسي المنجَّد المبطن في بداية القرن الثامن عشر كإضافة بديهية للتحسينات التي طرأت على الكرسي الخشبي، بقماشه ووسائده المريحة. وقد حصل الكرسي المنجَّد منذ ظهوره على تقدير كبار السن بحيث برز كرمز للمكانة والراحة ويؤمن سكينة واسترخاء بعد التعب. وتطور اسمه من الكرسي السهل، وهي الترجمة الحرفية لاسمه (easy chair)، ليصبح في بريطانيا معروفاً بكرسي الجد (grandfather's chair). وكان أول ظهور لهذا النوع من الكراسي في نيويورك عام 1708م.

وحديثنا عن الكرسي المنجَّد في معرض تناولنا للكرسي الهزاز لايأتي من فراغ، فإن الكرسي الهزاز يشبهه في استجابته لمطالب الراحة الجسمية والنفسية للإنسان، وكذلك فإن الكرسي المنجَّد لايزال يحتل المكانة الأولى في كل غرف المنزل اليوم، إلا أنه في القرنين الثامن والتاسع عشر كان محدوداً بجدران غرف النوم فقط. وبعض الكتَّاب يقول إن الكرسي المنجَّد كان مخصصاً في تلك الفترة للمعاقين أو كبار السن. وبالرغم من أنه، أي الكرسي المنجَّد، كان ضرورياً لتوفير الراحة لنخبة المجتمع، إلا أن الكلفة المرتفعة للتنجيد بالقماش عنت وقتذاك أنه رفاهية لا تتوافر إلا للأغنياء من أهل المدن تحديداً.

الحاجة إلى الراحة أم الاختراع

كان الكرسي الهزاز منتجاً جديداً نشأ عن تيار نما لدى صانعي الأثاث، وهو أن الكرسي، أو أية قطعة أثاث أخرى، يجب أن يضع مصممها أو صانعها في اعتباره الراحة كهدف أول لدى تصميمها. الراحة التي تأتي من حركة الكرسي الهزاز هي السبب البديهي الأول لجاذبيته. الحركة



الحصان الخشبي..
أبو الكرسي الهزاز

Corbis

الرفيقة، المتكررة، المطمئنة، المستمرة إلى الأمام وإلى الخلف، ثم إلى الأمام ثم إلى الخلف، ثم إلى الأمام ثم إلى الخلف.. ولا تتوقف إلا إن أراد لها الجالس أن تتوقف. في بداية القرن الثامن عشر هذه الحركة التي قادت الأطفال طوال قرون إلى النوم أصبحت فجأة جذَّابة للبالغين.

والراحة التي وفرها لأجدادنا الكرسي الهزاز وما زال يوفرها لنا تعود أسبابها إلى ناحية فسيولوجية لم يعرف تفاصيلها أسلافنا. أولها أن من الطرق التي ينصح بها الأطباء للاسترخاء، تحويل وضع الجسم ليكون في علاقة مباشرة مع الجاذبية، وحركة الكرسي الهزاز تقدم نفسها كعربة ملائمة للحصول على هذه العلاقة وبالتالي تسهم في راحة الجالس.

في العام 1800م بدأ تصميم الكراسي الهزازة، وقبل ذلك كانت تضاف أقواس على الكراسي العادية لتصبح قابلة للهز

في أحد كتالوجات القرن الثامن عشر التي تعرض للزبائن مجموعة من قطع الأثاث ظهر الكرسي الهزاز باسم «هزّاز المرضعة» و«هزَّاز الخيّاطة» و«هزَّاز السيدات»، مما يدلنا على أن الكراسي الهزازة في ذلك الوقت كانت مستخدمة من قبل النساء أثناء قيامهن بأعمالهن المنزلية التي يمكن أن تؤدى وهن جالسات.



هذه المتعة المستقاة من الحركة كانت تسعد البالغين أيضاً ولكن هل كانت متاحة لكل البالغين من كل الأعمال، النساء والرجال أيضاً؟

بالرغم أنه قد بقيت بعض من الكراسي الهزازة التي صنعت للبالغين من القرن الثامن عشر إلا أن المؤرخين يشكون في أن الرجال الأصحاء الشجعان، شباناً كانوا أم في منتصف العمر، كانوا يجلسون على الكرسي الهزاز أو يجدونه جذَّاباً. الأدلة البصرية التي أتتنا من القرن التاسع عشر والتي تمثل استخدام الكرسي الهزاز تشير إلى أنها كانت فقط لأصحاب الإعاقات الجسمية أو الشيوخ. ولم يكن ينظر للكراسي الهزازة إلا أنها للمرضى أو أولئك الذين حان وقت تقاعدهم من العمل وآن لهم الجلوس بكسل عليها.

ولأن الكرسي الهزاز في بدايات ظهوره كان يُعد وسيلة للجلوس غير الرسمي، ولا تسمح آداب السلوك باستخدامه أثناء لقاء الضيوف أو أمام ذوي المكانة، تعامل معه النجارون ومصنعوه في القرن الثامن عشر على هذا الأساس، وكانوا يصنعونه بنوع من اللامبالاة، بحيث لا يستطيع الدارسون اليوم أن يفرقوا بين الكراسي التي صنعت لتكون هزازة في الأصل، أو تلك التي صنعت بهدف أن تكون كراسي عادية ثم أضيفت إليها الهزازات. إلا أن الأمر قد تغير في القرن التاسع عشر عندما بدأ المصممون في التفكير بالكرسي الهزاز على أساس أنه نوع مستقل عن الكراسي العادية، وركَّزوا بوعي على عملية تصميمها لتصبح أكثر رواجاً بين الناس.

Beata Krans in Windsor rocking chair-Olof Krans

صور صور.. وأين الكرسي؟

إن صدقت الأقوال التي تشير إلى أن الشعب الأمريكي كان يفضِّل الجلوس على الكرسي الهزاز ولا يعتبره منافياً للذوق في القرن الثامن والتاسع عشر على عكس غيره من الشعوب الأوروبية، فلم لا نجده ضمن الصور التي وصلتنا، والتي تظهر فيها الأسرة أو الأفراد جلوساً على أنواع مختلفة من الكراسي فيما عداه؟

السبب الذي قد يسارع البعض لتقديمه هو أن الكرسي الهزاز نفسه لم يكن شائعاً لهذه الدرجة حتى بداية القرن التاسع عشر، إلا أن الحجة التي تقابل رأي هؤلاء هو أن ثلاثة أرباع الصور الشخصية التي وصلتنا من القرن التاسع عشر وتظهر فيها الكراسي الهزازة هي صور لنساء مسنات أو أطفال.. وربما يصل المرء لاستنتاج مفاده أن الكراسي الهزازة فعلاً لم تكن تستخدم إلا لهاتين الشريحتين الاجتماعيتين. هذه الحقيقة، رغم منطقيتها، ليست كاملة. فمعظم الناس الذين يطلبون أن تؤخذ صورهم في منازلهم بواسطة رسام أو مصور محترف ما كانوا يرغبوا في أن يظهروا مصوَّرين على كرسي هزاز. فمنذ اختراع التصوير في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وحتى ابتكر جورج ايستمان أول تحميض بواسطة البريد عام 1888م، كان المصورون الفوتوغرافيون المحترفون هم وحدهم من يلتقط الصور. ولذا فإن بورتريهات المصور قبل ذلك التاريخ كانت تمثل الجانب أو الوجه الذي يريد الشخص أن يعرفه عنه المجتمع، وليس تلك اللحظات الخاصة، في آخر اليوم مع صحيفة المساء، عندما يكون الكرسي الهزاز هو البيت الذي يعود إليه المسافر بعد التعب والغياب، ولهذه الأسباب مجتمعة كانت قلة قليلة من البورتريهات في القرن الثامن والتاسع عشر تظهر الكرسي الهزاز.

في رسم لجوزف دافيز، بعنوان «عائلة مونتمجري» يظهر رجل على كرسي هزاز، ومن العصا التي يحملها، وعمره الذي يتجاوز السادسة والخمسين عندما رسمت له هذه



عندما كان وسيلة جلوس غير رسمية

اللوحة، من الواضح أنه رجل متقاعد. القبعة التي يرتديها، وهندامه، والكلب عند قدميه يقولون لنا أنه رجل ناجح، محترم بين أقرانه. هو وزوجته يتمتعان بالمتع التي جلبها لهما عملهما الشاق خلال سنوات الشباب. في لوحة أخرى بعنوان «رسم لعائلة» للفنان جاكوب مينتل لعائلة لم يذكر اسمها، نرى طفلتين صغيرتين على كراسي هزازة بينما تظهر بقية العائلة في وضع متزمت يتناقض مع حركة الفتاتين المرحة والزخرفة الجميلة على الجدران والأرضية.

الحديث عن سهولة الجلوس على الكرسي الهزاز وراحته شاع وذاع بعد مضي النصف الأول من القرن التاسع عشر. ولا يعرف أحد إن كان الطلب قد خلق العرض للكرسي الهزاز أم أن العرض حقيقةً هو ما خلق الطلب. ولكن على أية حال بدأ صناع الكراسي في صنع الكرسي الهزاز والإعلان عنه منذ العام 1800م. وكثير من الكراسي التي كانت تصنع في الريف، هي كراسي عادية أعيدت إلى صانعها مع طلب محدد بتحويلها إلى كراسي هزازة، إلا أن كراسي سكان المدن كانت تختلف فكانوا يطلبون كراسي جديدة صنّعت لهذه الغاية، وعلى سبيل المثال، تذكر المستندات التاريخية أن ناثيال دو ميني في صنّع 12 كرسياً هزازاً بين 1830 و1860م لزبائنه في شرق هامتبون في ولاية لونج آيلاند، ولم يكن واحدٌ منها كرسي عادي أضيفت له هزازات. وبمقارنة الأسعار التي سجلت لهذه الكراسي بأسعار الكراسي الأخرى التي اعتاد النجار دو ميني أن يصنعها نجد أن هذه الكراسي الهزازة بين تلك الأغلى ثمناً. فقد كان الحرفيون المحليون عادةً يصنعون بضاعتهم بناءً على الطلبات التي تأتيهم من الزبائن، وهذا كان متناقضاً مع نوع آخر من أداء العمل بواسطة الشركات المصنعة التي تملأ خزائنها بالبضائع كي يأتي الزبون ويختار منها.

وبينما تصاعدت شعبية الكرسي الهزاز أيضاً طرأت كثير من التغييرات على شكله وتصميمه. في القرن الثامن عشر كان الكرسي الهزاز ببساطة كرسياً من نوع ويندسور تضاف إليه الهزازات. ولكن عندما تصاعدت شعبيته وكثر إنتاجه في بدايات القرن التاسع عشر بدأ صناعه في أخذه بكثير من الجدية، والتركيز على رفاهية الجالس وراحته بإضافة الوسائد وما إلى ذلك. ولكن هذه الإضافات البديهية لم تكن فقط ما أضيف إلى الكرسي الهزاز. فقد أعيد تشكيله بالكامل بحيث يصبح ظهره أكثر انحناءً ليدعم الجزء الأسفل من العمود الفقري، كما أن توازن بناء الكرسي على هزازاته تحسَّن بشكل واضح. وعرف هذا الكرسي بالمدينة التي صنع فيها وهي بوسطن

الأمريكية، وعادةً ما كانت سيدة البيت تضيف إلى هذا الكرسي شالاً طويلاً على ظهره ليوفر الدفء للجالس عليه في أيام الشتاء القارس. في كتابها المعنون بـ «الحياة في هارفارد» تذكر سارة آنا إيمري عن تجربتها الجامعية سنة 1830م أن الأثاث كان بدائياً وأرضية غرف السكن لم تكن مفروشة وما توافر من قطع الأثاث كان بسيطاً للغاية، وما يعرف بكرسي بوسطن الهزاز كان رفاهيةً أتى بها بعض الطلبة لغرفهم.

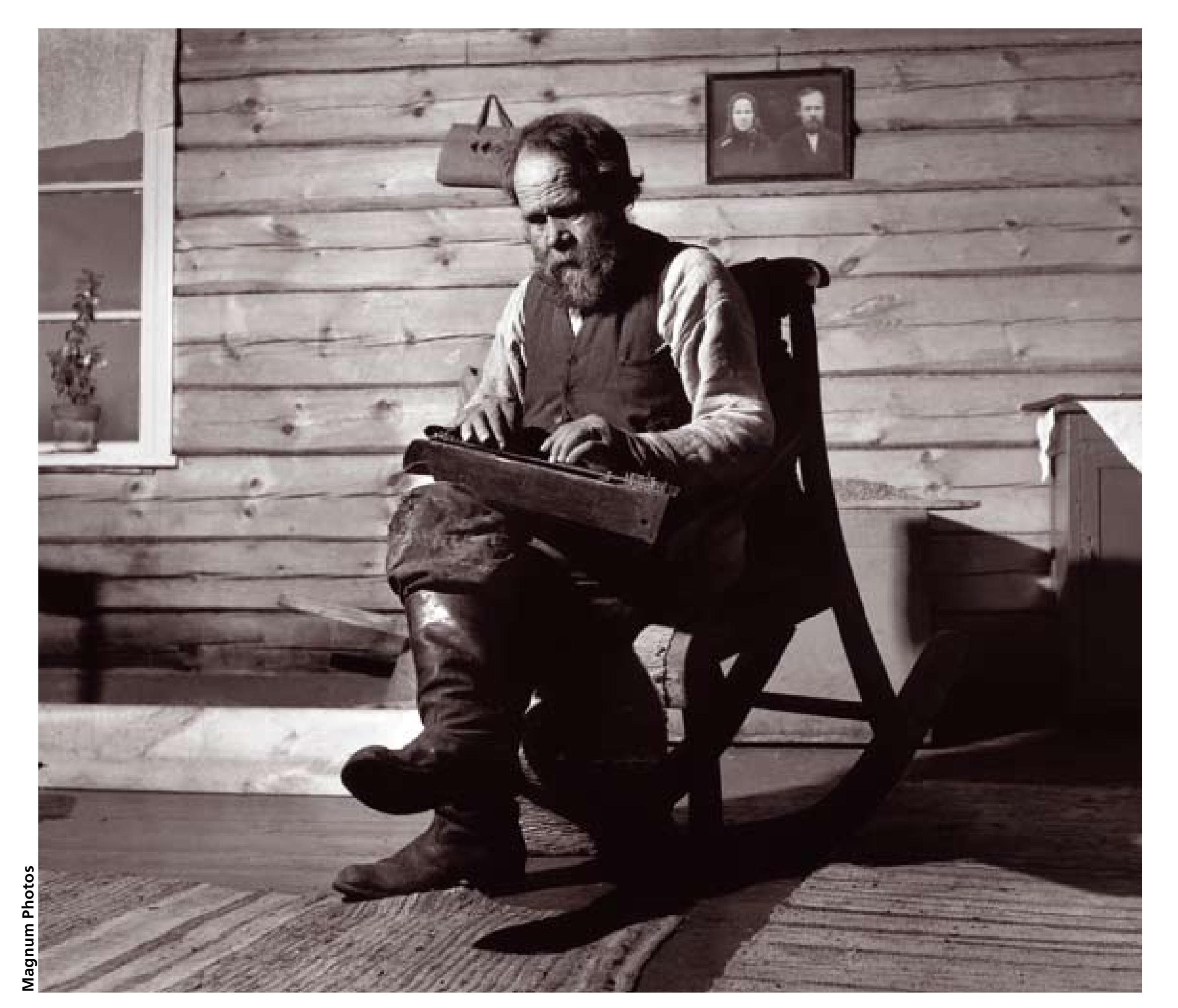
الشاهد الصامت

في الرابع عشر من إبريل عام 1865م توجه الرئيس الأمريكي إبراهام لينكولن، موحد الولايات المتحدة الأمريكية، مع عائلته إلى مسرح فورد، ليشاهد باسترخاء مسرحية «قريبنا الأمريكي»، ولراحة الرئيس المتعب، أتى مدير المسرح بكرسي هزَّاز منجَّد مريح ولكن شبه مهترئ من المخزن. وعلى هذا الكرسي القديم، وفي الركن الأيسر من إحدى المقصورات قريباً من الجمهور، تلقى الرئيس لينكولن الرصاصة التي أردته قتيلاً.

ظل الكرسي الهزاز لفترة طويلة أسير الزوايا الخاصة في البيت قبل أن يخرج إلى الشرفة أو الحديقة

الكرسي الهزاز وتعدد الوظائف

قليل من أشكال الأثاث أوقد مخيلة المخترعين كما أثارها الكرسي الهزاز وخصوصاً في القرن التاسع عشر. فبين 1831 و1905م ظهرت أكثر من ثلاثمائة براءة اختراع للكرسي الهزاز وملحقاته. هذه الكراسي لم تكن فقط هزازة، بل هي أيضاً دوارة، بموسيقى وبمراوح للهواء، وبوضعيات مختلفة، وقد تتحول إلى مهود أو صناديق أو حتى سلالم لالتقاط الكتب من أرفف المكتبة العالية. وبالرغم من أن هذا الاهتمام انبثق خلال أكثر من خمسة وستين سنة، إلا أن ثلثي هذه البراءات أصدرت ما بين العامين 1870 و1880م. وبينما كانت الكراسي الهزازة في بداية القرن التاسع عشر تزخرف لأغراض الزينة، كانت هناك اتجاهات لتحسين وتطوير هياكلها الداخلية أيضاً. وبينما أصبح الكرسي الهزاز مقبولاً ومعززاً مكرماً في كل غرف المنزل وبينها غرف استقبال الضيوف، ظهرت هناك عدة مشكلات متعلقة بحجمه وتصميمه وخصوصاً لأعين ربات البيوت. فلم يقف المبتكرون مكتوفي الأيدي، إذ اقتنصوا الفكرة لتعديل وتقديم حلول لهذه المشكلات، وبالتالي قدم لأول مرة كرسي هزاز بمنصة، وهو كرسي لا تستند هزازاته على أساس أو إطار داعم، فالكرسي الذي تلامس



المقعد المريح للأعمال الصغيرة


Corbis

وعندما كان مرتبطاً بالزاوية الحميمة من البيت

هزازاته الأرض كان مفسداً للسجاد ويحتل مساحة كبيرة من الغرفة. الفكرة التي ركَّزت على حل المشكلة كانت تعود إلى المبتكر صامويل بين، الذي قدَّم الفكرة إلى السوق لأول مرة في أربعينيات القرن التاسع عشر، وحازت على الرواج عام 1850م. وهذا النوع من الكراسي لم يحفظ السجاد من الضرر الذي كان يصيبه على يد سابقه، وإنما كان أيضاً بتنجيده وحجمه مشابهاً لأي كرسي عادي من كراسي الصالونات.

ثم جاءت الكراسي الهزازة المطوية نوعاً آخر حاز على الرواج في سبعينيات وثمانينيات القرن التاسع عشر كنوع مضغوط وكفء من الكراسي. وكانت تتمتع بعدة مزايا منها أنها يمكن تخزينها ويسهل حملها من مكان لآخر أو حتى في الفناء، وخفيفة في ثقلها، وعمل المبتكرون على جعل الكراسي مضغوطة وغير معقدة. وفي عام 1881م حصل سيلج على مالايقل عن 7 براءات اختراعات لكراسي هزازة تطوى بأشكال مختلفة، وبينما ركزت كثير من براءات الاختراعات على تقديم حلول عملية لمشكلات كان يعاني منها الكرسي الهزاز سواء في التصميم أو في ملاءمته لحاجات الجالس عليه، قدمت بقية الاختراعات رفاهية تدلل الجالس عليها، يصل بعضها إلى حدود مضحكة. فهناك تشارلز سينجر الذي حصل على براءة اختراع في يوليو 1869م لكرسي هزاز برشاش هواء معقد يوجه إلى أعلى رأس الجالس تياراً من الهواء.

براءات الاختراع هذه وما تتضمنها من تعديلات على تصميم وهندسة الكرسي الهزاز مكنته من الذوبان في نسيج أثاث الصالونات مرحباً به وضيفاً عزيزاً سرعان ما أصبح من أهل البيت. والتعديلات التي أدخلت عليه لتجعله مناسباً لداخل البيت لم تفقده شيئاً من جاذبيته في أكثر ملحقات البيت أهمية وهي الشرفة. ففي القرن التاسع عشر كانت الشرفة الأمامية لكل بيت مكاناً له طقوسه الخاصة خلال أشهر الصيف أو الشهور الدافئة من السنة. وسواء كانت هذه الشرفة مفتوحة أو مغلقة، كانت أكثر الأماكن برودة في البيت، خصوصاً في بداية المساء. ولم يحل منتصف القرن إلا وكانت الشرفة امتداداً لغرفة المعيشة للعائلة: يلعب فيها الأطفال، ويستقبل فيها الأصدقاء. أما في البيت المعاصر حتى وإن لم تكن فيه شرفة، فإن غرفة المعيشة المكيفة حول التلفزيون هي المكان الأنسب لذلك، أو حتى حلقة الشواء في الفناء الخلفي للمنزل.

وكان يراعى في تصميم المواد المستخدمة في بناء الكرسي الهزاز المخصص للشرفة أن تقاوم العوامل التي يتعرض لها قطع الأثاث الخارجي من غبار ومطر وتغير في درجة الحرارة. وفي الوقت نفسه أصبح الكرسي الهزاز أداة لجلوس الجميع، وليس فقط الأطفال والنساء وكبار السن. وبالرغم من أن الكثير من التعديلات والوظائف قد أدخلت إلى تصميم الكرسي الهزاز، إلا أن الكثير من الناس يفضلون الكراسي الهزازة بصيغتها الأولى، وما توفره من راحة واسترخاء.


Corbis

صورة شخصية

بعد أكثر من ربع قرن من عمله على تحقيق التراث ونشره، جاءته جائزة الملك فيصل العالمية في اللغة العربية وآدابها، لتدق بابه وخلفها الأضواء الإعلامية التي يستحقها الرجل. إنه البروفيسور عبدالعزيز المانع. أحمد الحسين* يرسم لنا الصورة الشخصية لهذا العالِم الذي كان أول محقق سعودي يفوز بهذه الجائزة المرموقة عالمياً، ويعرض بعض إنجازاته ونشاطاته في دنيا الأدب والتعليم ومؤسساتهما.

عبدالعزيز المانع
تحت أضواء جائزة الملك فيصل

ظل الدكتور عبدالعزيز المانع يتفادى الأضواء، ويحرص على العمل بهدوء في المجال الذي نذر نفسه له، ألا وهو مجال اللغة والتراث، ولكن الأضواء سعت إليه سعياً، واقتحمت عالمه الهادئ عندما حصل على جائزة الملك فيصل العالمية في اللغة العربية وآدابها، وتسلمها في الاحتفال الرسمي الذي أقيم في الثامن والعشرين من شهر مارس للعام الجاري.

نشأته.. من شقراء إلى جامعة الملك سعود

ولد البروفيسور عبدالعزيز بن ناصر المانع في العام 1943م بمدينة شقراء، في بيت عريق في معرفته للعلم والعلماء. إذ أنجب قديماً وحديثاً عدداً من العلماء الذين تفخر بهم شقراء والمملكة ككل. ومن هؤلاء الشيخ القاضي أحمد بن مانع ابن إبراهيم ابن مانع وهو أحد تلاميذ الإمام محمد ابن عبدالوهاب، يرحمه الله، والشيخ محمد ابن عبدالله بن محمد ابن إبراهيم بن مانع الذي عمل قاضياً بعنيزة، وكان صاحب حلقة كبيرة لتدريس العلوم الشرعية والأدبية، وكذلك كان ابنه الشيخ عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله ابن مانع عالماً معروفاً بفضله، وتبحره في مجال الأدب، كما أن الشيخ عبدالله ابن ناصر المانع شقيق الدكتور عبدالعزيز كان مربياً حافظاً لكتاب الله، والمجال لا يسع لذكر أعلام هذا البيت، الذي تعلم فيه عبدالعزيز المانع مقتضيات الانتماء إلى العلم، وعلى رأسها الإخلاص لتعاليم الله تعالى، والمثابرة، وامتلاك الرؤية، وتحديد الهدف وتلمس الوسائل.

وبعدما حصل المانع على البكالوريوس من كلية اللغة العربية في الرياض في العام 1966م، سافر إلى المملكة المتحدة ليتخصص في تحقيق المخطوطات، ويحصل على الدكتوراة في هذا المجال من جامعة أكستر عام 1976م، ليعود لاحقاً إلى وطنه، ويعمل مدرساً في قسم اللغة العربية بجامعة أم القرى.

بعد ذلك بعام، انتقل إلى قسم اللغة العربية في كلية الآداب في جامعة الملك سعود

* صحافي سوداني

للعمل أستاذاً غير متفرغ للأدب العربي القديم.

إنتاجه العلمي

وبموازاة التدريس، عمل الدكتور المانع على تحقيق أكثر من خمسة عشر كتاباً، ونشر عدداً كبيراً من البحوث والدراسات. وقد أشار بنفسه إلى هذه الكتب في الكلمة التي ألقاها في احتفال تسلم الجائزة، قائلاً إن رحلته مع تحقيق التراث ونشره قد بدأت منذ ما يزيد على ربع قرن، وأن «أولى البدايات في هذا الجانب كانت نشر المنتخب من كتاب الشعراء» وهو كتاب يناقش فيه مؤلفه الفقيه الزاهد أبو نعيم الأصفهاني موضوع الإسلام والشعر».

ومن هذا الكتاب انتقل الدكتور المانع إلى تحقيق مجموعة كتب حول الشعر العربي ونقده، وصولاً إلى شعر أبي الطيب المتنبي، الذي نشر فيه عدد من الكتب، ولا يزال حتى اليوم «في ضيافة أبي الطيب» على حد تعبيره.

ولم ينس الدكتور المانع حق المرأة في جهوده العلمية، إذ نشر كتاب ابن مرزبان «من توفي عنها زوجها فأظهرت الغموم وباحت بالمكتوم»، ويقول الدكتور المانع حول هذا الكتاب إن مؤلفه دوّن فيه وفاء المرأة لزوجها الذي اختطفته المنية منها، فرثته بشعر بكائي حزين في منتهى الجمال.

ومن الكتب التي حققها الدكتور المانع قبل أن يغوص في عالم المتنبي، كتاب «الزهر الباسم في مديح الأجل أبي القاسم»، الذي احتفى به المستشرقون الإيطاليون، وتُرجم مؤخراً إلى الإيطالية.

همة لا تفتر

إن ما حققه الدكتور المانع من كتب، وعشرات الدراسات البحثية في جوانب مختلفة من التراث الأدبي وفي اللغة، قد يعطي انطباعاً نمطياً عنه بأنه ذلك العالِم الذي لا يغادر مكتبه ومكتبته. ولكن لهذا العالِم سيرة تقول عكس ذلك، وتعكس همته ونشاطه الكبير، خارج مكتبه الخاص.

فهو إلى جانب عمله الأكاديمي ناشط في عدد من المراكز العلمية والأدبية. إذ إنه عضو اللجنة العلمية في مركز حمد الجاسر الثقافي، وعضو مجلس إدارة النادي الأدبي بالرياض، وعضو الجمعية العربية السعودية للغة العربية. كما أنه عضو هيئات تحرير واستشارات في عدد من المجلات مثل مجلة «العرب» التي تصدر في الرياض، و«عالم الكتب»، و«عالم المخطوطات والنوادر»، ومجلة «الدرعية»، و«المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها» التي تصدر عن جامعة مؤتة في الأردن.. ناهيك عن مشاركته في العديد من المؤتمرات والندوات في المملكة وأستراليا وبريطانيا والهند وإيطاليا وتونس ومصر والأردن.. ومنذ ثلاثين عاماً، لا يزال يشارك في الندوات الأسبوعية التي يقيمها قسم اللغة العربية بجامعة الملك سعود.

ويفصح المانع عن سبب حرصه على هذه الهمة العالية في البحث العلمي، بالإشارة إلى نصيحة أستاذه في لندن الذي أرشده إلى الذهاب الى المكتبة فور وصوله للرياض، وكتابة بحث ونشره، لأن التأخير في النشر تبرد الهمة، وتذهب الحماسة، محذراً إياه من أن العكوف على القراءة والكتابة من دون النشر سيؤدي إلى الإدمان والتكاسل عن النشر.

وعملاً بهذه النصيحة ذكّر في كلمته عند تسلمه الجائزة من خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز بأن «نشر هذ التراث محققاً تحقيقاً علمياً، وطبعه، وتهيئته للدارسين والباحثين يُعد الوسيلة الوحيدة للتواصل معه، ومن دون ذلك تنقطع صلتنا بعلومنا المعرفية على اختلافها من فقه، وأدب، ولغة، وتاريخ، وعلوم طبيعية».

وهو مع اعترافه بأن «الكتابة والتحقيق والبحث عن المخطوطات ليس بالأمر اليسير السهل فهو متعب ولكنه ممتع».

تواضع الكبار

لا يفصح المانع عن لقبه العلمي، ولا يدونه بأي شكل في تعاملاته، في تواضع حقيقي لا ادعاء فيه. وكأنه يقول بذلك إن الإنسان يكشف عن معدنه من دون حاجة إلى وجاهات اجتماعية، وأن اللقب الذي يحمله الإنسان يبقى من دون قيمة إذا لم يتنزل على أرض الواقع في العمل والسلوك.. إنه التواضع المعبر عن الثقة القصوى في النفس.

فعندما أقيمت الاحتفالات بحصوله على جائزة الملك فيصل، ودبجت كلمات المديح والتقدير بحقه، كان يؤكد في كل مرة أن ما قيل عنه يفوق الحقيقة بكثير. وكان تعليقه هذا يجيء تلقائياً وخالياً من أي تصنع أو مجاملة.

ولم يجرف النجاح الدكتور المانع بعيداً عن جذوره. فمن يمتلك في نفسه مثل هذا التمسك بالتراث والأصالة، لا بد وأن يعيش قناعته هذه ويطبقها على حياته الشخصية. ولذا رأيناه غداة نيله جائزة الملك فيصل، يهدي هذه الجائزة إلى مدينة شقراء وأهلها، اعترافاً بفضلها عليه.

واعترافاً بفضله على الجامعة التي انتمى إليها طالباً وأستاذاً لائقاً بمقامها كواحدة من منارات التعليم الجامعي في الوطن العربي، وما قدَّمه لطلابه فيها، فقد قررت جامعة الملك سعود في احتفالها بالدكتور عبدالعزيز، تخصيص كرسي بحث باسمه في مجال اللغة العربية وآدابها، يكون مشرفاً عليه، كما منحته إضافة إلى المكافأة المالية، الميدالية الذهبية للجامعة.



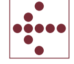
جماليات الأدوات العلمية الإسلامية

Getty Images

صفحة من الشاهنامة تصوِّر العالِم قطب الدين وعدداً من العلماء في المرصد الفلكي الذي بناه السلطان مراد الثالث عام 1581م

عندما يدور الحديث عن الفن الإسلامي بشكل عام، فغالباً ما تتجه الأنظار إلى منجزاته الكبيرة في مجالات مثل العمارة والخط والمنمنمات وما شابه. ونادراً ما يدور الحديث عن مجالات أخرى قد تكون بقيت في الظل مقارنة بغيرها، لا لشيء، إلا لأنها أصغر حجماً، أو لأن اكتشاف عبقريتها الفنية يتطلب بعض الجهد. ومن أبرز هذه المجالات عالم الأدوات العلمية وصناعتها.

الدكتور رباح مسعود[1] ووليد العجمي[2] يسلطان الضوء هنا على عالم هذه الأدوات الصغيرة والمكانة التي يحتلها الفن في صناعتها، سواء أكان ذلك على مستوى زخرفتها، أم على مستوى تصميمها ككل، بحيث باتت الأداة الواحدة تستأهل اليوم مكانها في المتاحف العلمية أو الفنية على حد سواء.



في طريق ضيِّق متفرع من سوق الحميدية الشهير في دمشق، يقوم مبنى حجري، ذو باب تعلوه المقرنصات. إنه «البيمارستان النوري» أو المستشفى الذي بناه نور الدين زنكي في القرن الثاني عشر الميلادي، وتحوَّل اليوم إلى متحف لتاريخ الطب والعلوم عند العرب.

ومن يجول في قاعات هذا المتحف المتوسط الحجم، يشعر وكأنه يتأرجح ما بين تاريخ العلوم وتاريخ الفنون. فالنصوص التي تشرح ما هية المعروضات تتحدث عن وظيفتها الطبية أو العلمية، ولكن ما تراه العين يتجاوز ذلك. فالأدوات النحاسية غالباً ما تكون مزدانة بزخارف لا علاقة لها بوظيفتها، والأشكال العامة لبعض القطع تبدو مصاغة وفق إحساس بالتناسق يتجاوز الوظيفة المطلوبة من هذه القطعة أن تؤدي (مثل أجران سحق الأعشاب والأدوية). وقد يبلغ المزاج الفني ذروة رضاه عما تراه العين في رسوم المخطوطات الطبية والعلمية، بحيث لا يعود الذهن مكترثاً بـ «المعلومات» الواردة فيها، بقدر ما ينصبّ الاهتمام على جماليات الرسوم وألوانها وأناقتها.

1 أكاديمي بريطاني وباحث في التراث الإسلامي
2 باحث في التراث الإسلامي مقيم في هولندا

سقنا هذه المقدمة للإشارة إلى الطابع الفني والجمالي الذي أسبغه العلماء والحرفيون المسلمون على أدوات علمية وعملية كان يمكنها أن تكتفي بأقل من ذلك.

إشكالية العلاقة بين الوظيفة والشكل

لكي نفهم عبقرية تزاوج الفن والعلم في الأدوات العلمية الإسلامية يمكننا أن ننطلق من واقع الأدوات العلمية في العصر الحديث، وهو، شئنا أم أبينا، مصاغ وفق «فلسفة» الصانع الغربي عموماً.

تفرِّق «الفلسفة» أو «الرؤية» الغربية ما بين «الفن» و«الصناعة» و«الحرفة»، وتقسم الفن إلى مراتب منها «الفنون الكبرى» مثل العمارة والرسم والنحت، و«الفنون التطبيقية» التي تسمى أحياناً «الفنون الصغرى» مثل حفر الميداليات وزخرفة الأطباق والأدوات التزيينية وما شابه ذلك. ومنذ بداية الثورة الصناعية، وبداية الإنتاج بالجملة للبيع إلى الجمهور العريض، حصل ما يشبه التوفيق ما بين وظيفة الشيء وشكله الخارجي، الذي كلما كان جميلاً كلما ازدادت جاذبيته وراج أكثر من المنتج القادر على

تأدية الوظيفة نفسها إن كان أقل جمالاً. وهكذا ظهر «فن التصميم».

في الحضارة الإسلامية تختلف هذه الفلسفة تماماً. إذ لم يصنف المسلمون الفنون إلى كبرى وصغرى، ولم يرسموا أي حدود ما بينها. وأكثر من ذلك، فإلى جانب «العلم» الذي يعني المعرفة والدراية بحقيقة الأمور، فإن ما نسميه اليوم فناً كان العرب قديماً يسمونه «الصناعة» أو «الصنعة»، وممارسه هو «الصانع»، أما التقنية والمهارة في استخدامها، فهي ما سماه العرب «الفن». وهذه الرؤية المميزة والخاصة جداً هي التي سمحت للعرب والمسلمين بردم الهوة القائمة ما بين الجمال ووظيفة الشيء، لا بل مكنتهم من إيجاد تناغم وتكامل ما بينهما، وبشكل أعمق وأوضح حتى مما وصل إليه فن التصميم الصناعي الحديث الذي يبقى مقتصراً على السلع الاستهلاكية الموجهة إلى الجمهور، في حين أن تصميم الأداة العلمية الإسلامية كان غاية بحد ذاته لا يسعى إلى إرضاء أي جمهور غير صاحب القطعة ومستعملها، الذي غالباً ما يكون صانعها في الوقت نفسه.

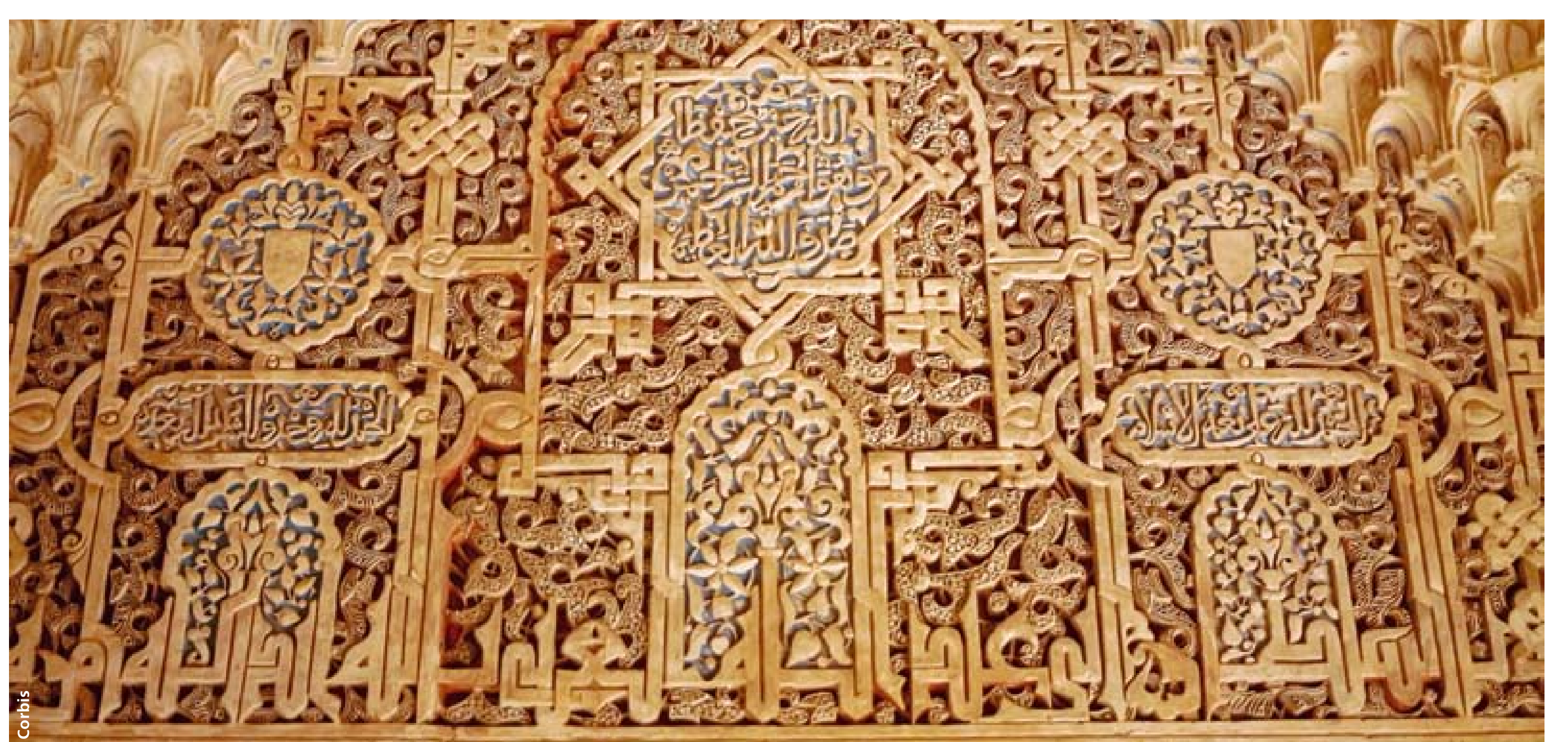
إن ما نسميه اليوم فناً كان العرب قديماً يسمونه «صنعة». أما التقنية والمهارة في استخدامها فهو ما سموه «الفن»

الرياضيات في خدمة الفن

كان علم الرياضيات، وتحديداً الهندسة الأوقليدية، من أول العلوم التي شغف بها العرب. فترجموا المؤلفات اليونانية فيها، ولكنهم، وبسرعة، تجاوزوا في الاستفادة من هذا العلم ما كان قد توصل إليه اليونانيون. وكانوا السباقين إلى تسخير الرياضيات في مجال الفنون. فالأشكال الهندسية البسيطة كانت منطلقاً إلى تصميم أشكال أكثر تعقيداً استخدمت لاحقاً في فن الزخرفة الهندسية. أما الحسابات الرياضية المعقدة فقد سمحت لهم ببناء القباب والأقواس والمقرنصات.

واستطراداً، نشير إلى أن الفن الهندسي أو الأرابيسك، الذي يبدأ تأليفه من شكل هندسي بسيط يتكرر ليشكل متاهة هائلة من الخطوط والأشكال الهندسية المتداخلة، يبقى بصرياً وحدة واحدة، فمجموعة كبيرة من المثلثات مثلاً تبقى تؤلف مثلثاً واحداً.. فقد رأى الفنان المسلم في هذا الفن تعبيراً رمزياً للتوحيد بكل أبعاده. وانتشار الزخرف الهندسي بهذا الشكل في العمارة الإسلامية يدل على استيعاب العامة لهذا المعنى. ولذا كان من الطبيعي أن يُسقَط هذا الفن على مجالات أخرى غير العمارة، ليصبح أقرب إلى توقيع الفنان – الحرفي المسلم، أياً

كساء الأسطح بألوان متعددة من الزخرفة غايتها التعبير عن صيغة جمالية مجسدة لمفهوم فلسفي وروحي هو مفهوم الإسلام كما يظهر جلياً على جدران الحمراء بغرناطة





الخزف والمعدن، ذروة الاندماج بين جمال الشيء ووظيفته الحية

كان مجال عمله وإنتاجه. وفي المكتبة الوطنية في فرنسا، توجد مخطوطة لمؤلف مسلم مجهول، بعنوان «مدخل إلى الأشكال المتشابهة والمتناغمة» ومن مقدمة الكتاب نفهم أن مؤلفه يتوجه به إلى الحرفيين.

العصر المفصلي للمعادن والمخطوطات

يعد القرنان العاشر والحادي عشر الميلاديين، فترة مفصلية في مجال تزاوج الفن بالعلوم عند العرب.

ففي العام 973م، ولد العالِم العربي الكبير أبو الريحان البيروني، الذي انتهى في العام 1035م، من تأليف كتابه الشهير «الجماهر في معرفة الجواهر» الذي يصنف فيه عدداً كبيراً من المعادن الثمينة، وسبق العالم الفرنسي لافوازييه بثمانية قرون إلى دراسة الثقل النوعي للعناصر. وإضافة إلى التصنيف، يتضمن كتاب البيروني وصفاً للمعادن الصالحة للاستخدام في الفن والصناعة.

أعطى كتاب البيروني دفعاً كبيراً طوَّر كل تقنيات الصناعات القائمة على المعادن الطبيعية بدءاً بصهر الفضة والذهب وانتهاءً بصناعة الخزف والطلاء بالميناء.

ويرجح المؤرخون أن صهر المعادن واستنباط معادن مركبة كان قد أصبح فناً قائماً بحد ذاته في تلك الفترة وخاصة في بلاد فارس وشرقيها. ولكن الغزو المغولي في القرن الثاني عشر، دفع بالحرفيين المهرة باتجاه الشام ومصر، حاملين معهم مهاراتهم في صنع الفولاذ وتكفيته بالفضة والذهب. وفي تلك الفترة، وربما في دمشق، ظهو الفولاذ ذي الكثافة العالية من الكربون، والصلب جداً، لصناعة السيوف، وسمي هذا الفولاذ بالجوهر. ونظراً لصلابته، وأيضاً لتكلفة إنتاجه المرتفعة نسبياً، صار لاحقاً (بعد انتهاء الحروب الصليبية) المعدن المعتمد لصناعة المقصات ومباضع الجراحين وأدوات الكتابه وما شابه ذلك.

ومن الصدف العشوائية التي تعزز مكانة القرن الحادي عشر كمفصل تاريخي، هو أن أول مخطوط عربي مصور وصل إلينا هو مخطوط علمي في علم الفلك لعبد الرحمن الصوفي، أنجزه ابنه عام 1009م. وتم نسخه مئات المرات خلال القرون التالية، وصولاً إلى النسخة المحفوظة في المكتبة الوطنية في فرنسا والتي كتبت ورسمت في سمرقند حوالي العام 1430م.

ولم يقتصر رسم الأجرام السماوية ومواضعها بالنسبة إلى بعضها على المخططات، بل امتد ليطال أطباق السيراميك والنحاس. وقد شكلت مجموعة مما وصلنا من هذه الأعمال مادة معرض خاص أقيم في متحف اللوفر في فرنسا.

وفي العام 2005م، أقام معهد العالم العربي في باريس معرضاً بعنوان «العصر الذهبي للعلوم العربية»، وفي الكتاب



الزخرف المعدني والخط الكوفي الرائع على الأسطرلاب

المرافق للمعرض، كتب الباحث إيف بورتر فصلاً بعنوان «الفنون والعلوم» يقول فيه: «إن العلوم، وبشكل خاص في مجال الفلك، تعطي الفن الإسلامي قيمة توثيقية مهمة. إن المخطوطات العلمية المصورة تُعد بالمئات، وإذا كنا نتطلع إلى قيمة رسوماتها على أنها أمثلة توضيحية، فلا يجب التنكر لكون هذه الرسوم من إنتاج فنانين حقيقيين».

رسوم النباتات والأعشاب الطبية أسست لفن الرسم التوثيقي الذي لم تعرفه أوروبا إلا بعد قرون

الرسوم «ما فوق الوثائقية»

ما يقوله بورتر عن مخطوطات علم الفلك ينطبق بشكل أوضح على المخطوطات الطبية. فقد اعتنى الأطباء العرب بشرح ما توصلوا إليه في العلوم من خلال إضافة رسومات توضيحية إلى مخطوطاتهم. وعلى الرغم من أن القيمة الأساسية لبعض هذه الرسومات عندما تكون متعلقة بجسم الإنسان هي في الدرجة الأولى علمية، فإن المتأمل فيها لبعض الوقت يلاحظ مدى العناية التي أولاها الطبيب للخط واللون وتوزع عناصر الرسم على الصفحة. ولكن إذا كان اكتشاف هذه النزعة الفنية يتطلب حساسية معينة عند المشاهد، فإن رسوم الأعشاب والنباتات والزهور الطبية تكاد تتباهى بقيمتها الفنية على حساب قيمتها العلمية.

إن رسوم النباتات والأعشاب الطبية التي أبرزها الفنانون- الأطباء لمخطوطاتهم، تعد اليوم أقدم ما وصلنا من فن «الرسم التوثيقي»، رغم أن أقدمها يعود إلى القرن الثاني عشر الميلادي.

ويهدف هذا الفن الذي لم يزدهر في أوروبا إلا بعد عصر الرحلات والاكتشافات الكبرى في القرن السابع عشر، إلى رسم النبات أو الحيوان بدقة كبيرة بحيث تبدو صورته مشابهة حتى أقصى حد ممكن لما هو عليه حقيقة. ومن يقارن اليوم رسوم الأعشاب والزهور والحيوانات في المخطوطات الطبية العربية، بالرسوم التوثيقية التي أنجزها الأوروبيون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، يلاحظ فوراً فرقاً كبيراً يتمثل في حضور المزاج الشخصي للفنان المسلم، وانعكاسه على الرسم، بخلاف ما هو واقع الحال في الرسوم الأوروبية. بحيث لا يعود من المبالغة القول إن الرسوم الإسلامية في هذا المجال هي «ما فوق التوثيقي». إنها أعمال فنية متكاملة، ذات قيمة تتجاوز إلى حد كبير قيمة المعلومات التي تحملها، ولا تزال قادرة على مخاطبة الوجدان بخطاب حي، حتى بعد قرون من فقدانها لبريق الاكتشاف العلمي أو حداثة المعلومة التي تحملها.

الكتاب.. كان صنعة فنية متكاملة

مبدأ النافع الجميل

إن معظم منجزات المسلمين في ميادين العلم والصناعة كانت تخضع لمعيار «النافع الجميل» الذي كان دائماً بالنسبة إليهم أعلى مرتبة من النافع القبيح. ففي مجال العمارة الإسلامية التي يعرفها الجميع مثلاً، فإن العبقرية تتجسد في مواءمة حسن الشكل مع أداء المبنى لوظيفته على أفضل وجه. وإذا كان يسهل اكتشاف ذلك في التحف المعمارية الكبرى مثل المساجد التاريخية الشهيرة والقصور، فهذا لا يعني أن هذا المفهوم كان غائباً عن المنجزات العمرانية الأقل شأناً وشهرة، وصولاً إلى بيوت العامة، وإن كان التعبير عن الإحساس الجمالي في هذه الأخيرة هو أقل أبهة وأكثر تواضعاً نظراً لتواضع الإمكانات المادية. ففي هذا المجال يقول الدكتور عفيف البهنسي إن الهندسة الإسلامية ليست مجرد حيز لاستيعاب وظيفة سكنية أو اجتماعية معينة وحسب، بل هي صيغة جمالية مجسدة لمفهوم فلسفي وروحي هو مفهوم الإسلام.

ولو انتقلنا من العمارة إلى ميادين علمية عديدة، لوجدنا أن مبدأ «النافع الجميل» يبقى مجسداً حتى الحدود القصوى التي تسمح بها وظيفة الشيء، وصولاً إلى الآلات والأجهزة التقنية والأدوات الحرفية التي صنعها المخترع والحرفي المسلم، سواء أكان ذلك جهازاً علمياً مثل جهاز


wikipedia

تصميم الساعة الفيل التي اخترعها الجزري

الأسطرلاب الشهير، أم مبضعاً لطبيب جراح أو كشتبان لإصبع الخياط.

إن الأسطرلاب مثلاً، مجرد جهاز يستعمل في الحسابات الفلكية لتحديد مواضع النجوم والكواكب، كما أن لبعض طرزه بعض التطبيقات الجغرافية الأرضية. ولكن نماذج عديدة من الأسطرلاب العربي ارتقت من حيث صناعتها إلى مستوى التحف الفنية بسبب زخرفتها، وتزاوج الزخرف الهندسي فيها مع الخط الكوفي وغير ذلك من العناصر التزيينية. فوظيفة الفن كما يجسدها الأسطرلاب، هذه الأداة العلمية الجافة، هي في الإتقان، بحيث يصبح الجمال جزءاً أساسياً من كمال الصنعة. وحين يبتعد الفن عن أداء هذه الوظيفة، فإنه يفقد نفعيته، وربما أهميته. ولذا، فإن المتاحف والهواة المتخصصين في جمع أجهزة الأسطرلاب أو دراستها، غالباً ما يتوقفون أمام كل واحد منها حول ما إذا كان العالِم الذي صنعه زخرفه بنفسه أم أوكل هذه المهمة إلى فنان آخر.

وفي علم الميكانيكا أيضاً

يمتد هذا المفهوم للفن حتى أكثر المجالات العلمية برودة وأبعدها عن الخضوع للمزاج الفني، مثل علم الميكانيكا أو علم الآلات، الذي سماه العرب قديماً «علم الحيل». ولنا في أعمال المهندس الجزري خير دليل على ذلك.

فقد عاش هذا المهندس في ديار بكر بجنوب شرق تركيا، وكان رائد الميكانيكا في العصور الوسطى، وحظي بشهرة كبيرة بفضل صناعته للساعات المائية، أو المتحركة بفتائل القناديل، وآلات القياس، والنافورات، والآلات الموسيقية، ومضخات رفع المياه من الآبار، وذلك على مدى خمسة وعشرين عاماً. وقد كان لأحد سلاطين بني أرتق بديار بكر، وهو السلطان ناصر الدين محمود، الفضل في توجيه الجزري إلى جمع هذه التصاميم في مخطوط حتى يستفاد منها لاحقاً. وهكذا وصلت إلينا تصاميم هذه الأجهزة في مخطوطه الشهير «الجامع في صناعة الحيل».

ففي الساعة الفيل، تظهر شخصية الجزري على أنه مهندس بارع وفنان ماهر. إذ إن هذه الساعة تجسد نموذجاً فريداً من التكنولوجيا الإغريقية والإسلامية، مكسوة بحيلة فنية بديعة تتألف من مجسم لفيل ضخم يحمل الساعة، ويحوي في بطنه على القسم الميكانيكي العامل وفق قانون أرخميدس، وأمام الفيل يوجد الحادي الذي يقوده، وخلفه مباشرة يوجد الناسخ الذي يحمل قلماً نحاسياً يرسم خطوطاً على دائرة نحاسية، وحركة يد الناسخ الدائرية مرتبطة بالنظام الميكانيكي داخل الفيل، وإضافة إلى ذلك، استخدم الجزري أفعيان صينيان للدلالة على القوة والمنعة، وظيفتهما نقل الكرات الفولاذية من صقران يعلوهما، إلى مزهريتين نحاسيتين، مما يؤدي إلى تحريك

مطرقة الفيل التي تضرب الصفيحة النحاسية معلنة عن اكتمال الساعة.

لقد استخدم الفنانون المسلمون الصقر في العديد من المناسبات والمواضع للدلالة على القوة والصرامة. أما الأفعى، فقد استخدمت، خاصة في عصر الأيوبيين للدلالة على المهابة، كما هو موجود فوق المدخل الرئيسي لقلعة حلب. أما إطار الساعة المحمولة على ظهر الفيل، فهو مزركش بالزخرف الهندسي الفائق الدقة والجمال. أما في أعلى الساعة، فقد ختم الجزري تحفته بمجسم يرمز إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي محرر القدس وطارد الصليبيين، وكأنه يحتفل بهذا الإنجاز العظيم، الذي كان الجزري قد عاصره عام 1187م.

لم يكن الفن الإسلامي في أية مرحلة مقتصراً على فئة دون أخرى، كحال الفن الأوروبي والنبلاء، بل كان شائعاً وسط مختلف شرائح المجتمع

وظف الجزري هذه الدقة المتناهية في الخصائص الميكانيكية والجمالية في أعماله الأخرى، ومنها على سبيل المثال ساعة الحصن، التي هي أيضاً ساعة ضخمة، تحوي مجسمات لصقور، وزخرفاً هندسياً ونصاً بالخط الكوفي.

إن مثل هذا الحس الفني المرهف، ميَّز معظم منجزات العلماء والمخترعين المسلمين. فلو عدنا إلى المخطوطات مثلاً، لوجدنا أن العناية بإنجازها فرضت الاعتماد على العمل وفق مراحل. تبدأ بأن يقوم صاحب الكتاب باختيار الورق، ثم يبدأ النسخ، وإن كان لا يتقن ذلك، كان يكلف ناسخاً يتقن الخط، وبعد اكتمال النسخ، يحمل المؤلف مخطوطه إلى المزخرف والمذهب ليزخرفه ويجمله. وفي مرحلة ثالثة يأخذه إلى المجلد، حيث يعتمد شكل الغلاف وزخرفته بناءً على توافق ما بين المؤلف والمجلد. فالمسلمون هم أول من ابتكر فن تجليد الكتب وزخرفتها، وسبقوا الأوروبيين إلى ذلك بقرون. ففن الغلاف الذي نراه اليوم تحصيل حاصل في أي كتاب، كان ابتكاراً مترفاً في العصور الوسطى، وفناً قائماً بحد ذاته عند المسلمين، عندما لم يكن كذلك عند غيرهم.

الذروة في دولة المماليك

يرى كثير من المؤرخين أن ذروة الإبداع الفني في الأدوات العلمية كانت في عصر دولة المماليك. وهذا الرأي له ما يبرره، أو يمكننا أن نتفهمه، نظراً لكثرة ما وصلنا من

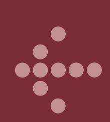


Corbis

جمال الرسم يوازي أهمية المعلومة ويزيد..

تلك الحقبة من أدوات علمية معدنية أوخشبية أو حتى مخطوطات، تحمل طابعاً فنياً يطغى في كثير من الأحيان على وظيفتها. ولكن أن نكون قد فقدنا الكثير من منجزات العرب والمسلمين السابقة لتلك الفترة، بفعل الحروب والغزوات التي تعرضت لها البلاد العربية، مثل الغزو المغولي والغزو الفرنجي في الحروب الصليبية، فإن ذلك لا يعني أن حال العلوم والفنون كانت أقل شأناً في الفترات السابقة.

فالفن الإسلامي لم يكن في أية مرحلة مقتصراً على فئة دون أخرى، أو منتشراً في طبقة دون غيرها، كحالة الفن الأوروبي في العصور الوسطى الذي كان حكراً على طبقة النبلاء، بل كان شائعاً ومنتشراً في كل مكان، ووسط مختلف شرائح المجتمع من دون تمايز أو تفاضل. وتدل على ذلك الأدوات المستخدمة في الحياة اليومية من أطباق، وقناديل ومشكاوات ومباخر وسكاكين ومقصات وأوعية حفظ الطعام، وأدوات الحرفيين من مطارق وأزاميل.. فالكل كان يتذوق الفن والجمال، حتى قيل أن جواز ابن خلدون في القرن الرابع عشر، الذي أهداه إياه محمد الخامس ملك غرناطة، كُتب شعراً.



يستضيف هذا الباب المكرّس للشعر قديمه وحديثه في حلته الجديدة شعراء أو أدباء أو متذوقي شعر. وينقسم إلى قسمين، في قسمه الأول يختار ضيف العدد أبياتاً من عيون الشعر مع شروح مختصرة عن أسباب اختياراته ووجه الجمال والفرادة فيها، أما الثاني فينتقي فيه الضيف مقطعاً طويلاً أو قصيدة كاملة من أجمل ما قرأ من الشعر.. وقد يخص الضيف الشاعر القافلة بقصيدة من آخر ما كتب.

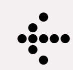
محمد الثبيتي

أنت والنخل فرعان
أنت والنخل صنوان

ديوان الأمس ديوان اليوم



ما من متذوق للشعر قرأ أعمال محمد الثبيتي، إلا وأفرد له مكاناً مميزاً على قائمة كبار الشعراء المعاصرين. وفيما يعمل نادي حائل الأدبي، حالياً، على جمع «ديوان محمد الثبيتي» الذي سيضم المجموعات الشعرية الأربع التي سبق أن نشرها، وبعض القصائد الجديدة، يتوجه أحمد إبراهيم البوق* بهذه التحية إلى محمد الثبيتي، شفاه الله، ويعرض لنا قراءته لعيِّنة محدودة من النماذج المختارة من شعره.



لا يذكر الشعر الحديث في الجزيرة العربية إلا مقروناً بمحمد الثبيتي، لا لشيء سوى أنه قامة فارعة في سماء الشعر، وقمة يصعب الوصول إليها فضلاً عن تجاوزها. شاعر مسكون بالتوجس الشعري، يمزق ويحرق أكثر مما ينشر من شعره على قلّته.

يقول: «مزقت من أوراقي الكثير.. وأحرقت الكثير.. وخنقت في صدري ولادات فجّة ينقصها الانصهار الكامل في عمق الجرح».

شاعر أصيل قادم من عمق الصحراء ومجاهل الجبال. لغة ومفردات شعرية ورؤية.. لا يدل شكله البسيط على قمة الشعر التي يتربع عليها باقتدار، وعمق الرؤية وصدق التنبؤ المبثوث في معظم شعره حتى حد الدهشة.

ولد الشاعر محمد الثبيتي في مدينة الطائف في 1952م وهو حاصل على بكالوريوس في علم الاجتماع ومرّت تجربته الشعرية بثلاثة اعترافات مهمة:

- جائزة أفضل ديوان شعري من نادي جدة الأدبي عن ديوانه «التضاريس» في أواخر التسعينيات الميلادية.
- جائزة أفضل قصيدة في الدورة السابعة لمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع والمنعقدة في الجزائر في 2000م عن قصيدته «موقف الرمال.. موقف الجناس».
- جائزة شاعر سوق عكاظ في دورته الأولى في 2007م عن مجمل إنتاجه الشعري.

قبل ثلاثة عقود، كتب الشاعر محمد الثبيتي مقدمة لديوانه الأول «عاشقة الزمن الوردي» جاء فيها: «منذ مدة طويلة، وأنا أورط نفسي في اقتحام مجاهل الشعر وذرع متاهاته المسحورة.. أحاول هزّ أفنانه اللدنة لتمطر لي الورد.. والفراشات والسوسن والأصداف.. وتمنحني الإكسير المتوهج الذي يهبُ الحبّ والحياة. وأدعو أشعته الملونة لتخضل في صدري.. وتورق بين أصابعي، وتلد لي السحر والرحيق «والقصيدة العصماء».

منذ ولادات الشعر بين يديه ومحمد الثبيتي يحاول اقتحام مجاهله. لغة سامقة عذبة، مفردات شعرية غارقة في المحلية، تكللها رؤية إنسانية عميقة. منذ قصيدته «فواصل من لحن بدوي قديم» من ديوانه الثاني «تهجّيت حلماً تهجّيت وهماً» وهو يقول:

«...رسم الشوق على أهدابه
لغة عليا
وعمراً مستحيلا
يتهادى شامخ الصوت
سماوي الهوى

---

* شاعر وكاتب سعودي



تنهل الصحراء من عينيه
موّال الصّبا الليلي
واللحن الجميلا».

مفرداته ولغته

مفردات البداوة جلية في شعره. إنها نموذج للنقاء الإنساني الذي لم تلوثه المدنية، ورمز للحكمة التي أجلتها التجارب القاسية، والنبوءة فيها فطرة.

ففي قصيدته «صفحة من أوراق بدوي» يقول:

«هذا بعيري على الأبواب منتصبُ
لم تعش عينيه أضواء المطارات

وتلك في هاجس الصحراء أغنيتي
تهدهد العشق في مرعى شويهاتي

. . . .
. . . .

أنا حصانٌ عصيٌ لا يطوّعه
بوح العناقيد أو عطر الهنيهات
أتيت أركض والصحراء تتبعني
وأحرف الرمل تجري بين خطواتي

. . . .
. . . .

يا أنت لو تسكبين البدر في كبدي
أو تشعلين دماء البحر في ذاتي

فلن تزيلي بقايا الرمل عند كتفي

ولا عبير الخزامى من عباءاتي».

اللغة عند الثبيتي أداة للرؤية وهي أداة مقدسة لا تباح ولا تستباح. فالشعر فن رفيع يكسب حضوره عند جمهور المتلقين من كيمياء المزج بين العذوبة والعمق، بين ملامسة الوجدان الحاضر واستشراف المستقبل. ففي ديوانه الثالث «التضاريس» يقول الثبيتي:

«مرحبا سيد البيد

إنا نصبناك فوق الجراح العظيمة

حتى تكون سمانا وصحراءنا

وهوانا الذي يستبدُ فلا تحتويه النعوت».

وفي ديوانه الرابع «موقف الرمال» يقول في قصيدته «موقف الرمال.. موقف الجناس»:

«بين أصابعي تتعانق الطرقات والأوقات».

ويقول في قصيدة «الأعراب»:

«ليتهم نظروني حتى أعود

فأرقيهم بالحروف التي لا تُرى

والحروف التي تتناسل تحت الثرى

والحروف التي لا تباح ولا تستباح».

شعر الثبيتي غناء شعري لا يُمل، لأنه ينهل من صفاء الإبداع. يقول في قصيدة «وضّاح»:

«صاحبي .. لا تملّ الغناء

فمادمت تنهل صفو الينابيع

شق بنعليك ماء البرك».

واللغة الشاهقة تطارد الشاعر ويطاردها وهي سمة في شعره.

يقول في ترتيلة البدء من ديوان «التضاريس»:

«من شفاهي تقطر الشمس

وصمتي لغة شاهقة تتلو أسارير البلاد».

النبوّة فطرة في الفنان المبدع إنها مقابلة للحدس الذي يستشف الآتي. يقول الثبيتي في (القرين) من ديوان «التضاريس»:

«أتدرك ما قالت البوصلة؟

زمني عاقر

قريتي أرملة

وكفي معلقة فوق باب المدينة

منذ اعتنقت وقار الطفولة

وانتابني قلق المرحلة».

أما في «البشير» فيقول:

«أنا آخر الموت ..

أول طفل تسوّر قامته

فرأى فلك التيه

والزمن المتحجر فيه».

أما في تغريبه القوافل والمطر فيقول:

«إنا سلكنا الغمام

وسالت بنا الأرض

وإن طرقنا النوى

ووقفنا بسابع أبوابها خاشعين

فرتل علينا هزيعاً من الليل

والوطن المنتظر».

ويقول:

«يا وارد الماء علّ المطايا

وصبّ لنا وطناً في عيون الصبايا

فما زال في الغيب منتجع للشقاء

وفي الريح من تعب الراحلين بقايا».

على امتداد الدواوين الأربعة التي أبدعها الشاعر محمد الثبيتي -شفاه الله- وحتى قصائده الأخيرة «الرقية المكية» و«بوابة الريح» ظل وفياً لقاموسه الشعري المتفرد، لغة شاهقة، مفردات شعرية مغرقة في الخصوصية الثقافية والجغرافية والاجتماعية، ورؤية إنسانية واسعة وعميقة. وكما هي عادة المبدعين دائماً، تمضي أشرعتهم بما لا تشتهي ريحهم وحيثما يكون القلق الإبداعي تكون القصيدة والوطن أينما تلقى المفاتيح.

بوابة الريح

محمد الثبيتي

مضى شراعي بما لا تشتهي ريحي ... وفاتني الفجر إذ طالت تراويحي

أبحرت تهوي إلى الأعماق قافيتي ... ويرتقي في حبال الرّيح تسبيحي

مزمل في ثياب النور منتبذًا ... تلقاء مكة أتلو آية الرّوحِ

والليل يسخر مني ثم يسألني ... بوابة الرّيح ما بوابة الرّيحِ

فقلت والسائل الليلي يرقبني ... والود ما بيننا قبض من الرّيحِ

إليك عنّي فشعري وحي فاتنتي ... فهي التي تبتلي وهي التي توحي

وهي التي أطلقتني في الكرا حلما ... حتى عبرت لها حلم المصابيح

فحين نام الدّجى جاءت لتمسيتي ... وحين قام الضحى عادت لتصبيحي

ما جردت مقلتاها غير سيف دمي ... وما على ثغرها إلا تباريحي

وما تيممت شمسًا غير صافية ... ولا طرقت سماء غير مفتوحِ

رسوم الموضوع: المحترف السعودي - عمر صبير

«تقاطع»
رجال مهزومون ومصائر متقاطعة



بعد روايته الأولى «ثرثرة فوق الليل»، ها هو صلاح القرشي يعود إلى القراء في روايته الثانية «تقاطع» التي تؤكد، ليس موهبة الكاتب فحسب، بل أيضاً أصالة الرواية السعودية المعاصرة لجهة انخراطها في نسيج الحياة والمجتمع. يحيى البطاط* يقرأ لنا هذه الرواية، ويعرض لشخصيات أبطالها، ويختار لنا فقرات معبرة عن بعض مفاصلها.

* ناقد من العراق

تواصل الرواية السعودية، منذ مطلع هذا القرن، تأكيد حضورها بقوة في دنيا السرد المدهشة، عبر سلسلة من الأعمال التي تصدى لها عدد من الروائيين الشباب..

حضور لم يفرزه كم الروايات الصادرة خلال العقد الأخير فحسب، إنما أكدته قدرة هذه الأعمال الأدبية على ملاحقة التغيرات الدراماتيكية التي لامست جوانب مهمة في حياة المجتمع السعودي والمجتمعات العربية المجاورة، إضافة إلى امتلاك تلك الأعمال لمسوغات فنية وثقافية أكدت تفوقها وقدرتها على الاستمرار بزخم لا يمكن تجاهله. وقد جاءت أعمال الكاتب السعودي صلاح القرشي على قلتها، لتؤكد هذا الحضور، سواء على مستوى المعالجة الفنية أو على مستوى الموضوع.

وتُعد «تقاطع» الصادرة في الرياض هذا العام 2009م عن دار وجوه للنشر والتوزيع، والتي سنسلط الضوء عليها في هذه القراءة، الرواية الثانية لهذا الكاتب المبدع، بعد روايته الأولى «بنت الجبل» الصادرة عن نفس الدار عام 2007م، ومجموعته القصصية «ثرثرة فوق الليل» الصادرة عن دار الشروق القاهرية عام 2004م.

وعلى الرغم من قصر رواية «تقاطع» التي لا يتجاوز عدد صفحاتها 120 صفحة من القطع المتوسط، فإن المؤلف استطاع عبر معماره الروائي المبتكر ولغته التي تميزت ببساطتها، وعفويتها وكثافتها، أن يختزل مصائر أبطاله، ويقدمهم للقارئ بحرارة وجرأة وصدق.

ثلاث شخصيات تتقاسم البطولة.. تلتف وتتقاطع خطوط مصائرها عبر ثلاث حكايات متوازية، لتنتهي في بؤرة واحدة اختتم بها المؤلف عمله، أشّرت عمق الأزمة الوجودية التي يعيشها أبطاله. أزمة الثقة بالمستقبل، وأزمة العلاقات الإنسانية وجدواها.

أول تلك الشخصيات، الراوي العليم، وسارد الحكايات الثلاث، الشاب المثقف الذي تتناسل أسئلته وشكوكه حول الكثير من القيم والأفكار السياسية والثقافية والاجتماعية السائدة في هذه المرحلة، وهو يستدرج في حواراته ومنولوجاته حزمة من المفاهيم المهيمنة، ويسعى لتفكيك الخطاب الاجتماعي والسياسي المرافق لها.

والثاني فرحان العص الشاب الهامشي، المنبوذ، ومتعاطي المخدرات، الذي يفشل في الدراسة والحب والحياة، ويتوج حياته بهزيمة ساحقة أمام أحلامه البسيطة.

أما الثالث فهو الكميت بن زيد الشاعر المتمرد على بني أمية الذي تمتد ظلاله عبر أكثر من ثلاثة عشر قرناً لتحيط بالرواية وأبطالها، وتشكل في الوقت نفسه، مرجعية ثقافية ونفسية لتبرير وربما تفسير،ما يدور في محيط الراوي من تقلبات سياسية واجتماعية عنيفة.

غير أن الحكايات ومصائر أبطالها الثلاثة، رغم تقاطعها عبر السرد فإنها تبقى محتفظة بحيواتها المستقلة وبقدرة هؤلاء الأبطال على بناء عوالمهم وتشكيل مصائرهم. وهذا ما تكشفه عن كثب صفحات الرواية.

البحث عن بطل

يعلن الراوي (الناطق الرسمي باسم المؤلف) في الجملة الأولى من عمله أنه كان ينوي كتابة رواية تاريخية عن حياة الشاعر الأموي الكميت بن زيد، المعروف عنه بأنه شاعر مجدد وثائر، ولد عام 60 للهجرة. غير أن حادثة غريبة غيرت اتجاه المشروع الروائي وزمانه، وجعلت المؤلف ينتقل من أحداث جرت في الكوفة في القرنين الأول والثاني الهجريين، إلى أحداث جرت في مكة في مطلع القرن الحادي والعشرين الميلادي.

بطل تلك الحادثة المفصلية هو فرحان العص، ابن الحي الذي يتشاركان السكنى فيه. فقد قلب العص احتفال زفاف إلى معركة دامية انتهت بنقل العريس (منصور الدبا) إلى المشفى، بعد أن انهال عليه ضرباً بعصاه وهما يرقصان معاً.

إن إحساس العص بالقهر والظلم والحرمان وقناعته بأن هذا العريس خطف منه بغير حق حبيبته (حنان الماجدي) التي هام بحبها منذ أيام الطفولة، جعلته يقدم على فعلته على مرأى ومسمع سكان الحي.

من هذه الحادثة أو النقطة، يباشر المؤلف بغزل مصائر أبطاله الثلاثة جنباً إلى جنب. فالكميت بن زيد، وعلى رغم تحول الراوي عنه، كبطل أوحد يبقى حاضراً بوصفه بطلاً مشتهى. يقول الراوي: «توقفت في منتصف العمل.. شعرت

ببؤس الكتابة وبؤس الموضوع.. وزئبقية حكاية الظالم والمظلوم» ويبرر في الوقت نفسه تحوله إلى كتابة رواية عن العص بقوله: «أصبح فرحان العص محور اهتمامي وتفكيري، فما فعله أسعدني مهما حاولت أن أقنع نفسي بأنه عمل شرير وانتقامي». ص7

ولكن من هو فرحان العص هذا؟

«سموه فرحان لكن الأم لم تعرف الفرح كثيراً بعد ولادته.. كسرها موت الأب وهي لا تزال حاملاً». ص25

وفي فقرة لاحقة نقرأ: «في المدرسة سموه العص لنحافته الشديدة.. واستمر هذا الاسم معه حتى كبر.. بل صار بديلاً لاسمه فيكفي أن تقول العص ليعرف الجميع أنك تتحدث عن فرحان..

لكن العص اليتيم والنحيف جداً لم يكن بالطفل الضعيف أو الجبان.. فكل من دخل معه في شجار من أطفال الحارة أو المدرسة عرف أنه ليس سهل الجانب.. وخصوصاً عندما يشعر بالظلم». ص26

> قلق شخصية الراوي وبحثه الدؤوب عن الحرية يحيلنا إلى شخصية اللامنتمي التي روَّج لها الكاتب الإنجليزي كولن ويلسون

وفي جملة أخرى جاءت في سياق مونولوج على لسان العص نفسه: «... أما أنت يا فرحان فلست سوى ... فاشل وعاطل، يحذر الجميع أولادهم من الحديث معك ومماشاتك، هذا غير إشاعات وحكايات لا تتوقف مملحة دائماً بالأكاذيب والزوائد». ص15

أوهام الحب

تكتمل عناصر شخصية العص من خلال نموها الدرامي في إطار علاقته المتوترة، بثلاث شخصيات: أمه التي فقدت زوجها وهي لم تزل حاملاً به، فرأت في الطفل الوليد ملاذاً لحلمها الأخير.. أن ينجح ويشق طريقه إلى الجامعة ويعوض عليها خيبتها بأشقائه الفاشلين، ثم شقيقه الأكبر، جابر، جندي المرور الذي يلعب مؤقتاً دور الأب، ثم سرعان ما يتحول هذا الدور الأبوي إلى تجاهل، يعززه شعور متبادل بالامتعاض والريبة بين الشقيقين، بسبب نزق فرحان وانفلاته، ورغبته في تحقيق ذاته بأي ثمن.

وأخيراً حنان الماجدي، ابنة الحي، الحبيبة المفترضة التي يتوهم العص معها قصة حب... حب من طرف واحد، مبتور، وسلبي، بناه العص على استيهامات ورغبات مكبوتة، تستلهم حرارتها من ذكريات طفولية هشة، وأحلام يقظة لا تنتمي إلى الواقع.

غير أن العص المحبط، والمحطم عاطفياً، يجد نفسه مستدرجاً إلى شلة يقودها أبو هند تتعاطى وتتاجر بالمخدرات، وفي خضم علاقته المريبة بهذه الشلة يكتشف العص ذاته، ويقع في الوقت نفسه بغرام (سحر) الفتاة الهاربة من مصيرها وماضيها، بعد أن تملك لب الفتى وتستحوذ على اهتمامه: «حديثها جميل وصوتها هادئ لا يكاد يسمع، بيضاء شعرها طويل.. ولولا كسر في إحدى أسنانها لكانت ابتسامتها مجنونة» هكذا وصفها العص، وبسببها صار لا ينقطع عن أبي هند الذي قال له:

- «مونها وخذها». ص77

لكن هذا العرض المخادع من أبي هند يجر العص، إلى إخفاق جديد، عندما ترفض الفتاة، رغم إعجابها، الارتباط به كحبيبة، أو كزوجة، وعلى عتبة هذا الرفض لا يتحطم قلبه فحسب، بل تتحطم حياته بأسرها ويقع في قبضة الشرطة التي كانت تراقب نشاطه المشبوه، وهو متلبس بحيازة كمية كبيرة من المخدرات في غرفته.

الراوي العليم

إن قلق شخصية الراوي، وبحثه الدؤوب عن الحرية بمعناها الإنساني العميق أحالني إلى شخصية اللامنتمي التي روَّج لها الكاتب الإنكليزي كولن ولسون في كتابه الشهير الذي ترجم إلى العربية في سبعينيات القرن الماضي، فتماهيه مع شخصية العص من جانب، أنهما عاشقان صامتان لنفس الفتاة (حنان الماجدي) وإعجابه بشخصية الشاعر الأموي الثائر الكميت بن زيد من جانب آخر، وارتباك علاقته بزوجته وأبنائه، ورغبته في فهم ما يجري حوله من أحداث وأفكار، من دون الركون إلى الحلول والمقولات الجاهزة تجعل منه شخصية مثالية للوصف الولسني.

تسأله زوجته:

«- ما صلحت نفسك وبيتك وتبغي تصلح الكون.

لا أريد إصلاح شي أبداً يا زوجتي العزيزة.. أريد أن أتأمل الكون فقط.. أتأمله دون إزعاج ولا قلق، دون قيود لدي طاقات لا تستوعبها الأشياء...».



وفي لعبة فنية بارعة يتحرر الراوي من المتن الروائي، ويستحوذ على مساحة حرة تشبه حالة العازف المنفرد على آلة واحدة بين جوقة العازفين، مساحة يبث من خلالها مقولاته، وشكواه، وينسج إلى جانب المتن نصاً موازياً، يتراوح بين الأخلاقي والأيديولوجي والفلسفي والفكري، يشرح ويبرر ويفسر، وينتقل عبر الزمن والأحداث بحرية مطلقة، مسترشداً بنصوص مستلة من التاريخ، أو مجتهداً في تقديم تحليلات وآراء عن الحب والزواج والانتقام والتعصب والديمقراطية والتخلف، واليمين واليسار، وصدام حسين ومقتدى الصدر.

تتقاطع حيوات هؤلاء الأبطال، غير أن التقاطع الأوضح هو أنهم ثلاثة أبطال مهزومين

غير أن لعبة كسر الإيهام التي انتهجها الراوي، تبلغ ذروتها في واحدة من أكثر فقرات الرواية إمتاعاً، فقد أسهب في تحليل فني وموضوعي لاختيار النهاية المناسبة للبطل فرحان العص:

«نهاية عادية ودرامية تماماً، البطل الذي يبيع المخدرات تقبض عليه الشرطة، كنت واعياً لهذا الأمر، بل وفكرت في تغيير النهاية، ماذا لو سمع العص أصواتهم وهم يصعدون الدرج فنهض سريعاً لينزل كقرد على ماسورة المجاري التي لا تبعد كثيراً عن نافذة غرفته، ثم ليختفي فلا يبقى له أثر.

ماذا لو أن مكافحة المخدرات لم تأت أصلاً ولم تعلم بشأن العص وبضاعته الممنوعة، هناك الكثير حتماً ممن يبيعون المخدرات ولا يدري بهم أحد، لتمضي حياة الرجل كما كانت، يقضي أغلب النهار نائماً في غرفته ويمضي أغلب الليل في استراحة أبي هند حيث يتشكل حبه الجديد لسحر..».

كما يفلسف الراوي نهاية العص ويشبهها بنهاية الكميت بن زيد فكلاهما لم يختر نهايته الممتلئة بالمفارقة، فنهاية العص كانت عادية وبسيطة -كما يقول- لسبب بسيط جداً هو أننا لم نخترها. مذكراً بشطر من بيت شعري للكميت طالما ردده الراوي:

«اليوم عدت إلى أمية والأمور لها مصائر».

المفارقة أن الراوي يكتشف أنه تحدث عن نفسه أكثر مما كان يتمنى. فيقول معترفاً:

«عندما أعدت قراءة ما كتبت، وجدت أن ما كتبته عن نفسي يفوق المكتوب عن العص. قلت (لا يهم فنحن نتقاطع كثيراً)». ص 108

نعم، تتقاطع حيوات هؤلاء الأبطال كثيراً أو قليلاً، غير أن التقاطع الأوضح هو في أنهم ثلاثتهم أبطال مهزومون، الكميت بن زيد هزمته أفكاره الثورية وشجاعته وأودت بحياته، والعص عاشق سلبي ومتهور وفاشل في الحب، ولا يستطيع مواجهة أسئلة الحياة.

أما الراوي فقد هزمه خوفه في مواجهة اشتراطات الحرية التي يحلم بها، فعاد إلى زوجته التي سبق وأعلن ضجره منها. بل إنه ترك شريكيه وصاحبيه في لعبة التقاطع يواجهان مصيرهما المحتوم، مقتل الكميت، ونهاية العص في السجن، بينما كان هو يمضي استراحة استجمام في شاليه في أبحر!!

مقتطفات

«تقاطع»..
مقتطفات من الرواية

من الفصل الرابع..

فرحان وجه الشؤم

ليلة سابع فرحان كانت ليلة لا تنسى، أما اسمه فله حكاية، فقد اختاره له أخوه الأكبر وكأنه يقول لجميع من في البيت كفى حزناً..

لفرحان أربعة أخوة..ابنان وبنتان.. أكبرهم جابر جندي في المرور وهو الذي أصبح بمثابة الأب البديل لفرحان.

سمّوه فرحان لكن الأم لم تعرف الفرح كثيراً بعد ولادته.. كسرها موت الأب، وهي لا تزال حاملاً، وأقلقها مستقبل الأبناء فالمرحوم (سائق اللوري) توقف دخله وراتب جابر عسكري المرور المبتدئ لا يكاد يكفي بيته.

بقية الأخوة حامد ومريم وسلمى كانوا وقتها في المدارس. عندما اقترح جابر إقامة حفل السابع ودعوة الأقارب وأهل الحارة غضبت الأم، وقالت:

- لن أدفع ريالاً واحداً من قيمة اللوري..

لكنها في النهاية رضخت ومنحته بعض المال..

(كانت ليلة لا تنسى، جاء البعض من السليمانية، ومن الشعب ومن الملاوي من أجل المزمار وكلما تذكرها جابر قال «ربك ستر وانتهت الليلة على خير» فمزمار يجمع كل هؤلاء لا ينتهي إلا بهوشة كبيرة).

في المدرسة سموه العُص لنحافته الشديدة.. واستمر هذا الاسم معه حتى كبر.. بل صار بديلاً لاسمه فيكفي أن تقول العُص ليعرف الجميع أنك تتحدث عن فرحان..

لكن العص اليتيم والنحيف جداً لم يكن بالطفل الضعيف أو الجبان.. فكل من دخل معه في شجار من أطفال الحارة أو المدرسة عرف أنه ليس سهل الجانب.. وخصوصاً عندما يشعر بالظلم. كان يبكي ثم يندفع إلى العراك كمجنون مما يجعل إيقافه صعباً حتى على الكبار الذين يريدون إطفاء حريق المعركة..

تجاوز فرحان الدراسة الابتدائية دون أن يسقط في أي سنة لكنه في المرحلة المتوسطة جرَّب أول الإخفاقات المدرسية وقتها شعر بالخجل من أمه وبالخوف من أخيه جابر، وحدهما كانا يهمانه.

- جابر لا يرحم ولده فما بالك بأخيه!

استمر سنوات يناديه أبي.. لكنه ما أن فهم قليلاً حتى أصبح يناديه بجابر.. أما عندما كبر فلم يعد يناديه بشيء، صار يتحاشاه، يبذل مجهوداً كبيراً كي لا يصادفه في مكان، ورغم أنهم جميعاً يعيشون في المنزل نفسه.. حيث يسكن جابر وزوجته وابنه الوحيد مع ثلاث بنات في الدور الأرضي وفي الدور الثاني تسكن الأم وحامد وفرحان وسلمى ومريم.. لكن سرعان ما بدأ العدد يتناقص كما تخبر الأم جارتها..

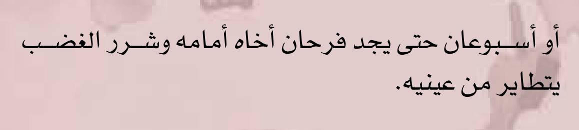
حامد ذهب إلى الرياض ليعمل في العسكرية ومريم وسلمى تزوجتا في الشهر نفسه.

ومن حسن حظ فرحان كما يردد دائماً أن لشقتهم مدخلاً مختلفاً، فهذا الأمر يساعده كثيراً في تحاشي الالتقاء بأخيه والصعود سريعاً إلى الدور الثاني أو إلى السطح مباشرة.. كان يعرف أن جابر سيتكاسل في الصعود بحثاً عنه وخصوصاً عندما يكون مرهقاً من العمل.. وكثيراً ما سمع تهديده ووعيده:

- «خليني أرتاح شوي وأوريك شغلك».

لكن جابر ما أن يهدأ ويرتاح حتى يخف غضبه على الولد ويتناساه..

طبعاً هذا الأمر لم يكن ليشكِّل قاعدة ثابتة. فهناك ما لا يستطيع جابر تأجيله أو تناسيه. وهكذا لا يمر أسبوع



أو أسـبوعان حتى يجد فرحان أخاه أمامه وشـرر الغضـب يتطاير من عينيه.

عادة لا تزيد أسـباب الغضـب عن شـكوى الأم من تأخر العص ليـلاً.. أو نميمـة أحد الجيران بخصـوص الولد الـذي لا يُرى في المسـجد، والذي يسـرق سـيارات أهل الحـارة ويتجـول بهـا ثـم يعيدهـا، والـذي شـوهد وهو يماشـي شـلة من «الفاسـدين» المعروفين في الحارة.. أمـا المدرسـة والمذاكرة والنجاح فلم يكن جابر نفسـه ممـن يركز عليها. فهو حتى لا يعرف المرحلة الدراسـية الخاصة بأخيه فرحان أو حتى تلك الخاصة بولده الوحيد عبدالرحمن.

الأم وحدها كانت تحمل هم المدرسة.. تمني نفسها أن يفلح ابنها الأصغر ويحقق ما لم يستطع جابر ولا حامد تحقيقه.. فجابر لم يحصـل على الابتدائية إلا بطلوع الروح أما حامد فقد (تربس) سنتين في الكفاءة ثم حصل عليها (بالدف) كما يسخر منه جابر.

- نفسي ومنايا أشوف فرحان بالجامعة..

هذه الأمنية لن تتحقق أبداً.. فالعص كان لا يكره شيئاً أكثر من الدراسة.. وكثيراً ما ردد أمام أصحابه..

- «والله ما مصبرني على هم المدرسة إلا أمي».

لكن هذا الصـبر لم يدم طويلاً رغم نجاحه من المدرسـة المتوسـطة وانتقاله إلى الثانوي.. فقد انقطع عن الدراسـة دون أن يخبر أحداً في البيت.. كان يذهب كل صباح.. يقطع شـارع الأبطح منتظـراً أحد أصـحابه الذي يأتي بسـيارته الداتسون.. يصعد العص معه في «فركة» مدرسية متكررة، يفطـران معـاً ثـم يختـاران مكاناً يقضـيان به بقيـة اليوم الدراسي.

ومـا كان لأحـد أن يكتشـف الأمر لـولا ورقـة التعريف التي ذهب جابر لإحضارها من أجل الضمان الاجتماعي الخاص بالأم. فبعد أن يئس من إحضار فرحان لهذه الورقة التعيسة



ومـلَّ من أعـذاره الواهية التي تبدأ بالنسـيان وتنتهي بوعد أكيد بأن ورقة التعريف ستكون في الغد حاضرة..

عندما علم جابر بانقطاع أخيه عن المدرسـة وقف ينتظره أمـام المنزل، كان العص يصـعد الطلعة بتثاقل وهو يحمل سجادة بالية بداخلها بعض الكتب المهترئة..

عرف وقتها أن أمر انقطاعه عن الدراسـة قد انفضح فليس من عادة جابر أن ينتظره هكذا..

- كيف المدرسة معك؟

- تمام.

لم يقل العص تمام إلا وصفعة حادة تنهال على خده الأيمن من يد جابر اليسرى.

- تمام يا... تمام يامفصول يا...

ولعلها المرة الأولى التي يحاول فيها فرحان مقاومة أخيه.. صرخ وهو يتلقى الصفعات:

- مالك ضرب علي.. أنا حر.. أدرس أو ما أدرس.

لكن ضـربات جابر لم تتوقف لـولا تدخل بعض الجيران ثم نـزول الأم من الـدور الثاني ممـا جعل جابـر يأخذها وهو يتمتم:

- خلاص أدخلي ما في شي.



فرحان ما أن انفك من قبضة أخيه حتى انطلق نحو أسفل الحارة تاركاً الكتب والسجادة على الأرض..

صعدت الأم وهي تندب حظها ووحدتها، فمنذ زواج البنتين قبل سنتين أو أكثر وهي تقاتل الصمت في بيتها، ففرحان لا يحضر سوى للنوم.. وجابر لا يصعد إلا إذا حدثت مشكلة.. وحامد في الرياض.. لا تغادرها هذه الوحدة إلا بزيارة البنتين أو إحداهما.. تقول لها إحدى جاراتها:

– أحمدي ربك فالبنتين في مكة.. ولا ينقطعان عن زيارتك.. وأبناء جابر دائماً عندك..

تحمد الله فعلاً، فهي أفضل حالاً من غيرها، ولكن قلقها على فرحان هو ما ينغِّص عليها حياتها..

تقول لابنتها سلمى:

– «فرحان معكوس ومنحوس حتى في ولادته»!

أتى دون أن ينتظره أحد بعد سنوات سبع من ولادة سلمى. عند ولادة فرحان كانت سلمى في الصف الثاني ومريم في الرابع أما حامد ففي الصف السادس.

بين جابر وحامد مرت الأم بسنوات لا تنساها. وتحدثت النساء عن عقم أصابها بعد إسقاطها جنيناً، شعرت وقتها أنها أصيبت بعين لم تصلّ على النبي، وعندما حملت بحامد كادت تطير فرحاً، فبه أسكتت الألسنة واستعادت ثقة كادت تفتقدها.

أما حملها بفرحان فقد فاجأها هو الآخر من حيث لم تكن تنتظره. جاء هذا الحمل بعد أن لاح عمر اليأس.. وتباعدت مسافات اللقاء بينها وبين سائق اللوري المريض الذي لا يتوقف عن الشكوى من آلام شديدة في الصدر.

عندما شعرت بالحمل غير المتوقع.. راودها شعور بالفرح وابتسم الرجل عندما أخبرته وكأنما بث فيه شيئاً من إحساس بالفحولة صار يتوارى مع مرضه الذي اشتدت أعراضه في الأشهر الأخيرة..

أخبره الأطباء بأن ما يعانيه هو التهاب في الرئة.. طالبوه بالتوقف عن التدخين فاستجاب.. لكن الآلام لم تتوقف، ووصفوا له كثيراً من الأدوية لكنها لم تحدث أثراً.. ومع هذا قال لنفسه وهي تخبره بحكاية الحمل:

– الرزق على الله.

سلمى ومريم كانتا الأكثر فرحاً بالضيف الذي سيحل عليهم بعد أشهر.. لكن سوء حالة الأب لم تترك للأفراح مكاناً.. وكان خبر الوفاة الذي سبق الولادة بثلاثة أشهر ونصف الشهر تقريباً.. هو ما جعل الكثير من الأقارب والجيران ينظرون إلى المولود الجديد باعتباره وجه الشؤم.

من الفصل الحادي عشر..

في وفاة الأم..

عندما قدمنا إلى الحي كنت في الخامسة عشرة، تكبرني أختي بعامين. أقمنا ثلاثتنا في هذه الشقة التي يملكها والدي، كان يبعث لنا كل شهر مبلغاً ويسأل أمي (هل ينقصكم شي) فترد:

– أبداً لا ينقصنا شيء.

بعد سنوات ثلاث من قدومنا تزوجت شقيقتي لأبقى مع أمي وحيدين في شقة تتكون من خمس غرف.

أزور أبي بين فترة وأخرى، أذهب إليه في معرض السيارات الذي يملكه، وألتقي أحياناً هناك بعض أخوتي، وفي المناسبات كان يطلب مني الحضور بإصرار، وأمي تشجعني على الذهاب.

وكلما تفوقت في الدراسة تسارع أمي في إخباره وهي منتشية من الفرح.

أتذكر أول مقال نُشر لي في إحدى المجلات، كنت حينئذ في بداية دراستي الجامعية.

أخبرتها وأنا أحمل المجلة مزهواً.. نظرت إلى المجلة رغم أنها لا تجيد القراءة.. وكان تعليقها الأول:

– لابد أن تريها لأبيك.

لكنني لم أفعل ولم أخبرها بذلك، أتذكر جيداً ذلك المقال

كان بعنوان (مباراة كرة قدم بمرمى واحد). ورغم سذاجة ذلك المقال إلا أنني أحبه، كما لم أحب قصصي ومقالاتي الأخرى التي نشرت بعد ذلك وبعضها مصحوباً بصورة شخصية، صورة تقول أمي إنها جميلة فيما ترى زوجتي أن المصوِّر بالغ كثيراً في تبييض وجهي وكأنني قادم من الشام.

علاقتي بأخوتي غير الأشقاء علاقة عادية جداً، أو لنقل علاقة باردة وبلا طعم، مجاملات في المناسبات والأعياد، كلمات جوفاء في حالة المرض، لا أشعر تجاههم بذلك الرابط الذي يشعرك بأن الآخر منك.

يختلف الأمر مع شقيقتي فأنا أشعر بالهم عندما تتعرض لمشكلة أو تمرض «أصبحت في الفترة الأخيرة هي من تحمل همي»!

لا تتوقف عن الحديث معي حول مشكلاتي الزوجية، علاقتها بزوجتي جيدة بسبب أن أمي -يرحمها الله- كانت هي الأخرى تحب زوجتي.

هي من اختارتها لي، وكان لا بد لها من أن تدافع عن اختيارها ولاشك أن الضيفة الجديدة حينئذ كانت هادئة ومطيعة ورقيقة مع أمي.

كنا ثلاثتنا حولها وهي تنازع الموت، أخرجتها من المستشفى قبل ذلك بيومين، لاحظت في الصباح أنها أفضل حالاً.. قلت لها:
- سأذهب اليوم للعمل.
- روح لا تخاف علي، أنا اليوم طيبة.
ثم أكملت:
- وأم رعد عندي.. وأختك ستحضر في الضحى..

وفي التاسعة كانت أختي تحدثني باكية...
- يبدو أنها تحتضر..
انطلقت مسرعاً.. أخذت معي طبيباً وعندما دخلت معه إلى الشقة لمحت زوجتي تبكي وهي تترك المكان للطبيب..

غطى وجهها وهو يحوقل، وتعالى صراخ المرأتين، فيما وقفت كالأبله لا أدري ماذا أفعل.. أبدو تماماً كما لو أنني طفل أضاع أمه في زحام شديد، كثيراً ما شاهدت أطفالاً يتلفتون مفجوعين وقد أضاعوا أمهاتهم خصوصاً في زحام الحج.

كنت مثل أحدهم.. وكان علي أن أتماسك لأبدو مختلفاً عن أختي وزوجتي اللتين لا تتوقفان عن البكاء. حضر الجيران، وحضر والدي وبعض أخواني الموجودين في مكة، ذلك الوقت.

لاتزال غرفتها مغلقة منذ وفاتها... لم أقدر ولا مرة واحدة أن أدخلها. مكثت لفترة كلما صحوت من النوم خطر في بالي أن يكون فقدها مجرد حلم مزعج.

كم هو جميل ذلك الفرح الذي ينتابنا عندما نصحو من النوم لنكتشف أن المأساة أو المصيبة التي عشناها ليست سوى حلم.

قبل أشهر وجدت نفسي فيما يشبه غرفة التحقيق محاصراً برجال ملامحهم قاسية أقول لهم:
- ما هي تهمتي ؟
فيضحكون.. ويقترب مني شخص بلباس عسكري وهو يهمس لي محاولاً ألاَّ يسمعه الآخرون.
- لا تتكلم إلا في حضور محام.
ثم يقبض الآخر على رقبتي ويضغط قائلاً:
- محامي.. ليه فاكر نفسك في فرنسا.
أردد بصوت خافت:
- ما هي تهمتي؟

فيما تستمر أصابع الرجل تضغط على رقبتي وهو يطلب مني الاعتراف بالحقيقة، أصحو فجأة من النوم، تنتابني مشاعر السعادة لأن المسألة مجرد حلم تافه وسخيف، حلم فقط.
أتمتم بفرح: الحمد لله.
أتذكر أنني قرأت مرة أن الرجل يبقى طفلاً حتى تموت أمه فإذا ماتت شاخ فجأة.

لكنها بالنسبة لي كانت أماً وأباً ولهذا أبدو بدونها وكأني أحمل عمر الكهل وتعبه ومرضه وهشاشة الطفل ومخاوفه وضعفه.

قول آخر

في الغربة والحنين

محمد جبر الحربي*

لا يمكننا إحصاء عدد الشعراء الذين عاشوا الغربة بمختلف أشكالها وعذاباتها، غربة الروح، وغربة المكان، وغربة المنفى اختيارياً كان أم إجبارياً، وغربة السجن.. ولعله قدر المبدع أن يكون غريباً في كل الأحوال. فهذا هو المتنبي الغريب في تعاليه، والغريب في مراميه يقول:

أنا في أمّة تداركها الله ... غريبٌ كصالحٍ في ثمودِ
ما مقامي بأرضِ نخلةَ إلا ... كمقامِ المسيحِ بين اليهودِ

كيف لا والقلق الروحي يلازمه منذ صباه:

فلا حاولتُ في أرضٍ مقاماً ... ولا أزمعتُ عن أرضٍ زوالا
على قَلَقٍ كأن الريح تحتي ... أوجّهها يميناً أو شِمالا

وإنْ كان هناك من يرويها: على قلِقٍ، أي على جوادٍ لا يهدأ، فذلك لا يغير شيئاً مما عنيناه بغربته. أما غربة السجن فمَن لنا كالأمير الأسير أبي فراسٍ الحمدانيّ، ومن منا لا يعرف قصيدته الآسرة الموجعة:

أقول وقد ناحت بقربي حمامةٌ ... أيا جارتا لو تعلمين بحالي

وهناك من هو في الغربة رهين سجنين وليس سجناً واحداً، كأبي العلاء المعرّي، سيّد الغرباء، صاحب القول الشهير المختلف عليه: هذا جناه أبي عليّ، وما جنيت على أحد، رهين المحبسين، وهو من أطلق هذا الاسم على نفسه، وهما كما هو معروف: العمى، والدار التي اعتزل فيها الناس أربعين عاماً بعد وفاة والدته، ما تركها غير مرة واحدة، وقصيدته:

غيرُ مجدٍ في ملتي واعتقادي ... نوحُ باكٍ ولا ترنّم شادي

وهي قصيدة تختصر قلق الأسئلةِ، أسئلةِ النفس والوجود، والموت والحياة.

وكلّ ما سبق ليس بغريب عن ذاكرة القارئ العربيّ، الغريب هو الشاعر العربي الجميل الرقيق الصّمّة ابن عبدالله بن الطفيل القشيري، الذي وإنْ ذاعت له أبياتٌ شهيرةٌ، فلا يعرف معظم الناس أنه قائلها. وهو من شعراء العصر الأموي، ولد قرب الرياض، والرواية الشهيرة أنه أحب امرأة من قومه من بني عمه هي العامريّة بنت غطيف، فخطبها، فلم يزوجوه إيّاها لعجزه عن أداء مهرها كاملاً، ولتكلفهم في تعجيزه، ويذكرها في شعره بريّا، وطيّا كلّ حنين.

التحق بالجيش الإسلامي، وظل يحنّ للحمى، وابنة عمومته التي منع عنها، حتى توفي في طبرستان حيث قادته الفتوحات. ومن ألطف الشعر العربي في البعد والوجد والحنين هذه الأبيات من قصيدة بديعة له:

حننتَ إلى ريّا ونفسك باعدَتْ ... مزارَك من ريّا وشعباكما معا
فما حسنٌ أن تأتيَ الأمر طائعاً ... وتجزع أنْ داعي الصّبابة أسمعا
بكتْ عينيَ اليمنى فلما عذلتها ... عن الجهلِ بعد الحلم أسبلتا معا
وأذكرُ أيام الحمى ثم أنثني ... على كبدي من خشيةٍ أنْ تصدّعا
فليستْ عشيّاتُ الحمى برواجعٍ ... عليك ولكن خلّ عينيك تدمعا

وقد التفت الرحابنة إليها مبكراً، فكسوها بصوت فيروز العذب بعداً يليقُ بالأذن العربية المرهفة، وجمالاً يجسدها، ولا يخلّ بفتنتها الأولى.

وكان الأديب الراحل، المغترب بيننا، أبو عبد الرحمن عبد الله نور رحمة الله عليه، إذا ما قرأها بصوته الجهوريّ، وأدائه العبقريّ، ردّدت من خلفه الجدران حتى النخل البعيد، وكنّا نتلقّاها عنه في بداياتنا الأولى، وكان يقرأها كاملةً عن ظهر غيب، كما يفعل مع لامية العرب للشنفرى، ويحب هذين البيتين تحديداً حبّاً جمّا:

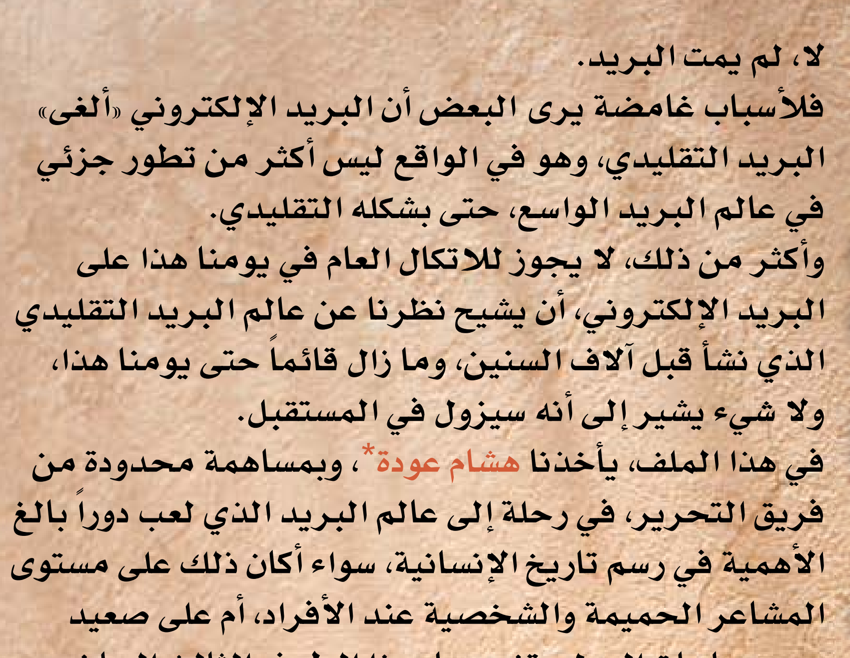
وقلتُ لأصحابي غداةَ فراقِها ... وددتُ البحورَ العامَ بالناسِ طمّتِ
فتنقطع الدنيا التي أصبحت بنا ... كمثلِ مصاباتٍ على الناسِ عمّتِ

وقد جمع ديوان الصّمة وحققه الأستاذ الدكتور عبدالعزيز محمد الفيصل، وصدر عن النادي الأدبي بالرياض عام 1401هـ، فيما قام علامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر بنشر مختارات من شعره في مجلة العرب، وإنه لمن المهم والجميل أن يُعاد طبع الديوان، وأن تُدوّن غربته لتؤنس غربتنا.

* شاعر وإعلامي سعودي



البريد



لا، لم يمت البريد.

فلأسباب غامضة يرى البعض أن البريد الإلكتروني «ألغى» البريد التقليدي، وهو في الواقع ليس أكثر من تطور جزئي في عالم البريد الواسع، حتى بشكله التقليدي.

وأكثر من ذلك، لا يجوز للاتكال العام في يومنا هذا على البريد الإلكتروني، أن يشيح نظرنا عن عالم البريد التقليدي الذي نشأ قبل آلاف السنين، وما زال قائماً حتى يومنا هذا، ولا شيء يشير إلى أنه سيزول في المستقبل.

في هذا الملف، يأخذنا هشام عودة*، وبمساهمة محدودة من فريق التحرير، في رحلة إلى عالم البريد الذي لعب دوراً بالغ الأهمية في رسم تاريخ الإنسانية، سواء أكان ذلك على مستوى المشاعر الحميمة والشخصية عند الأفراد، أم على صعيد رسم سياسات الدول وتغييرها، هذا الطرف الثالث الحاضر دوماً ما بين كل طرفين فصلتهما المسافات، بدءاً من الأحباء، وصولاً إلى قادة الدول وجيوشهم ومؤسساتهم. حتى يمكن القول إن البريد هو الشبكة التي يعود إليها فضل كبير في جمع العالم إلى بعضه البعض.

* كاتب وصحافي من الأردن

Photolibrary

منذ أن ظهر البريد الإلكتروني، والاتكال عليه يزداد يوماً بعد يوم. والملايين الذين كانوا يخطُّون رسائلهم على الورق ويتوجَّهون إلى مكتب البريد لإرسالها أملاً في وصولها إلى وجهتها بعد عشرة أيام، علَّهم يحظون بجواب بعد عشرين يوماً، صاروا يرسلون رسائلهم من غرفة نومهم إلى أصقاع الأرض المختلفة، ليحصلوا على الأجوبة بعد دقائق. ومعظم أبناء الجيل الشاب اليوم، لم يجد نفسه مضطراً ليكتب رسائله على الورق، ولم يقصد مرة مكتب بريد. ولكن هل يعني ذلك موت البريد التقليدي؟

الجواب الذي قد يفاجئ الكثيرين هو أن البريد التقليدي لا يزال ينمو ويتطور. «فالبريد الملكي» في إنجلترا مثلاً يوزع 84 مليون رسالة يومياً، عبر 14376 مكتباً بريدياً. وبلغت عوائده السنوية 9056 مليار جنيه استرليني في العام 2006م. وبعد تدني أرباح هذا البريد باستمرار لمدة عقدين، حقق في العام 2008م أرباحاً بلغت 321 مليون جنيه.

ولو ألقينا نظرة خاطفة على الموقع الإلكتروني الخاص بالبريد السعودي، لوجدنا أنه يتألف اليوم من 1230 مكتباً و82 وكالة و770 مكتب تمثيل بريدي، ويغطي 6123 مدينة وبلدة وقرية، ويتعامل سنوياً مع 950 مليون مادة بريدية ما بين رسالة وطرد وغير ذلك. وأكثر من ذلك، يكشف الموقع عن خطط تطويرية مدهشة لجهة اعتماد أجهزة البريد الآلي (مثل الصراف الآلي)، وأجهزة أخرى مثل تسليم البريد بواسطة القارئ الكفي..!؟



الحاجة إلى مخاطبة البعيد كانت وراء نشوء الأبجدية في أوغاريت

www.panoramio.com

إذن لا شيء يوحي بـأن البريد التقليدي سيخرج في المستقبل المنظور مـن حياتنـا. ولذا يجـدر بنا أن نعرفه عـن قرب، وأن نعـرف شيئاً عن مسيرتـه التاريخية، لكي نفهم مكانته في عالمنـا، ونقيِّم بشكل صحيح أي تطور يطرأ عليه.

أول تاريخه: اختراع الكتابة

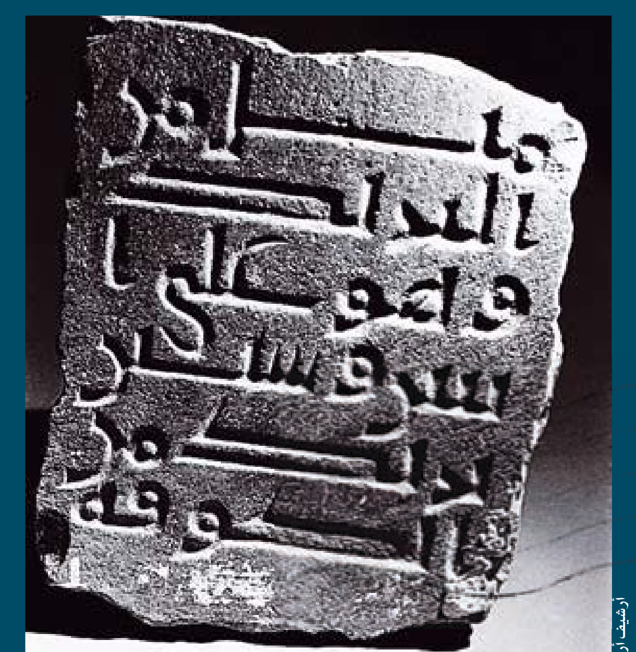
يؤكد الباحثون أن حاجة الإنسان إلى نقل كلامه لمسافة بعيدة كان الدافع الأول إلى اختراع الكتابة. ويستدل هؤلاء على ذلك بأن آثاراً وصلتنا من حضارة أوغاريت، تضمَّنـت الكثير من الرسائل الملكية. وأوغاريت كما هـو معروف هي صاحبة أول أبجدية مسمارية. كما عثر في مواقع كثيرة مـن بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين على رسائل متبادلة ما بين ملوك هذه البلدان وفراعنة مصر.

فقـد كان لفراعنة مصـر مثلهم مثـل الصينيين والفرسـ والأشوريين أنظمة بريدية منظمة ساعدت ملوك هذه الحضارات على إدارة ممالكهم الواسعـة. وكان البريد آنذاك حكراً على المسؤولين السياسيين والقادة العسكرييـن. أمـا العامة، فلم ينعمـوا بهذه الخدمة، ولـم يكونوا أصلاً بحاجة إليها طالما أن معظمهم كان يجهل القراءة والكتابة.

ظـل البريد منذ نشأته في تلك العصـور القديمة وحتى القرن السادس عشـر، قائماً على «نظام التتابع». ويقضي هـذا النظام بأن يحمل عداء أو فارسـ الرسالة لمسافة محدودة يسلمها بعد ذلـك إلى عداء آخر أو فارسـ يكون في مكتب بريد على مسافة معلومـة، ليتولى هذا نقلها إلى مكتب آخر وهكذا دواليك إلى أن تصل إلى هدفها.

البريد العربي الأول

عرف العرب قديماً عدة أنظمة لإرسال الرسائل من منطقة إلى أخرى. ومن أشهرها نظام إشعال النيران على القمم والمرتفعات الذي اقتبسوه عـن البيزنطيين، وذلك لنقل رسالة مختصرة جـداً، متفق مسبقاً على مـا تعنيه. ولكن البريـد بمعناه الحقيقي ظهر في زمـن الدولة الأموية. وازدهر في الـدول اللاحقة. إذ تشير الوثائـق التاريخية إلى أن معاوية ابـن أبي سفيـان، رضي الله عنه، هـو الذي وضع النظـام الأول للبريد العربـي، وجعل من مدينة البصرة في جنوب العراق مركزاً له. ولاحقاً،



حجر مسافات كان يوضع على طريق قوافل الحجاج.. وعليه نص يقول: «ميل من البريد وهو على اثنين وستين بريداً من الكوفة» وهو موجود في المتحف الوطني بالرياض

أرشيف أرامكو السعودية



images.bridgeman.co.uk

iStockphoto



الفرسان في «نظام التتابع»

أول بريد سريع.. الحمام الزاجل

كان الإغريق أول من استخدم الحمام الزاجل في مراسلاتهم، وانتبهوا إلى وظيفته في المجتمع. فمن خلاله تم نقل نتائج الألعاب الأولمبية من مكان إقامتها إلى المدن البعيدة ليتسنى للمواطنين معرفة أخبار الرياضة المحببة إليهم.

لكن أول استخدام عسكري للحمام الزاجل، حسب المصادر التاريخية، كان في زمن الإمبراطور الروماني أوكتافيوس الثالث، الذي استخدم هذا النوع من الحمام لتبادل الأخبار والخطط العسكرية مع قائد جيشه بروتس الذي حاصرته قوات مارك أنطوني في مدينة «فودليا»، وهو بروتس نفسه الذي خلده الكاتب الشهير وليم شكسبير في مسرحيته ذائعة الصيت يوليوس قيصر.

ولم يقتصر استخدام الحمام الزاجل على الإغريق فقط، فقد استخدمه الفراعنة والفرس والعرب أيضاً، وكل حسب حاجته وحسب مصلحة بلاده العليا. وفي هذا الإطار، تشير المصادر التاريخية إلى أن الخليفة العباسي المعتصم علم بخبر انتصار جيشه على بابك الخرمي وأسره بواسطة رسالة نقلها حمام زاجل إلى قصره من موقع المعركة. ويقول الجاحظ في معرض توثيقه لوظيفة الحمام الزاجل ودوره في الحياة العامة «إن العرب تعرف أنواع الحمام الزاجل كما تعرف أنساب الخيول». وفي هذا إشارة واضحة إلى الاهتمام المتزايد الذي أبداه العرب تجاه هذا الطائر العجيب الذي قدم فتحاً كبيراً في عالم الاتصالات في العصور القديمة.

واذا كانت مهمة الحمام الزاجل قد اقتصرت على نقل الرسائل العسكرية من المركز إلى قادة الجيوش المحاربة من أجل المشاركة في إدارة المعركة، فإن وسيلة الاتصال هذه انتقلت من بغداد العباسية إلى الدولة الأموية في الأندلس. وظلت الرسائل التي ينقلها الحمام الزاجل مقتصرة على الجانب العسكري بشكل خاص والجانب الرسمي للدولة بشكل عام، ليصبح هذا الحمام وسيلة رئيسة في الاتصال بين قادة الجيوش العربية الإسلامية وسكان المدن العربية التي حاصرها الفرنجة في الحروب الصليبية.

وتشير الدراسات التي تعاملت مع مهمة الحمام الزاجل على مر العصور إلى أن نسبة الخطأ في إيصال الرسالة هي متدنية جداً قياساً بالجهد البشري. أي أن هذا النوع من الحمام الخاضع للتدريب المكثف نجح في إيصال الرسائل إلى أصحابها بعيداً عن المطاردة والرقابة والخوف من التفتيش أو وقوع الرسالة في يد الأعداء. وذهب الأمريكيون والبريطانيون في العصر الحديث إلى استخدام الحمام الزاجل ضمن ترسانة جيوشهم المقاتلة كما تشير إلى ذلك صفحات الحرب العالمية الأولى ووثائقها وخاصة في المناطق التي تعرَّض فيها الجيش البريطاني للحصار من قبل الجيش الألماني.

وانتبه العالم مؤخراً إلى ضرورة الحفاظ على الحمام الزاجل والعناية به، فتم تأسيس الاتحاد الدولي للحمام الزاجل ومقره في العاصمة البلجيكية بروكسل، ليضم في عضويته عدداً من الاتحادات العربية الشبيهة في الوظيفة نفسها ومن بينهم الاتحاد المصري.

كان القائمون على استخدام الحمام الزاجل في العصور القديمة يربطون إلى رجله رسالة قصيرة ومكثفة تحمل أسئلة أو إجابات وتوضيحات ويتم إطلاقه باتجاه الجهة المقصودة التي هي المكان الذي اعتاد العيش فيه، ونُقل في قفص منه، ليعود إليه عندما يُطلق سراحه. وبهذا اعتبرته الوثائق التاريخية أسرع وسيلة اتصال في ذلك الوقت أو «البريد السريع»، القادر على الطيران في الليل، والطيران لمسافات بعيدة.



Corbis

الحمام الزاجل.. ظلَّ في الخدمة حتى الحرب العالمية الأولى

طـوّر عبدالملـك بن مروان ما بـدأه معاوية، حيث أمـر بوضع العناوين والاتجاهـات والإشـارات وتقدير المســافات على الطرق ليســتعين بها سعاة البريد الذين ينقلون رسائل الخليفة إلى الولاة والجنود.

وتقـول الوثائـق أن عدد محطات البريـد في أيام الدولـة الأموية قارب الألف محطة منتشرة في معظم أرجاء الدولة. وكان لكل محطة رئيسها الذي يراقب السـعاة والخيول، إذ ضمت كل واحدة مجموعة من الجياد القوية، ليقوم الرسول أو سـاعي البريد باستبدال فرسه المتعب بفرس آخر قوي، ليتمكن من مواصلة طريقه بالسرعة المطلوبة.

وأطلـق العرب على المسافة بين محطة بريد وأخرى مصطلح «ميل من البريـد»، وهي مسافة يتـرواح طولها بين فرسخيـن وأربعة فراسخ، ولنا اليـوم أن نقدِّر تلك المسافة علـى وجه الدقة، إذا ما علمنا بأن الفرسخ يسـاوي ثلاثة أميال. فيما كانت المحطـات تعرف باسم «السكك». وفي المتحـف الوطني بالرياض يوجد حجر حفـر عليه «ميل من البريد وهو على سبعين ميلاً من الكوفة».

وجاء في الوثائق أيضاً أن الرسل وسعاة البريد كانوا يقطعون المسافات البعيدة، من دون أن يعوقهم حر الصيف أو برد الشتاء ليلاً ونهاراً. وتم تقدير المسافة التي يقطعها الساعي على صهوة جواده في اليوم الواحد بنحو مائة وخمسين كيلو متراً.

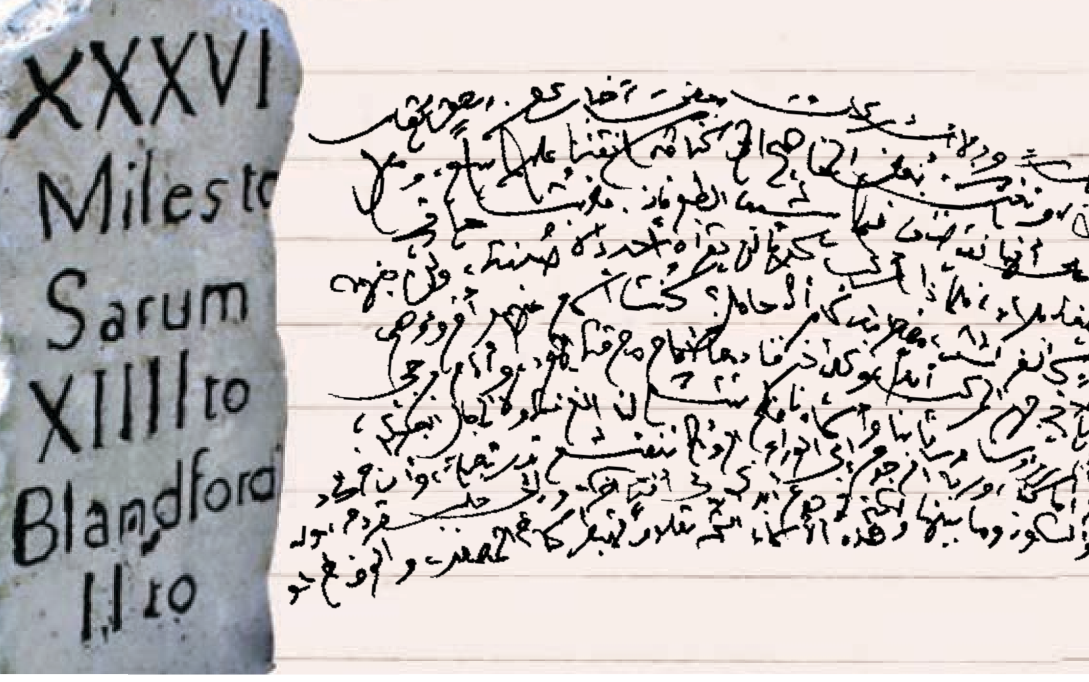
ويشيـر المؤرخـون إلـى أن البريـد العربـي بلـغ ذروته فـي عصر دولة المماليـك، وتحديداً في عهد الظاهـر بيبرس، الذي كان يواجه عدوين لدوديـن هما الفرنجـة والمغول، فأولـى تنظيم البريـد الأهمية نفسها التي أولاهـا لتنظيم الجيش، واعتمد في ذلك على شبكة مكاتب السعاة الخيَّالـة، وأيضاً على الحمام الزاجل، الـذي كان ينقل أخبار التطورات العسكرية على ضفة الفرات، إلى القاهرة خلال يومين، أو أقل.



Corbis







العناوين.. أساسية للمرسل وللساعي والمستلم

نشأة البريد الحديث

غداة انتهاء الحروب الصليبية، ازدهرت حركة التجارة الدولية ما بين أوروبا والشرق الإسلامي. وهذا ما دفع التجار والشركات التجارية إلى تأسيس خدمات النقل الخاصة بهم. وببطء راحت الجهات التي أنشأت بريدها الخاص تتكاثر لتشمل بعض المجموعات الدينية الأوروبية ومنظمات العمال، والجامعات.

وبعد اختراع الطباعة وانتشار التعليم والمعرفة بدءاً من القرن الخامس عشر، ازداد الطلب على الخدمات البريدية. وفيما كان ملوك أوروبا يحسنون تنظيم بريدهم الرسمي ويرفعون كفاءته، كانت الخدمات البريدية الخاصة تنبثق أينما كان. ففي العاصمة النمساوية فيِّنا، نظّمت عائلة تاكسيس واحداً من أشهر الأنظمة البريدية الخاصة، حتى أنها كانت في مطلع القرن السابع عشر توظف نحو 20 ألف ساعي بريد، يجوبون معظم أنحاء أوروبا. ولكن، وبشكل عام، ظلت هذه الخدمة بطيئة نسبياً ومرتفعة التكاليف، وتعتمد مثل البريد القديم على الخيول والعربات، والسفن لنقلها إلى ما وراء البحار.

التطور البارز الكبير في تلك المرحلة، ظهر في القرن السابع عشر، عندما لاحظت الحكومات المكاسب الكبيرة التي تحققها شركات نقل البريد، فأنشأت مكاتب بريد عامة، وبعضها منع الجهات الخاصة من نقل الرسائل.



Corbis

البريد البحري والبري.. الذي صار أخيراً جوياً

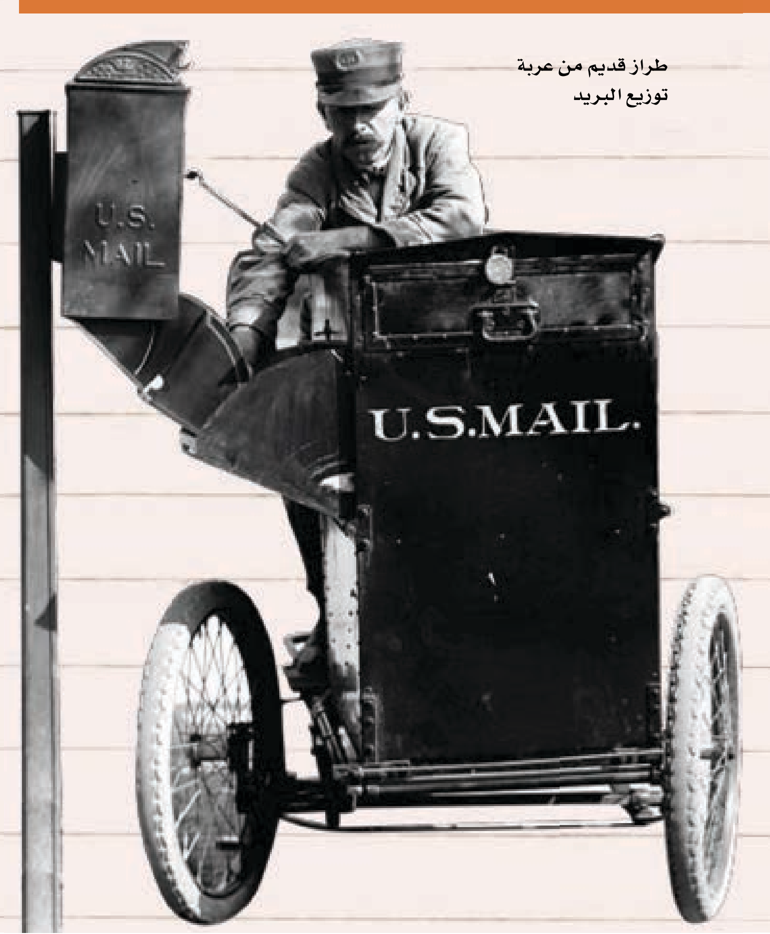
عصر السرعة.. أينما كان

فـي أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، نمت الخدمات البريديـة بسرعـة فائقـة. فقـد أدى تطـور الملاحة البحريـة، وظهور القطـارات إلى تسريع تسليم البريد الذي زاد من رغبة الناس في كتابة الرسائل. وللدلالة على الدور الذي تلعبه السرعة في عالم البريد، نذكر أن فـرز الرسائل كان يتم على متـن القطارات اختصاراً للوقت. كما أن القطـارات زودت بمقابض معدنية تسمح لها بالتقاط أكياس البريد من على أرصفة المحطات التي لا يتوقف فيها القطار.

ولـم يتأخر البريد الجوي أبـداً عن ظهور الطائرة. ففـي العام 1910م تـم نقـل البريد جواً لأول مرة ما بين مدينتين فـي بريطانيا، وفي العام التالي، نقل طيار فرنسي البريد ما بين مدينتي الله آباد ونايفي جنكشن في الهند. ليتأسس بعد ذلك بأشهر «البريد الجوي» في كل من بريطانيا وأمريكا أولاً، ولاحقاً في كل دول العالم.

وأضيـف فـي البريد إلـى خدمة نقـل الرسائـل، خدمات نقـل الطرود والبرقيات والحوالات المالية، والوثائق الرسمية. وتوزع مستوى الخدمة ما بين المضمون والعادي وغير ذلك الكثير.

عربيـاً، كان العـراق أول دولة عربية تتأسس فيها دائـرة رسمية للبريد فـي العهد الحديـث. وكان ذلك في عـام 1874م. أمـا المملكة العربية



طراز قديم من عربة توزيع البريد

السعودية فقد كانت ثاني دولة عربية تصدر طابعاً بريدياً، وكان ذلك عام 1334هـ، في إطار تطوير البريد السعودي بعد توحيد المملكة على يد جلالة المغفور له الملك عبدالعزيز. إذ قبل دخول الملك عبدالعزيز الرياض عام 1319هـ، كان أصحاب الدكاكين في الرياض يتطوعون للقيام بخدمة البريد في ما يُعرف الآن ميدان العدل (الصفاة)، بوضع أكياس من القماش الأبيض كتب على كل واحد منها اسم مدينة أو قرية. ويضع كاتب الرسالة رسالته في الكيس المناسب، الذي يُرسل إلى وجهته على الدواب التي يستخدمها المسافرون. أما البريد الوارد، فكان يوضع في أماكن خاصة داخل الدكاكين ومن له رسالة عليه أن يحضر ليأخذها.

وفي مكة المكرمة وجدة، كان البريد يسير على الدواب. وكان مكتب البريد يتكوَّن من نائب ورئيس له وبائع طوابع يسمى مأمور كشك





Magnum Photos

ومأمور المسجلات والبريد العادي. وكان البريد يُحمل على الجمال إلى الليث وجازان وأبها ونجران وغيرها من مدن الجنوب مرة أو مرتين شهرياً. وبعد إنشاء الخط الحديدي بين جدة ودمشق، صار البريد يُنقل بالقطار. كما كان البريد الخارجي بين جدة ومصر ينقل أسبوعياً بواسطة شركات الملاحة الخديوية والإيطالية والهندية، ومرة كل عشرين يوماً إلى الهند.

وفي المملكة، كما هو الحال في كل الدول العربية والعالم، خطا البريد خطوات واسعة متتالية طوال القرن العشرين. ولتنظيم العمل البريدي العربي، فقد تداعت الدول العربية إلى تأسيس «اتحاد البريد العربي» عام 1972م، الذي اتخذ من مدينة دبي في الإمارات العربية المتحدة مقراً له، ويشارك في عضويته ممثلو إدارات البريد العربية. وهناك اللجنة العربية العليا للبريد، وهي إحدى اللجان التابعة للجامعة العربية ومقرها في القاهرة. كما باتت معظم الدول العربية تشارك في عضوية اتحاد البريد العالمي الذي تأسس عام 1874م واتخذ من مدينة جنيف السويسرية مقراً له. وتهدف هذه التجمعات المهنية إلى تنظيم العمل وتطوير مهارات العاملين في البريد، وتفعيل الاتفاقات والقوانين الدولية التي تحمي البريد وتمنع استغلاله من البعض في شحن مواد تتعارض مع القوانين المرعية في الدول الأعضاء.

العصر الذهبي للرسالة الشخصية

من المرجح أن الفترة الواقعة ما بين خمسينيات القرن العشرين والثمانينيات منه، شهدت العصر الذهبي للبريد العالمي، وبشكل خاص على صعيد الرسائل الشخصية.

ففي تلك الفترة، كان البريد الجوي قد انتظم في كل دول العالم، كما كان عدد الرحلات يزداد باستمرار. وفي تلك الفترة كان الاتصال الهاتفي بعيد المدى باهظ التكلفة، كما أن الهاتف لم يكن متوافراً في كل البيوت. ومن جهة أخرى لم تكن آلات مثل الفاكس قد ظهرت بعد. ومن جهة ثالثة كان السلام الذي أعقب الحرب العالمية الثانية عاملاً مشجعاً على السفر والهجرة. فتوافرت بذلك كل العناصر المغذية للبريد وتنشيطه. بحيث كان بإمكان الذين يتبادلون الرسائل بانتظام، توقع وصول الرسائل الجوابية في يوم محدد، ونادراً ما كانوا يخطئون. وتمتع البريد آنذاك بنسبة مدهشة من الأمان، حتى إن البعض كانوا


رسالة من نوع آخر

يضمنــون رسائلهم بعض الأوراق النقدية كهدايا، من دون الخوف عليها من الضياع أو السرقة.

ضربات متتالية غير قاضية

عاشـت الرسالة الشخصيــة ردحاً طويلاً من الزمن وهــي تتخذ شكلها الجميـل شبه الموحَّد: ورقــة أو أكثر ضمن ظرف مغلـق، وعلى الظرف العنوان، يعلوه الطابــع الملوَّن الذي يرمز بمضمونه إلى معلم ثقافي في تلك البلاد البعيدة التي أتت منها الرسالة. وعلى الطابع، الذي يمثل دفع أجرة النقل ختم البريد الذي يؤكد قانونية عملية النقل بكل أوجهها.

فــي أواسط القــرن العشرين شــاع استخدام جهاز التلكــس، وهو نظام توجيه البرقيات مشفرة، فيستقبلها جهاز مماثل يفك الشيفرة ويقدِّمها مطبوعة. ولكن استخدام جهاز التلكس بقي نظراً لكلفته المرتفعة حكراً على المؤسسات.

ثــم ظهــر «الفاكس» في ثمانينيــات القرن الماضي، وهــو أقل تكلفة من التلكس، يصور الرسالة ويرسلها هاتفياً. فقضم الفاكس شيئــاً من الرسالة المهنية، ولكن ليس الكثيــر من الرسائل الشخصية. إلى أن ظهر البريد الإلكتروني.

البريد الإلكتروني

تعــود جذور البريــد الإلكتروني إلى العــام 1973م، تاريــخ ابتكار نظام الـ «أربانيت» لنقل المعلومــات من جهاز كمبيوتر إلــى آخر. وفي مطلع الثمانينيــات، تم تحويل نظــام الأربانيت إلى الإنترنــت. ومع ذلك، فإن رسالــة إلكترونية نرسلها اليوم، تشبــه في أسسها الرسائل التي تبودلت فــي النصف الأول من السبعينيات. ولكن كان على البريد الإلكتروني أن ينتظر انتشار جهاز الكمبيوتر بين أيدي العامة، كي يصبح وسيلة رائجة لتبادل الرسائل، وهذا ما حصل منذ الأمس القريب.

فقــد أعاد البريــد الإلكتروني ترتيــب الأولويات في حيــاة المجتمعات، ولــم يعد الشبــاب وحدهــم منحازين لهذا النــوع مــن المراسلات، بل انتقلــت «عدوى» التكنولوجيــا إلى المؤسسات الرسميــة وشبه الرسمية والشــركات ومؤسسات المجتمع المدنــي وغيرها، بسبب انخفاض كلفة هــذه المراسلات من جهة، وسرعة وصولها إلــى الجهة المستهدفة من جهة أخرى، مخترقة الفضاء والمسافات الطويلة التي تتطلب وقتاً حتى عند أسرع أنواع المراسلات التقليدية.



البريد الإلكتروني قضم كثيراً من البريد الشخصي

Getty Images

في البريد الإلكتروني، وجد مستخدموه فضاء أوسع، وحرية لم تكن متوافرة لهم في السابق، فلا تخضع رسائلهم للرقابة مهما احتوت من معلومات. وبكبسة زر واحدة يستطيع صاحب الرسالة أن يبعث بها إلى أعداد كبيرة من الأشخاص المستهدفين في مختلف جهات الأرض، بعكس الرسائل التقليدية التي لا تصل إلا لعنوان واحد فقط، ولشخص بعينه دون غيره من الناس.

وصار بإمكان مستخدمي البريد الإلكتروني حيازة أكثر من صندوق بريد في الوقت نفسه، بأسماء وهمية، يستقبلون عبرها رسائل وصوراً ووثائق وغيرها من المواد القابلة للإرسال، بالصوت والصورة أيضاً، ودفع ذلك بهواة هذا النوع من المراسلات إلى تشكيل مجموعات بريدية، قد تبدو في الظاهر متجانسة، إذ تقوم بتبادل أفكارها وآرائها بين أعضاء المجموعة بسهولة.

وإذا كان رب العائلة الوقور، أو الشاب المتعلم المثقف، هو الذي يحرص على اقتناء صندوق البريد التقليدي في السابق، فإن أفراد العائلة جميعاً، وخاصة من فئة الشباب، ذكوراً وإناثاً يملكون صناديق بريد إلكترونية هذه الأيام، وهي صناديق تبدلت طريقة فتحها لاستلام ما بداخلها. فقد تم استبدال المفتاح الصغير الذي تم الحصول عليه من إدارة البريد، بكلمة سر خاصة بالبريد الإلكتروني، تمثل مفتاحاً سحرياً لهذا الصندوق العجيب. ويستطيع الشخص المعني استبدالها في أي وقت يشاء، حفاظاً على سرية مفترضة، وخوفاً من تعرض محفظة رسائله لقرصنة إلكترونية.

لا بد من الاعتراف أن الرسالة الإلكترونية سحبت البساط من تحت الرسالة الورقية التقليدية. وهناك الملايين من أبناء الجيل الشاب في وقتنا الحاضر الذين لم يكتبوا أية رسالة ورقية في حياتهم. ولكننا نشدد هنا أن الرسالة التي تلقت هذه الضربة الإلكترونية هي الرسالة الشخصية فقط. أما باقي الرسائل وخاصة في مجال الأعمال، فلا تزال ورقية، وما زالت العمود الفقري للبريد أينما كان في العالم، بدليل الأرقام التي أوردناها عند بداية حديثنا هذا.

وللتعويض عن خسارته الكبيرة في عالم الرسائل الشخصية، عرف البريد كيف ينوع خدماته، على صعيد نقل الطرود وفق مستويات مختلفة من السرعة والخدمة. فظهر البريد السريع المعروف باسم «EMS» الذي يغطي حالياً أكثر من سبعين دولة في العالم، ويمكن بواسطته إيصال أية رسالة أو طرد إلى هدفه في مهلة زمنية لا تتجاوز الأربعة أو خمسة أيام.

وإلى ذلك، أضاف البريد إلى خدماته في بعض الدول الحوالات المالية، وإمكانية استصدار جواز سفر عبر مكاتبه وغير ذلك الكثير مما يتنوع بين بلد وآخر.


Corbis

شكراً لساعي البريد

يمكن استلام البريد أينما كان في العالم بواحدة من طريقتين: إما عبر صندوق البريد المستأجر في مكتب البريد، وإما بواسطة الساعي الذي يحملها من مكتب البريد إلى عنوان المرسل إليه. وفي العصر الذهبي للرسائل الشخصية، كان للصندوق ولساعي البريد مكانتهما في الحياة اليومية للناس أينما كان. فمجرد فتح الصندوق كان مصدر إثارة وتشويق يتكلل بالبهجة عندما تظهر فيه رسالة، ومصدر خيبة إذا كان فارغاً.

أما ساعي البريد، فكان عَلَماً اجتماعياً في القرية والمدينة على حد سواء. وفي كل بلدان العالم، كان يتميز عن غيره بلباسه الرسمي، فكانت إطلالته إيذاناً باحتمال الحصول على رسالة من الغائبين.

ومن العادات الطريفة التي كانت شائعة عند البعض في البلاد العربية، أن يضيفوا إلى عنوان المرسل إليه على الظرف عبارة: «شكراً لساعي البريد»، اعتقاداً منهم أن هذه الملاطفة ستدفع الساعي إلى الاهتمام الخاص بهذه الرسالة أكثر من غيرها، وسيعمل على إيصالها إلى وجهتها بسرعة استثنائية..؟!



لوحة «ساعي البريد جوزيف رولين» 1888، فينيست فان غوخ

وخلال تاريخ البريد الطويل كانت شخصية الساعي تتغير وتتطور ببطء. فإذا كان الساعي القديم الذي ينقل الرسالة على ظهر جواد يعدو بسرعة قد يصل إلى وجهته معفراً بالغبار ومرهقاً، فإن صورة ساعي البريد الحديث تكاد تكون لافتة بأناقة الهندام (صورة المؤسسة التي يمثلها)، والحقيبة التي يعلقها بكتفه. أما وسيلة النقل الخاصة به، فلم تتجاوز الدراجة، لأن محطات توقفه غالباً ما تكون متقاربة من بعضها.

أما التغير الأكبر الذي طرأ على صورة الساعي في وقتنا الحاضر، فيعود إلى تراجع الرسالة الشخصية أمام الرسالة الإلكترونية. واقتصار البريد الذي يحمله الساعي على أوراق الأعمال والطرود والتبليغات الرسمية. ومن الطبيعي أن تختلف مشاعرنا تجاه من يحمل إلينا رسائل من الأحباء المسافرين، عن ذلك الذي يحمل لنا كشفاً بالحساب المصرفي، أو رسالة إعلانية، أو مجلة اشتركنا بها ونتوقع وصولها من دون أية مفاجأة.



Corbis

المقبض المرفوع فوق الصندوق الأحمر، يقول إنه يحوي رسالة

الرسالة في الأدب

«بُدئت الكتابة بعبد الحميد»

يمكن الجزم بسهولة أن العرب كانوا أول من ارتقى بالرسالة إلى مستوى الأدب وحتى الفلسفة. فقد شهد ديوان الرسائل الذي أنشأه الخليفة معاوية بن أبي سفيان، رضي الله، عنه، عدداً من كبار الأدباء الذين تعاقبوا على إدارته، كان أشهرهم عبدالحميد الكاتب الذي تولى أمر هذا الديوان في عهد الخليفة مروان بن محمد.

وقد عرف عبدالحميد بالبراعة في فن كتابة الرسائل حتى غدت رسائله مضرب مثل في الإتقان وقيل «بُدئت الكتابة بعبدالحميد». ومن أشهر رسائله واحدة وجهها إلى عمال مروان بن محمد في الأمصار يأمرهم بمحاربة لعبة الشطرنج، ورسالته إلى الكتاب التي أصبحت دستوراً لمهنة الكتابة، ورسالة كتبها عن مروان إلى ابنه وولي عهده عندما وجهه إلى محاربة الضحاك بن قيس الشيباني الذي ثار في العراق.

وفي الدولة العباسية لمع عدد من أسماء الكتاب الذين أبدعوا في فن الترسل. نذكر منهم يحيى بن خالد البرمكي وابنه جعفر، وأحمد بن يوسف الكاتب، والصاحب بن عباد وضياء الدين ابن الأثير.. وغيرهم.

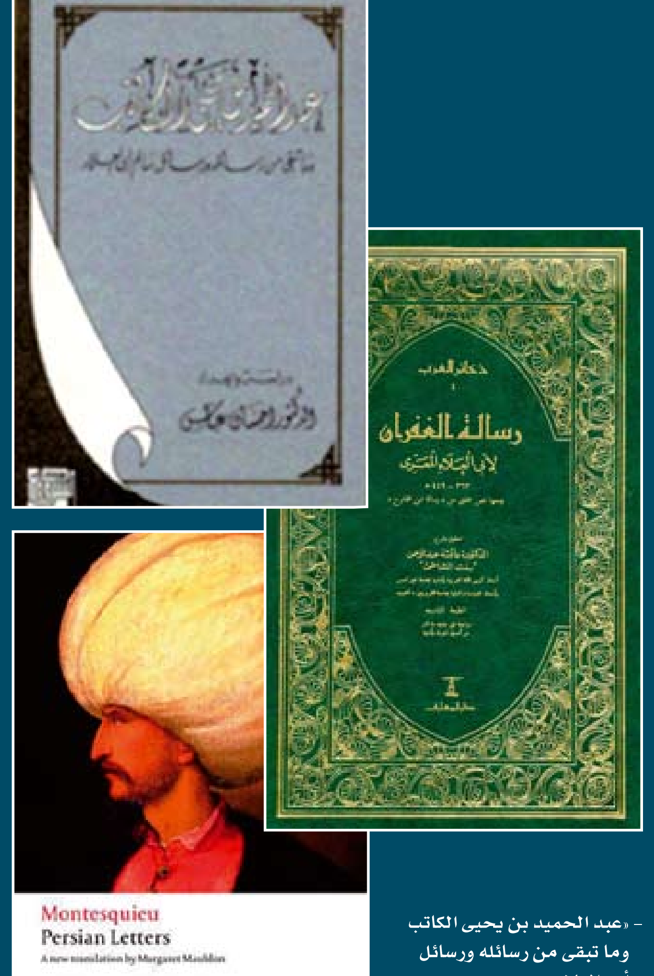
وقد تطور فن الرسائل وتوسع مفهومه حتى ابتعد عن أصله، أي عن كونه نصاً موجهاً إلى جهة محددة. ومن الأمثلة على ذلك «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري، وهي رحلة خيالية كتبها أبو العلاء رداً على رسالة وجهها إليه علي بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح يسأله فيها عن جملة من الأمور تتصل بالتاريخ والفقه والتصوف والأدب والنحو وغير ذلك..

جاءت رسالة الغفران من شقين: ينطوي الشق الثاني على رد أبي العلاء على المسائل التي تؤرق ابن القارح. أما الشق الأول، فهو رحلة متخيلة إلى العالم الآخر، هو الذي ضمن الخلود لأبي العلاء، نظراً للآراء التي يتضمنها ومزجه الجد بالسخرية في إبداء موقفه من أهم قضايا عصره.

ولا يختلف الأمر كثيراً في الفلسفة الأوروبية والأدب الأوروبي. فهناك عشرات المفكرين والأدباء الذين جمعت رسائلهم في كتب، نظراً لأهمية محتوى هذه الرسائل. ومن هؤلاء نذكر على سبيل المثال الكاتب الإيرلندي الساخر جورج برنارد شو، الذي جمعت رسائله إلى الممثلة إلين تاري والملاكم جين توني وغيرهما في كتب. أما رسائله إلى السيدة باتريك كامبل، فلم تجمع فقط في كتاب، بل تحولت إلى مسرحية بعنوان «عزيزي الكذاب».

غير أن واحداً من أخطر الكتب في الفلسفة الأوروبية والفرنسية تحديداً واستخدم فن الرسالة لتحقيق غايته، هو كتاب المفكر الفرنسي مونتسكيو «رسائل فارسية».

فهذا الكتاب الذي صدر عام 1721م، يتخذ شكل رواية ساخرة، موضوعها رحلة يقوم بها نبيلان فارسيان إلى فرنسا في ذلك العصر. ومن هناك يكتبان رسائل إلى ذويهما في أصفهان يصفان فيها الحياة في فرنسا وعاداتها وقيمها وكل ما في المجتمع الفرنسي من ميزات وعيوب. وتتضمن هذه الرواية مئة وخمسين رسالة، تلخص في الواقع نظرة المفكر إلى واقع الحال في بلاده، ونقمته على الأوضاع الاجتماعية والسياسية. فكان هذا الكتاب بلا شك من جملة العوامل التي غذّت التذمر الشعبي، وقادت لاحقاً إلى الثورة الفرنسية.



- «عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقى من رسائله ورسائل أبي العلاء»
- «رسالة الغفران»
- «رسائل فارسية»

ساعي البريد.. في الأدب والفنون

حظيت شخصية ساعي البريد باهتمام كبير من الأدباء والفنانين. حتى صار بطلاً للكثير من القصص والروايات والقصائد والأغنيات والأفلام السينمائية.

ولعل فلم «البوسطجي» المأخوذ عن رواية الكاتب يحيى حقي، نجح في تناول جانب مسكوت عنه في حياة هذه الشريحة من الموظفين، حين سمح هذا الرجل لنفسه بالتجسس على أخبار الناس من خلال قراءة رسائلهم، والتعرف إلى كثير من أسرار القرية، ومن بينها جريمة قتل، حين اعتقد أنه بصمته كان شريكاً في تلك الجرائم.

أما أشهر فلم في السينما الغربية حول ساعي البريد فهو فلم «إلبوستينو»، المقتبس عن رواية تدور حول إقامة الشاعر التشيلي بابلو نيرودا عام 1970م في جزيرة «إيسلا نيغرا» في التشيلي. غير أن الفلم ينقل الرواية إلى جزيرة إيطالية في المتوسط، ويعود بها زمنياً إلى الخمسينيات.

يروي هذا الفلم قصة شاب إيطالي يُدعى ماريو تمرَّد على مهنة أبيه العامل في صيد السمك، وقرر أن يصبح ساعي بريد، يسلِّم الرسائل إلى شخص واحد مقيم على الجزيرة، هو الشاعر نيرودا المنفي من بلاده لأسباب سياسية. ويستعرض الفلم في إطار الصداقة التي تجمع الاثنين الكثير من الجوانب الأدبية والسياسية والاجتماعية وصولاً إلى زواج ماريو ومن ثم مقتله في تجمع سياسي، وعودة نيرودا إلى التشيلي، ومن ثم رجوعه إلى الجزيرة سائحاً ليستلم شريط تسجيل تركه له صديقه الراحل وعليه أصوات الجزيرة وحتى صوت اغتياله في التجمع.

وفي معظم الأحيان تعاملت القصائد والأغاني مع ساعي البريد باعتباره رسولاً بين العشاق والمحبين، فهو وحده من يستطيع اقتحام كل المواقع دون أن يثير شبهة أو أسئلة محرجة، بسبب وظيفته التي تتطلب ذلك.

ومن المؤكد أن تلك القصائد والأغنيات قد حمّلت ساعي البريد أكثر من طاقته، وربما دفعت به إلى ممارسة دور لا يخص وظيفته أصلاً. وهذا ما يفسر موقف شاعر عاشق، ينتظر ساعي البريد بشوق واضح، معتقداً أن ما يعجز هو عن فعله، من الممكن أن يعوضه هذا الرجل الذي يحمل أسرار الناس، فيقول موجهاً خطابه إليه:

وضعت بين يديك اليوم أسراري
فكن شفوقاً على قلبي وأشعاري
وكن رسولاً عطوفاً في مضاربها
لعلها تتملى بعض أعذاري

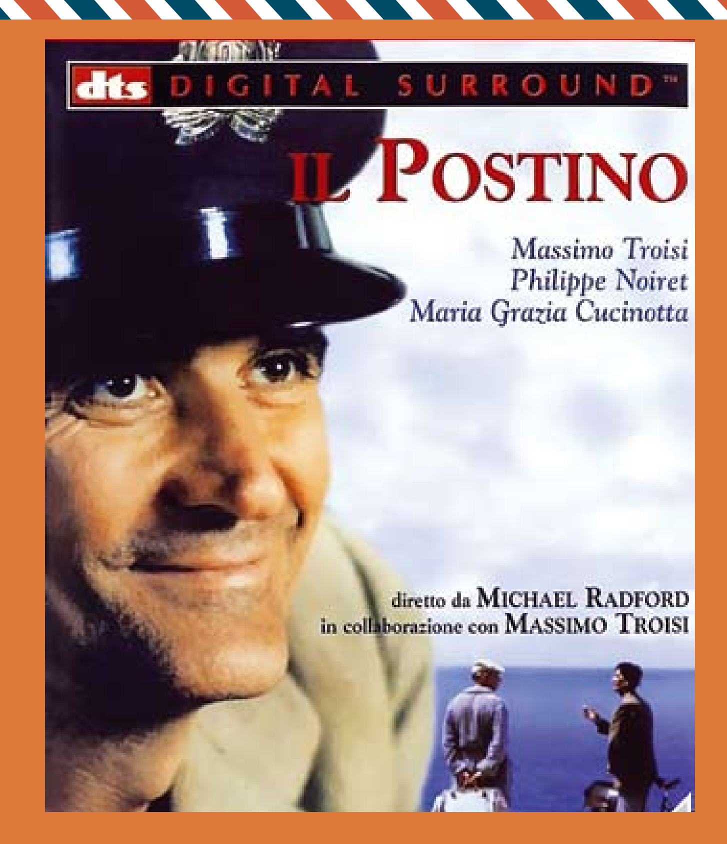
وفي قصيدة أخرى يقول شاعر ملهوف تعلَّقت عيناه بخطوات ساعي البريد واتجاه حركته:

ساعي البريد تأخر المكتوب
والقلب ياسيدي بالعشق معطوب

وفي هذا الإطار شاعت كلمات أغنية الفنانة فيروز التي تخاطب من



فيروز
محمد عبد المطلب
يحيى حقي



خلالها ساعي البريد، فتقول:

يا مرسال المراسيل
ع الضيعة القريبة
خذلي بدربك هالمنديل
واعطيه لحبيبي

وهي بذلك تريد أن يكون المنديل هو رسالتها للحبيب، بدل تلك الرسائل التقليدية التي اعتاد ساعي البريد إيصالها لأصحابها.

وكم تمنى العشاق تقمص شخصية ساعي البريد، من أجل أن يقوموا بإيصال رسائلهم إلى من يحبون بأنفسهم، بعيداً عن إثارة فضول الآخرين الذين لا يتوجسون من حركة هذا الرجل الذي يبدو مخولاً بطرق جميع الأبواب.

وفي أغنية أخرى تقول فيروز بلغة الندم على رسائل عديدة وجهتها لحبيبها دون أن تتلقى الرد على أي منها:

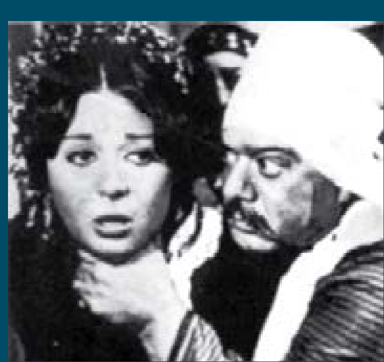
كتبنا وما كتبنا
يا خسارة ما كتبنا
كتبنا مية مكتوب
ولهلأ ما جاوبنا

إشارة لما تعنيه الرسائل بين المحبين الذين يختصرون بمكاتيب المحبة الكثير من الكلام. لكن مائة رسالة ظلت تسير باتجاه واحد خلقت حالة من الغضب التي برزت على شكل عتاب للحبيب الذي تجاهل الرد على رسائلها.

وفي فترة سابقة شاعت أغنية الفنان محمد عبدالمطلب التي يخاطب من خلالها الحبيب بقوله: «ابعت لي جواب وطمني».

فالرسالة هي مصدر الاطمئنان.. الاطمئنان إلى حال الأحباء أياً كانوا وأينما كانوا.











مشاهد من فلم «البوسطجي»

الطوابع وهواة جمعها

كانت بريطانيا أول دولة في العالم تصدر طابع بريد، وكان ذلك عام 1840م، وكان الطابع يمثل صورة جانبية للملكة فيكتوريا باللون الأسود وحدد ثمنه ببنيي واحد. أعقبه بعد ذلك طابع برازيلي عرف باسم «عين الثور» عام 1843م، والتحقت مصر بهذا الركب فأصدرت أول طابع عربي عام 1866م. وما هي إلا سنوات معدودة حتى كانت كل دول العالم المستقلة تصدر طوابعها البريدية الخاصة، التي أصبحت لازمة ضرورية من لوازم الرسائل البريدية.

وعلى مدى أكثر من قرن ونصف القرن شكَّلت الطوابع البريدية جزءاً أساسياً من شخصية الرسالة، وأكثر من ذلك، عملاً فنياً كاملاً ذا خطاب واضح. فقد أتقنت دول العالم إصدار طوابعها البريدية منذ البداية، وأولته الاهتمام المماثل لاهتمامها بطباعة أوراقها النقدية، إن على مستوى اختيار المواضيع، أو لجهة حسن الطباعة والتنفيذ. ولهذا لم يكن مستغرباً أن تجد هذه الأعمال الفنية الصغيرة هواة يحبونها ويجمعونها.

موضوعات طوابع البريد

استوعبت طوابع البريد شتى المواضيع من دون أي قيد أو شرط غير أن تكون مستمدة من ثقافة البلد الذي يصدرها ومعالم الحياة فيه وأعلامها. فنرى مثلاً صور الملوك. والبلد الذي لم يتخلَّ يوماً عن صورة ملكه هو بريطانيا، حتى في الطوابع التذكارية التي تكون موضوعاتها مختلفة، نرى صورة خيال لوجه الملكة تعلو الطابع. واستطراداً نشير إلى أن بريطانيا هي البلد الوحيد الذي لا يذكر اسمه على الطابع، طالما أن أول طابع ظهر فيها، كما أنه لا يذكر نوع النقد بجانب الرقم إذا كان الثمن أقل من جنيه استرليني.

وإضافة إلى صور الحكام، نرى صور الأبطال التاريخيين، مثل بطل استقلال أمريكا الجنوبية سيمون بوليفار على طوابع فنزويلا وكولومبيا والأرجنتين وغيرها، ونرى المنتجات الوطنية مصدر اعتزاز بلد معين، مثل المجموعة التي أصدرتها فرنسا في الستينيات تكريماً لصناعات تصميم الأزياء والعطور والمجوهرات.. ونرى أيضاً صور العلماء والمخترعين مثل آينشتاين على طابع أمريكي، وأيضاً اللوحات الفنية وخاصة في دول أوروبا اللاتينية (فرنسا، إيطاليا، إسبانيا) التي أصدرت طوابع تكريمية لكل الكبار من فنانيها ولوحاتهم. وتشمل موضوعات الطوابع أيضاً الحياة الفطرية بكل ما فيها من نباتات وحيوانات وأشجار، من دون أن ننسى الأشجار الوطنية كما هو حال الأرز في لبنان وورقة الدلب، رمز كندا. وفي عصر الاستعمار (حتى النصف الأول من القرن العشرين)، كانت المستعمرات شبه محرومة من حق إصدار الطوابع، كما أن بريدها هو في أيدي المستعمرين. ولذا كنا نرى الطوابع البريطانية العادية مثلاً تدمغ بالخط الأسود قبل استعمالها بعبارة «الهند» أو «الصين»، تماماً كما كانت الطوابع الفرنسية تدمغ بعبارة «إفريقيا الغربية الفرنسية» لاستعمالها هناك.

البريد والرسالة.. لغوياً

اختلف المؤرخون واللغويون العرب على نسبة كلمة «بريد». فبعضهم، مثل الزمخشري، رأى أن الكلمة عربية وتعني الرسول. فيما ذهب آخرون إلى نسبة كلمة البريد إلى البردة، وهي العباءة، إذ كان على ساعي البريد، أي الرسول الذي يحمل الرسائل، ارتداء عباءة حمراء ليتميز بها عن غيره من الناس. وجاء في «الموسوعة العربية العالمية» أن «كلمة بريد فارسية معربة أصلها «بريده دم»، ومعناها «مقطوع الذنب»، لأن بغال البريد كانت مقطوعة الأذناب علامة لها. ثم عُرِبت الكلمة وخففت. ويدور معنى البريد عند العرب على معنى الرسول، فهم يقولون الحمى بريد الموت، يريدون أنها رسوله، تتقدمه وتنذر به. ويقولون لطائر الغرانق: البريد، لأنه ينذر قدّام الأسد».

أما الرسالة، فهي تسمية واسعة لأي نص موجه إلى أفراد أو جماعة. وقد تكون الرسالة رسمية وجادة في نغمتها، غير شخصية، أو تكون تعبيراً ذاتياً خاصاً، أو بين الأمرين. وتضيف الموسوعة: إن لكلمة الرسالة أيضاً معنى دينياً، كأن يقال رسالة الإسلام بمعنى مضمون الإسلام ومقاصده وأهدافه الدينية والدنيوية. كذلك شاع استخدام كلمة الرسالة في أسماء بعض الأعمال الأدبية والفنية والعلمية في التراثين العربي والغربي.

جمع الطوابع

بدأ جمع الطوابع كهواية منذ الأيام الأولى لصدور الطابع البريطاني الأول. وإن بقيت هذه الهواية حكراً على صغار السن في بدايتها، فإنها سرعان

الطوابع.. مجال تتغنى فيه الشعوب بأبطالها وثقافاتها ورموزها





التاريخ والجغرافيا بكل ما فيهما على طوابع البريد

Corbis

ما صارت هواية الكبار، وتطورت في القرن العشرين لتضم كبار الأثرياء القادرين على أن يدفعوا عشرات أو مئات آلاف الدولارات ثمناً لطابع نادر.

ولكن بعيداً عن الجانب التجاري أو الاستثماري في جمع الطوابع وبشكل خاص النادر منها، تكمن القيمة الكبرى لهذه الهواية في بعدها الثقافي.

فمن يجمع الطوابع عليه أن يرتبها في مجلدات خاصة لهذه الغاية وفق انتمائها إلى هذه الدولة أو تلك. كما أن عليه أن يدرسها عن كثب ليرى أي اختلاف بينها وبين طابع مشابه على صعيد اللون أو السعر، وحتى حالة الطابع نفسه وما إذا كان ممزقاً أو ينقصه سن عند حافته. وخلال هذا الدرس، والتمعن في محتوى كل طابع على حدة، يكوّن الهاوي ثقافة عامة قد لا تتوافر له بصيغتها هذه وتنوعها من أي مصدر آخر. فيصبح وهو لا يزال على مقاعد الدراسة ملماً بصور حكام العالم والأبطال التاريخيين في هذه الدولة أو تلك، ونوعية الحياة الفطرية فيها، ومواردها الاقتصادي الأول وغير ذلك الكثير.

وبسبب جاذبيتها، أصبحت هواية جمع الطوابع الهواية التجميعية الأولى في العالم من دون أي منافس قريب. وأصبح عدد جمعيات هواة جمع الطوابع في العالم بالآلاف (في المملكة مثلاً، توجد جمعيتان لهواة جمع الطوابع ومقرهما في الرياض).

رولند هيل، مخترع أول طابع بريطاني

Getty Images

وتصدر سنوياً أربعة كاتالوجات شاملة بكل طوابع العالم مع تقدير أسعارها الحالية في حالتي الطابع: جديد ومستعمل. وهذه الكاتالوجات هي: ستانلي غيبونز في بريطانيا، وسكوت في أمريكا، ومايكل في ألمانيا، وأيفير في فرنسا.

نكسة الطابع.. وليس الهواية

قبل عصر الإنترنت، واجه الطابع محاولات الاستغناء عنه، عندما راحت بعض مؤسسات البريد في أمريكا أولاً ومن ثم في أوروبا وباقي دول العالم، تستعيض عنه بختم يمهر به الظرف يشير إلى دفع قيمة النقل، بدلاً من شراء طابع لهذه الغاية.

وقد رفض أفراد كثيرون اعتماد الختم، وتمسكوا بطابع البريد، خاصة في رسائلهم الشخصية. ولكن المؤسسات التي صارت توجه الرسالة الواحدة بالجملة إلى المئات والآلاف من الناس، لم تكن تبالي. لا بل ظهر الختم وسيلة فعالة ومريحة أكثر من إلصاق طابع على كل ظرف على حدة.

ومن ثم جاء تداعي عالم الرسالة الشخصية في عصر الإنترنت ليوجه ضربة قاسية لطابع البريد، ولكن ذلك لم يقضِ نهائياً على الطابع. بدليل أن الدول لا تزال تصدر طوابعها، لا بل إن تطوراً جديداً عزز بعض الشيء من كرامة الطابع الجريح. إذ ظهرت في أمريكا عام 1992م،

آلات بيع طوابع البريد في الشوارع على غرار آلات الصراف الآلي. كما أن دوائر البريد في كل بلدان العالم، لم تفقد اهتمامها بالطابع، الذي لا يزال يشكِّل مورداً مالياً مهماً لها، نظراً لإقبال الهواة عليه. ولذا نراها حتى اليوم لا تزال تصدر الطوابع التذكارية في مجموعات لمناسبات مختلفة، وتسوق بعضها بأسعار باهظة عبر ما يعرف اليوم الأول للإصدار، حيث يلصق الطابع على ظرف خاص، ويمهر بختم البريد على أنه «اليوم الأول»، الذي يبدو مختلفاً عن باقي الأيام، من وجهة نظر جامعي الطوابع طبعاً. أما لماذا، فالجواب عندهم.

البطاقات البريدية للتحيات والأيام الجميلة

تعود جذور البطاقات البريدية إلى ما قبل ظهور الطوابع. وكانت في بداياتها، عبارة عن قطعة من الورق المقوى المزين ببعض الزخارف البسيطة، التي تمت طباعتها بواسطة الحفر على الخشب، ومن ثم بالحفر على الحجر (الليتوغرافيا). وكانت هذه البطاقات تسلم باليد، ويقتصر استخدامها على تبادل التحيات أو توجيه الدعوات، أو بعض المجاملات الاجتماعية.

ولكن مع القفزة التي قفزها البريد تنظيماً وتنشيطاً، ظهرت في العام 1861م، البطاقات البريدية الحكومية (مدفوعة الأجرة مسبقاً)، وظلت هذه البطاقات قيد التداول حتى العام 1873م. أما البطاقات غير الحكومية، أي التي يجب أن تدفع أجرة نقلها في مكتب البريد، فقد ظهرت في النمسا أولاً عام 1869م، وبدءاً من العام التالي انتشرت البطاقات المصورة انتشار النار في الهشيم في كل أنحاء أوروبا. فقد أدى تولي القطاع الخاص مهمة إصدار هذه البطاقات إلى التفنن في اختيار موضوعاتها بما يرضي كل الأذواق والاهتمامات. ومع انتشار آلات التصوير الفوتوغرافي، وتطور الطباعة الملونة، ظهرت البطاقات البريدية القائمة على الصور الفوتوغرافية الملونة في العام 1939م، وما زالت صناعتها قائمة حتى اليوم. وبشكل عام، تبقى البطاقة البريدية، التي يمكن إرسالها من دون وضعها داخل ظرف، مؤلفة من لوح صغير من الورق المقوى، ينقسم خلفه الأبيض بخط عمودي، بحيث تكون نصف المساحة مخصصة لكتابة نص صغير، والنصف الآخر لكتابة العنوان، أما وجه البطاقة فتطبع عليه صورة، لا حدود للموضوعات التي يمكن أن تمثلها، شرط أن تستجيب لشرط واحد: أن تكون جميلة ومعبرة بشكل جميل. وبناء على هذا يمكن القول إن البطاقات البريدية كانت ولا تزال أعمالاً فنية حقيقية ومتكاملة وإن كانت صغيرة.

وقد ارتبط ازدهار هذا الفن بشكل خاص بحركة السفر والسياحة. فمن المهمات التقليدية التي ما كان يجوز للمسافر أو السائح بشكل خاص أن يهملها، كان إرسال البطاقات البريدية من وجهة سفره إلى ذويه وأصدقائه في وطنه. ولذا طغت على هذه البطاقات الصور الفوتوغرافية التي تمثل مشاهد سياحية وثقافية عامة خاصة بالبلد الذي تُصور وتروج فيه. وانتبه الكثيرون إلى الأهمية الجمالية والثقافية لهذه البطاقات، فكان شأنها شأن طوابع البريد، وسرعان ما تحولت إلى مادة هواية بالنسبة إلى الكثيرين الذين راحوا يجمعونها. حتى صارت الهواية التجميعية الثالثة في العالم بعد الطوابع والعملات.

وتحظى البطاقات البريدية وتاريخها بمتحف خاص هو «متحف البطاقة البريدية» القائم في مدينة شيكاغو الأمريكية، الذي يعرض لزواره المسيرة التاريخية التي قطعتها هذه الجوهرة الطباعية - البريدية منذ نشأتها وحتى اليوم... اليوم الذي يبدو فيه بعض المسافرين، وخاصة الشبان، يستعيضون عن البطاقات الجميلة الملونة والمفرحة، برسالة قصيرة عبر هاتفهم الجوال.. فهل تتغلب هذه الرسائل القصيرة على التاريخ الطويل للبطاقات البريدية وصناعتها العملاقة؟ حتى الآن لم يحصل الأمر، ولكن الخطر على البطاقة البريدية يبقى قائماً.



البطاقات البريدية.. أعمال فنية جميلة وصغيرة باتت مرتبطة بحركة السياحة والسفر



طاقة للعالم.. للوطن طاقات

الماء والصابون والمناديل الورقية

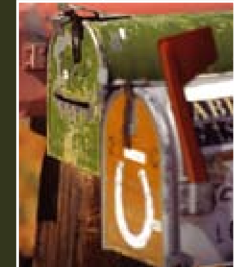
تحميك من أنفلونزا الخنازير..



- داوم على غسل يديك بالماء والصابون..
- استخدم مناديل ورقية عند السعال والعطس..

www.saudiaramco.com.sa





القافلة
مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
يوليو - أغسطس 2009
المجلد 58 العدد 4

ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com